د/ سامية حسن الساعاتى

الثقافة والشخصية

بحث فى علم الاجتماع الثقافى

الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

حورس للطباعة والنشر (مهندس / هشام الشربيني وشركاه)

١ ش المدق ـ خلف رقم ١٨٤ ش بورسعيد ـ السيدة زينب ت : ٣٩٥٧٦١٤

الاهـداء

إلى روح الرائد، والمعلم، والوالد
الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي
الذي علمني، وعلم أجيالاً من المتخصصين
الاجتماعيين، أصول البحث العلمي الاجتماعي
اعترافاً ببعض فضله، وعرفاناً بإرشاداته
القيمة، وعونه، وتشجيعه

سامية حسن الساعاتي



تصدير الطبعة الأولى

الثقافة والشخصية مجال جديد من مجالات العلوم الأجتماعية. وهو علم ناشئ يركز موضوعه على دراسة العلاقة التفاعلية المتبادلة بين الثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى.

والكتابة في علم الثقافة والشخصية، ليست بالأمر السهل الميسر، فهي محفوفة بصعاب كثيرة. ذلك أنه علم حديث العهد بالنسبة للعلوم الأنسانية الأخرى، فقد كان أول من درس موضوعه، هو الأنثروبولوجي الأمريكي «سابير» Sapir في أوائل الثلاثينيات. هذا الى جانب أنه علم نشأ كنتاج للتخصيب المثمر المتبادل بين عدة فروع من العلوم الأجتماعية والنفسية. لذلك كان لابد لمن يتناول هذا العلم بالدراسة والبحث أن يبين المنظور الذي سوف يتناوله من خلاله، لأنه يمكن أن يعالج من أكثر من زاوية، وأكثر من معالجة. فهناك المعالجة الثقافية، والمعالجة السيكولوجية، والمعالجة الأجتماعية، والمعالجة الأجتماعية الثقافية، إلخ.

وعلى الرغم من كثرة ما كتب حول موضوع الثقافة والشخصية من نظريات وبحوث ، فقد استرعى إنتباهنا أن المكتبة العربية تكاد تكون خالية من كتاب علمي أكاديمي متخصص في الثقافة، اللهم إلا إذا استثنينا كتابا واحدا بعنوان الثقافة والشخصية، لكن مضمونه كله يدور حول الأنثروبولوجيا النفسية، كما لاحظنا أن هذا الكتاب قد اصطبغ بصبغة أنثروبولوجية بارزة. وتفسير ذلك أن مؤلفه هو الأستاذ الدكتور عاطف وصفي أستاذ الأنثروبولوجيا، بقسم الأجتماع بكلية الآداب بجامعة القاهرة.

أما تناولنا لموضوع الثقافة والشخصية فسيكون من وجهة نظر علم الأجتماع الثقافي. وهو ذلك الفرع من علم الأجتماع الذي يتناول العلاقات الأجتماعية المحددة لسلوك الناس في ثقافة معينة، موضوعا لدراسته. وعلى هذا فإنه يدرس كذلك - بفضل هذه الحقيقة نفسها - الأفراد الحقيقيين الذين تتكون هذه العلاقة من أفعالهم.

إن عالم الأجتماع الثقافي، يضع في حسبانه، أن كل فعل إجتماعي - في ثقافة معينة - لا تقرره فحسب الظروف الموضوعية للموقف، وإنما تقرره كذلك أفكار الفرد عن هذا الموقف وعن نفسه. وهذا هو السبب في أن دراسة الميكانيزمات الأجتماعية في ثقافة معينة، يقتضي دراسة الفرد في السياق الأجتماعي الثقافي، ودراسة الشخصيات الحقيقية للأفراد، وأفكارهم عن أنفسهم، وعن الموقف ككل.

أن علم الأجتماع الثقافي يهتم بدراسة الإنسان في وحدة الكائن والشخص، ويؤكد دور الثقافة في تحويله من مجرد كائن إلى شخص ثم إنسان إجتماعي، كما أنه لا يهمل دور الشخص، والإنسان الاجتماعي في عمليات التغير الأجتماعي والثقافي.

والجديد في تناولنا - موضوع الثقافة والشخصية - في هذا المؤلف هو تعريفنا لهذا العلم بأنه ذلك العلم الذي يدرس تلك العلاقة الجدلية والتأثير والتأثر المتبادلين بين كل من الثقافة والشخصية في كل متكامل، أي أننا نشير إلى طبيعة تلك العلاقة التفاعلية الدائرية، والمؤثرة والمتأثرة بين الثقافة والشخصية. وهي التي تشكل حجر الزاوية في فهمنا لمعطيات هذا العلم ونظرياته وأبحاثه. وقد حاولنا أن نؤكد هذا المفهوم في مختلف فصول الكتاب، مقيمين الدلائل على ما نقول، سواء كان هذا بالنسبة لتعريفات الثقافة والشخصية، كل على حدة، أو بالنسبة للنظريات الخاصة بها كل على حدة أيضا، أو بالنسبة للنظريات والبحوث التي تناولتها في كل متكامل، كما سنرى فيما بعد.

أن المقولة الأساسية في علم الثقافة والشخصية تركز على أننا نتكيف مع العالم، وبتكيفنا نكيفه لنا، فنصنعه، وبصنعنا إياه، نصنع أنفسنا، فهناك تفاعل دائري، ومسيرة فاعلية جدلية. إن الفرد لا يعرف ذاته، إلا من خلال العالم الذي يحيط به ،

وفي ذلك يذهب كل من «هيدجر» و «سارتر» إلى أن «المجتمع يصنع الشخص، والشخص يصنع المجتمع».

ويضم هذا الكتاب بين دفتيه، مقدمة منهجية، وثلاثة أبواب، وعشرة فصول. وتتناول المقدمة المنهجية، موقفنا من استمرار استخدام اصطلاح الثقافة والشخصية، أو العدول عنه إلى اصطلاحات أخرى، وتعريفنا للعلم ومجاله وطبيعته.

أما الباب الأول فخاص بموضوع الثقافة، ويحتوي على أربعة فصول. يحتوي الفصل الأول منها على فكرة عن أهمية الثقافة، والأصول التاريخية للفكرة والمفهوم، والعلاقة بين الثقافة والحضارة، ثم دراسة لأهم تعريفات الثقافة التي وضعناها في تصنيفات معينة، واتبعنا كل تصنيف بتعليق نقدي، ثم أنهينا هذه التعريفات بتصنيف جديد أطلقنا عليه التعريفات الشمولية. وبينا أن من أهم أسباب امتياز هذا التصنيف على غيره من التعريفات تناوله للعلاقة بين الثقافة والشخصية. وفي الفصل الثاني اهتممنا بعرض أربع نظريات من نظريات الثقافة، لكل من «لنتن» و «سمنر» الأمريكيين، «ومالينفكسي» البولندي المولد، الإنكليزي بالتجنس، و «عبد الرحمن بن خلدون» العربي؛ لأننا رأينا أن هذه النظريات تلخص في وضوح أهم الأسس الخاصة بالثقافة. أما الفصل الثالث، فتعرضنا فيه لأهم خصائص الثقافة ومميزاتها، وذلك حتى تتضح لنا صورة الثقافة وتبرز معالمها. وفي الفصل الرابع، توفرنا على تحليل الثقافة إلى عناصرها المختلفة. وذلك كي نتبين كيف تنمو الثقافة وتتطور من بدايات صغيرة، إلى أن تصبح لها مكوناتها الماثلة.

أما الباب الثاني فهو خاص بالشخصية. ويضم ثلاثة فصول: الفصل الخامس يتناول أهم تعريفات الشخصية بالتصنيف والشرح والتعليق. ويعالج الفصل السادس أهم نظريات الشخصية، متبعا كل نظرية بتعليق نقدي. وفي النهاية يتناول هذا الفصل نصيب نظريات الشخصية من التأكيد على فكرة التأثيرات الاجتماعية عليها. ويهتم الفصل السابع بمحددات الشخصية، فيتناولها بالتصنيف والشرح والتعليق، وذلك لأهميتها في معرفة أي النواحي التي يشبه الفرد فيها كل الناس أو بعض الناس، أو لا يشبه أي إنسان على الأطلاق.

أما الباب الثالث والأخير فيتناول العلاقة الجدلية بين الثقافة والشخصية. وهو يمثل بلورة لكل فصول الكتاب. وللفكرة الرئيسية التي تبنيناها من أول صفحة فيه، ألا وهي فكرة التفاعل المتبادل والحوار الدائم بين الثقافة والشخصية. فيبين الفصل الثامن الحوار الجدلي بين الثقافة والشخصية. وفيه نشرح بإفاضة أثر الثقافة في الشخصية وأثر الشخصية في الثقافة. أما الفصل التاسع فيتناول أهم نظريات الثقافة والشخصية، تلك التي تبرز ذلك التعاون الحتمي المتبادل بين علماء الأنثروبولوجيا، والأجتماع، وعلم النفس في علم الثقافة والشخصية، ونهتم هنا بالنظريات التي تنتمي إلى الأتجاه التكراري، وتلك التي تندرج ضمن الأتجاه التنظيمي. وفي الفصل العاشر والأخير نلقي الضوء على نظرية الشخصية القومية، بوجه خاص لايماننا بأهميتها الكبيرة في عصرنا الحالي في فهم الكثير عن الدول والشعوب المحيطة بنا، فضلا عن فهم أنفسنا كشعب. لذلك توسعنا في شرح أهم تعريفاتها، وتاريخ البحث فيها، والمراحل التي اجتازتها، ثم وضعها الراهن.

وجدير بالذكر أننا لم نقف في هذا الكتاب موقف الناقل من كتابات غيرنا، بل كانت لنا وجهات نظر جديدة، اتضحت بصفة خاصة، في وضع بعض التصنيفات، وصياغة بعض التعريفات وتناول الكثير من النظريات المتداولة في مجال علم الثقافة والشخصية بالتعليق والنقد.

وإنني أتوجه بالشكر إلى كل من عاونني في إنجاز هذا البحث، سواء باعارتي العديد من المراجع العربية والأجنبية، أو بمناقشتي في بعض نقاطه.

وأرجو أن يكون كتابي هذا قد سد بعضا من فراغ في موضوع الثقافة والشخصية، كما أتطلع إلى أن يكون فاتحة لدراسات أخرى، تزيد الموضوع ثراء. والله ولي التوفيق.

مصر الجديدة ١٩٧٧ — **سامية حسن الساعاتي**

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الطبعة الثانية

في ختام تصديري الطبعة الأولى من كتابي هذا ، رجوت أن يكون قد سَدَّ بعضاً من فراغ في موضوع الثقافة والشخصية، وتطلعت إلى أن يكون فاتحة لدراسات أخرى، أقوم بها أو يقوم بها غيري، تزيد الموضوع ثراء.

أما عن رجائي، فقد تحقق بحمد الله. وليس أدل على ذلك من اعتماده الكتاب المقرر للطلاب الذين يدرسون مقرر الثقافة والشخصية كمادة أساسية في خطط الدراسة بأقسام الاجتماع في كلياتهم. وهنا يجب أن أشير إلى أن قسم علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، الذي تخرجت منه وكلفت بالعمل ثم قمت بالتدريس فيه، قبل أن أعين أستاذة مساعدة بكلية البنات بالجامعة نفسها، كان أول قسم يضمِّن خطة الدراسة فيه مادة الثقافة والشخصية لطلاب الصف الثاني، الذين يدرسون دراسة متكاملة تكون ما أطلق عليه، وفق نظام الكلية، شهادة الأسس النفسية الاجتماعية. وكان الدافع إلى ذلك تقليد تكاملي علمي أوجدته تجربة واقعة؛ وهي أن التخصص في علم الاجتماع، منذ الانفصال عن قسم الفلسفة عام ١٩٥٢، كان في فرع من قسم علم النفس والاجتماع، تبدأ الدراسة فيه في الصف الثالث؛ أي بعد دراسة الطلاب مدة سنتين دراسة متزاوجة ومنسجمة لعلم النفس وعلم الاجتماع، على أساس المنظور التكاملي الذي تبناه القسم ، وهو يتلخص في أن الإنسان الاجتماعي كائن عضوي نفسي - اجتماعي.

وقد سار القسم على هذا الدرب واحدا وعشرين عاما؛ رأى بعدها أن كلا من الفرعين قد تم نضجه ليصبح قسما مستقلا بذاته. وهذا ما تم في خريف ١٩٧٣ على

يدي رئيسه آنئذ، الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي، الذي كان له فضل إدخال مادة الثقافة والشخصية على النحو الذي ذكرته، والذي وجهني إلى البحث والتأليف فيها، باعتبارها الموضوع الرئيسي ذلك العلم الجديد، وهو علم الثقافة (Culturology) ، الذي أمكن بلورته من علوم أجتماعية ثلاثة، وهي علم الاجتماع، وعلم النفس الأجتماعي، وعلم الإنسان الاجتماعي والثقافي. وقد أمكن بالمثابرة على البحث، أن تتضح الرؤية الأجتماعية الثقافية تدريجيا، حتى تمت بلورة الموضوع الرئيسي بدوره، في علم جديد أصبح يعرف بعلم الثقافة والشخصية، الذي جعلنا منه ميدانا أصيلا لبحوثنا في الأدوار الأجتماعية، واختيار أسماء الأفراد، وظاهرة السحر، وهجرة الكفايات، وفاعليات الشباب في مجتمع سريع التغير.

وهكذا حققت تطلعي كما تحقق رجائي. وأشعر الآن بسعادة غامرة، وأنا أكتب هذا التصدير للطبعة الثانية من هذا الكتاب. وقد أجريت عليه بعض تعديلات شكلية، كما اجتهدت في تصحيح الأخطاء المطبعية التي وقعت في الطبعة الأولى. وكم شعرت بالرضا وأنا أراجع الكتاب للطبع، عندما وجدت أنني قد وفيت ابن خلدون حقه بذكر أفكاره الأصيلة في أثر كل من الوراثة والبيئة، وبخاصة الأسرة، في تكوين السمات الأساسية في شخصية الأفراد. والحق إنه ليغلب أثر البيئة على أثر الوراثة. وليس هذا بمستغرب على هذا العالم الفذ الذي جعل اسم العلم الذي وضعه في مقدمته، **علم المعاشرة بين بني الإنسان**. فهو منذ ستمائة عام خلت، قد استطاع بملاحظاته الثاقبة، وبحوثه الرائدة السديدة، أن يستقريء أثر المعاشرة بين البشر في تكوين شخصياتهم. ولقد استطعت الأهتداء إلى اسم علمه الأجتماعي هذا من كثرة اطلاعي على مقدمته، التي جذبنا اليها وحببنا فيها الأستاذ الدكتور حسن الساعاتي الذي قررها على طلاب الصف الأول بالقسم في كلية الآداب بجامعة عين شمس، وترك لي تدريسها لهم مدة خمسة أعوام كان معارا فيها إلى جامعة بيروت العربية. وإن هذا الفضل وحده ليتضاءل أمامه إهداء كتابي هذا اليه. وعلى الله قصد السبيل.

سامية حسن الساعاتي

مصر الجديدة، القاهرة،
كانون أول (فبراير) ١٩٨٣.

تصدير الطبعة الثالثة

يأتي تصديري للطبعة الثالثة من كتابي هذا، وقد رحل عنا منذ شهر الأب والأستاذ الحبيب الأستاذ الدكتور/ **حسن الساعاتي**، عميد الاجتماعيين العرب والحائز على جائزة الدولة في العلوم الاجتماعية، وجائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة جامعة موسكو لعلوم الثقافة والمركز العالمي للتربية في بيفرلي هيلز بكاليفورنيا، وهو الذي كان له فضل السبق في إدخال مادة الثقافة والشخصية في أقسام الاجتماع في مصر والدول العربية.

وعلم الثقافة والشخصية هو ثمرة حوار دائم، ومتبادل بين علوم ثلاثة هي الأنثروبولوجيا، والاجتماع، وعلم النفس.

ويرتكز تناولنا لموضوع الثقافة والشخصية على منظور علم الاجتماع الثقافي، الذي يؤكد دور الثقافة في تحويل الإنسان من مجرد كائن إلى شخص ثم إنسان يعيش في مجتمع، وهو لا ينسى دور الشخص في التغير الاجتماعي والثقافي. أي أنه يهتم أساسا بحوار التأثير والتأثر بين الثقافة والشخصية، وهي أن المجتمع يصنع الإنسان، والإنسان يصنع المجتمع.

وأحمد الله أن كتابي قد نفذت طبعتاه الأولى والثانية، لأنه قد اعتمد للطلاب الذين يدرسون مقرر الثقافة والشخصية، في أقسام الاجتماع والخدمة الاجتماعية في مختلف الجامعات المصرية والعربية. كما أن القارئ العادي يقبل عليه، لأهمية موضوعه، ومعاصرته.

وإنني أختم تصديري لهذه الطبعة الثالثة من الكتاب بإزجاء الشكر والامتنان إلى روح والدي وأستاذي، الأستاذ الدكتور/ **حسن الساعاتي**، الذي جذبنا إلى هذا العلم وحببنا فيه. وأعده بأن ننبت ما زرعه فينا، وأن نجتهد لكي نكمل رسالته.. ونكون على دربه سائرين.

والله ولي التوفيق.

سامية حسن الساعاتي

مصر الجديدة في نوفمبر ١٩٩٧.

تصدير الطبعة الرابعة

بعد مرور خمس سنوات على نـشر الطبعة الثالثة من كتـابى هذا : «الثقافة والشخصية بحث فى علم الاجتماع الثقافى» ، يطيب لى أن ينشر من جديد ، بعد أن نقحته تنقيحا واضحا ، فضمنته فصلا جديدا بعنوان نظرية الدور : تحليل نقدى وتصور مقترح . كما اجتهدت فى تصحيح الأخطاء المطبعية التى وقعت فى الطبعة الثالثة .

ومن الواضح أن هناك نمطا ثقـافيا أسـاسيـا وعالميا تسـير وفقـا له ، وتنظم معياريا كل أنواع العـلاقات الدائمة بين الأفراد ومحيطاتهم الاجتمـاعية ، وهذا ما نعرفه باصطلاح الدور الاجتماعى .

ولاشك أن علم الثقافة والشخصية ، الذى هو ثمرة الحوار الدائم ، والمتبادل بين علوم ثلاثة هى الأنثـروبولوجيـا ، والاجتمـاع ، وعلم النفس ، لهـو الميدان الأصيل لبحوثنا فى الأدوار الاجتماعية .

وما الأدوار الاجتماعية إلا نتاجا للتفاعل المتبادل بين الثقافة والشخصية ، أو بمعنى آخر ،نرى أنها تمثل الخلفية الثقافية للشخصية ، لذلك كان من المهم تضمينها فى كتابـى : الثقافة والشـخصية ، وبذلك أكون أتممـت موضوعات حوار الـتأثير والتأثر بين الثقـافة والشخصيـة، والتى تؤكد أن المجتمع يصنع الإنسـان ، كما أن الإنسان يصنع المجتمع .

وإننى لأشعر بسعادة غامرة ، وأنا أكتب هذا التصدير للطبعة الرابعة من هذا الكتاب ، فقـد اعتُمدَ للطلاب الذين يدرسون مقـرر الثقافة والشخصـية فى أقسام الاجتماع والخدمة الاجـتماعية ، فى مختلف الجامعات المصـرية والعربية ، كما أن القارئ العادى يقبل عليه ، لأهمية موضوعه ، ومعاصرته .

والله من وراء القصد .

مصر الجديدة / ٢٠ أكتوبر ٢٠٠١

د. سامية الساعاتي

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الثقافة والشخصية:

مقدمة منهجية

تمهيد:

الثقافة والشخصية ميدان مشترك بين علم الانثروبولوجيا من ناحية وعلم النفس من ناحية أخرى. على أساس أن علم الانثروبولوجيا هو العلم الذي يهتم بدراسة الثقافة ويخصص لها فرعاً مستقلا هو الانثروبولوجيا الثقافية بينما الشخصية هي أحد المباحث الهامة في علم النفس، حتى أن هناك فرعاً مستقلا من علم النفس يعرف بعلم نفس الشخصية وربما كانت هذه الصلة هي التي جعلت بعض العلماء المحدثين يطلقون على مجال البحث في الثقافة والشخصية اصطلاحاً جديداً مستلهما من هذه الصلة التي ذكرناها آنفاً بين الانثروبولوجيا وعلم النفس، ليصبح هذا المجال اسم جديد هو الانثروبولوجيا النفسية **Psychological Anthropology**.

ويهتم علماء الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة أساليب معيشة الناس في المناطق المختلفة من العالم، بينما يهتم علماء سيكلوجية الشخصية والأطباء والمحللون النفسيون بتحليل الشخصية الانسانية لفهمها إلى جانب التعرف على أسباب اختلاف سلوك الناس بعضهم بعضا.

وقد ظهر أخيرا اهتمام متبادل بين علماء الانثروبولوجيا الثقافية وعلماء نفس الشخصية كل بمجال الآخر، فاهتم علماء الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الشخصية، لمعرفة تأثير الثقافة على شخصيات حامليها، كما اهتم علماء نفس الشخصية بالثقافة كعامل محدد للشخصية لا يمكن أهماله حين تدرس الشخصية في حالة السواء أو المرض.

وجدير بالذكر أن اصطلاح الثقافة والشخصية قد تعرض لبعض الانتقادات والمحاولات لتعديله، أو تغييره، فنرى أن «ملامون ومرى» Kluckhohn and Murray يفضلان استخدام اصطلاح الثقافة في الشخصية أو الشخصية في الثقافة 'Culture in Personality' or 'Personality in Culture' لان اصطلاح الثقافة والشخصية في نظرهما يهمل محددات الشخصية الأخرى. كما أنه قد يعنى نوعاً من التناقض وعدم التناغم[1].

أما «هسو» (Hsu) فيقترح استعمال اصطلاح «الأنثروبولوجيا النفسية». بدلا من الثقافة والشخصية مبررا ذلك بأسباب من أهمها أن الاصطلاح الأخير ينظر إلى الثقافة مستقلة عن الشخصية بينما لا تنمو الشخصية إلا من خلال تفاعلها مع الثقافة كما ظهر اصطلاح «سيكوانثوجرافى Psychoethnography أو الانثولوجيا النفسية كبديل لاصطلاح الثقافة والشخصية في استعراض لكتاب بهذا العنوان في مجلة الانثروبولوجيا الأمريكية، لكن هذا الاصطلاح لم يكتب له الانتشار أو الذيوع.

وعلى أية حال فان اصطلاح «الثقافة والشخصية» ما زال هو الاصطلاح الاكثر رواجا والأكثر استخداما حتى الآن للدلالة على ذلك المجال الذي يركز على دراسة العلاقة المتبادلة بين كل من الثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى:

وترى المؤلفة ـ مختلفة في ذلك مع كل من «كلاكون ومرى» من ناحية، و «هسو» من ناحية أخرى أن اصطلاح الثقافة والشخصية إنما هو أنسب اصطلاح للدلالة على هذا الفرع من المعرفة الانسانية وذلك لسببين أساسين.

أولا ـ اصطلاح «الثقافة والشخصية» يؤكد الوحدة والتكميل والكلية، ويوحى بتلك العلاقة الجدلية أو الحوار المستمر والتأثير بين الثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى وبينما نجد أن هنالك علوما مختلفة تدرس الثقافة وعلوما أخرى تركز على دراسة الشخصية فان الثقافة والشخصية هي المجال الوحيد لدراستها في كل متكامل متفاعل.

---

(١) انظر

Kluckhohn, C. and Murray, H (eds) *Personality in Nature, Society and Culture*, P. 44.

ثانياً ـ اصطلاح الانثروبولوجيا النفسية يضيق نطاق دراسة الثقافة والشخصية، ويقصرها على تضافر جهود علماء علمين اثنين فقط من العلوم الاجتماعية هما علم الانثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس، بينما نجد أن علم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي من العلوم التي يهتم المشتغلون بهما بمسألة العلاقة بين الثقافة والشخصية حتى أنهم ليفردون لها بعض مؤلفاتهم، أو فصولا في مؤلفات[1] لذلك فان الثقافة والشخصية في رأينا هي الاصطلاح الأنسب لأنها تدخل في الاعتبار تلك العلوم التي تهتم بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية من وجهة نظرها، وبذلك تضاف **أبعاد جديدة تثرى مجال** دراسة الثقافة والشخصية. وتظهر أهمية علم الاجتماع في دراسة الثقافة والشخصية وتفاعلهما ونموهما بحيث **يمكن القول في النهاية أن هناك حقيقة تكاملية للمجتمع والثقافة والشخصية من حيث أنها ظاهرة انسانية، وهذه الحقيقة هي التي تكون الموقف الإنساني في جملته**، أما أهمية علم النفس الاجتماعي في دراسة الثقافة والشخصية فتتبدى في أنه العلم الذي يمثل المعبر ما بين علم النفس وعلم الاجتماع، ويهتم بالظواهر المشتركة بينهما، ومن أهم الموضوعات التي يركز علم النفس الاجتماعي على دراستها، عملية التنشئة الاجتماعية وهي عملية أساسية ورئيسية لفهم طبيعة الثقافة والشخصية. فهذه العملية إذا نظرنا إليها نظرة سطحية نجد أنها شرط ضروري لاستمرار البناء الاجتماعي، واستمرار الثقافة، لكن النظرة المتعمقة إليها تبين أن وراءها حقيقة أكبر. فالمجتمع الانساني إنما يتطلب السلوك الانساني المدفوع دائماً في بنية سلوكية مشكلة ثقافيا، قائمة على الوعي بطبيعة العالم والنفس، تلعب فيها المعانى والقيم التقليدية دورا حيوياً في تنظيم الحاجات والأهداف وتوجد فيها إمكانية القدرة على اعادة التنظيم كما يتضح من الاختراع والتغير الثقافي.

إن تداخل لفظي الثقافة والشخصية ليقدم لنا دليلا ضمنيا على أحد المميزات

---

(١) أنظر على سبيل المثال:

(1) Ogburn, W.F., & Nimkoff, M.F. *Sociology*, 1946. pp. 191: 214.

(2) Merrill, P.E., *Society and Culture*, 1961 pp. 11 – 221.

البارزة في الدراسات التي تمت تحت هذا العنوان، لقد ركزت الانتباه مرة ثانية على مشاكل أساسية لفهم أعمق لطبيعة الانسان وسلوكه والمعنى الأساسي للثقافة على مستوى أكبر للتكامل الشامل. ويتضمن هذا بالضرورة في حدود تنظيم المعرفة الآن إطارا من النظم العلمية المتداخلة.

الثقافة والشخصية: تعريف بالعلم ومجاله وطبيعته:

تأسيسا على ما تقدم يمكننا القول بأن الثقافة والشخصية مجال جديد من مجالات العلوم الاجتماعية نشأ كنتاج للتخصيب المتبادل بين عدة فروع للعلوم الاجتماعية والنفسية، وهو تخصيب ضروري ومثمر الى أبعد الحدود لأنه يجيب على أسئلة مشتركة بين هذه العلوم حول طبيعة الانسان وسلوكه.

ويمكننا تعريف علم الثقافة والشخصية بأنه «**ذلك العلم الذي يدرس تلك العلاقة الجدلية والتأثير المتبادلين بين كل من الثقافة والشخصية في كل متكامل**. بعبارة أخرى أنه ذلك العلم الذي يدرس تأثير الثقافة على الشخصية، وتأثير الشخصية على الثقافة» وهذا التعريف يعني أن الافراد في المجتمع، **ليسوا مجرد مخلوقات ثقافية أو حاملين سلبيين للثقافة على حد تعبير دولارد**[1]، Dollard لكنه يدخل في الاعتبار أنهم خالقين لها، ومبتكرين اياها، ومجددين فيها.

أن العلاقة بين الثقافة والشخصية علاقة شديدة التعقيد فالأفراد يختلفون من حيث قدراتهم العقلية وخصائصهم المزاجية والجسمية زيادة على ذلك فإن لكل جماعة إنسانية تفسيراتها الخاصة للثقافة، كما أن لها مجموعة من النماذج الثقافية كما أن النماذج الثقافية، تختلف بدورها باختلاف الثقافات الفرعية والطبقات الاجتماعية. لذلك فإن لكل فرد تكوينه البيولوجي الفريد، وتاريخه الاجتماعي الخاص به. وعلى الرغم من حقيقة وجود أختلافات بين الافراد فإنه تبقى هناك صفات متماثلة ومشتركة

---

(1) Dollard, J. "Culture Society, Impulse and Socialization." *A.J.S* vol. 45. 1939. pp. 50: 63.

بين الأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافة واحدة. وتعد هذه الصفات المتماثلة والمشتركة أساس الدراسة العلمية لعلم الثقافة والشخصية.

ان الثقافة والشخصية ليستا موضوعين منفصلين، بل هما في الواقع، وجهان لشيء واحد. إنهما جزء من عملية التفاعل التي يتكيف بها الناس لبيئتهم الجغرافية ولمجموعاتهم الاجتماعية ولأنفسهم أيضاً. أن كلا من الثقافة والشخصية يعيش في الفرد، أو أنهما الفرد كما يعدل بالتعلم[1].

وحينما ننظر إلى عملية التعلم في علاقتها بالثقافة نجد أنها قد صورت بطريقة غاية في البساطة، وقد كان ذلك لأنها لم تقدر في محيط علاقتها ببناء الشخصية وبالتالي بإمكانيات التوافق والخلق التي يسمح بها، هذا المستوى من التنظيم النفسي في الانسان.

ونحن نعلم الآن أنه لو قلنا فقط أن الانسان إنما يكتسب الثقافة عن طريق التعليم في عملية التنشئة الاجتماعية فإن ذلك لا يكون سوى اعتراف بالجهل بما تتضمنه هذه العملية فعلا. ونحن نعلم أن الثقافة ليست ما يقدم مباشرة إلى الفرد ويتعلمه في جزء من هذه العملية. فعملية التنشئة الاجتماعية منذ بدايتها أنما تتم بواسطة علاقات شخصية حميمة بين الطفل والبالغين، وهي تتضمن مكونات عاطفية وتلعب فيها وسائل الاتصال الرمزي دورا هاماً. والفرد الذي يبدأ في مستوى من الاعتماد يجب أن يحصل على قدرة الحركة المستقلة الإرادية، وأن يحقق بعض الأنماط المتكاملة التي نطلق عليها «بناء الشخصية» ونحن نعلم أنه بينما يتخذ هذا البناء أشكالا مختلفة، فإن هناك بالتالي عناصر دائمة مميزة لبناء الشخصية الانسانية في معناها الشامل. لذلك لو نظرنا للامر نظرة محسوسة فإن الثقافة تصبح جزءا من الفرد، ولو أن الامر لم يكن كذلك لما استطاع أن يعيشها ولا أن ينقلها إلى غيره. فالعقائد التي ننظر إليها نظرة مجردة كجزء من الثقافة الموصوفة وصفاً موضوعياً هي معتقداته، كذلك تتوحد القيم بنظام الدوافع الخاصة به حتى حاجاته وأهدافه رغم أنها ذات تكوين ثقافي إلا أنها تقوم بوظيفة حاجاته وأهدافه الشخصية.

(1) Spiro, Memford E., *Culture and Personality, Psychiatry* 14, 1951. p. 43.

فالثقافة كما يعيشها الأفراد ليست بالشيء المنفصل عنهم ولا عن التنظيم الاجتماعي الذي يؤدي لحياة الجماعة وظيفتها تماماً كما لا نستطيع أن نفرق بين شكل الحيوان وتركيبه الجسمي ونظام المورثات الذي هو قوامه.

ولا تعتمد الثقافة التي تحيا وتؤدي وظيفتها في وجودها على مجموعة الكائنات الانسانية المجردة وأنما على الطريقة التي يتشكل بها هؤلاء الأفراد نفسياً. ويمكن أن نقول أن الثقافة تصبح «تعبيرا» عن طريقة توافقهم السيكوديناميي بقدر ما هي «شرط» لتنشئة أجيال متعاقبة من الأفراد على نفس الشاكلة[1].

ويرى «فروم» Fromm (١٩٤٩) أن المجتمع الصناعي الحديث على سبيل المثال، لم يكن ليصل إلى أهدافه لو لم يحفز طاقة الرجال الأحرار بدرجة غير مألوفة. وكان على الشخص أن يشكل بحيث يصبح شغوفا في صرف معظم الثقافات الأخرى، ولم يكن يكفي لو قرر كل فرد يومياً بطريقة شعورية أنه يريد أن يعمل ويحافظ على مواعيده.. الخ حيث أن مثل هذا القصد الشعوري قد يؤدي إلى استثناءات أكبر من أن يتحملها الأداء الوظيفي السهل للمجتمع، ولم يكن التهديد والقوة ليكفيان كدافع للعمل حيث أن العمل المتخصص إلى أبعد الحدود في المجتمع الصناعي الحديث لا يمكن أن يكون إلا لرجال أحرار لا عمال مجبرين. وأصبح لزاما أن تتحول هذه الصورة من العمل والترتيب والمواظبة إلى (دافع) لهذه الصفات وهذا يعني أن على المجتمع أن ينتج مثل هذه الشخصية الاجتماعية التي توجد فيها هذه الدوافع.

بعبارة أخرى يمكن القول بأن «فروم» يرى أنه يجب على الكائنات الإنسانية أن تتشكل إرضاءً حتى أنهم (يريدون أن يعملوا كما يجب أن يعملوا، ويجدون في نفس الوقت إرضا في أن يعملوا طبقاً لمقتضيات الثقافة). وتبعا لفروم يجب أن يكون هناك بناء شخصية مركزى يشارك فيه معظم أعضاء الثقافة أى ما يطلق عليه الشخصية الاجتماعية أو الجماعية أو المنوالية والتي يرى أن أداءها الوظيفي جوهري لأداء الثقافة

(1) Hallowell, A.J., "Culture, Personality and Society," in Kroeber A., *Anthropology (To — Day)* pp. 597 - 620.

لوظيفتها بصفة مستمرة ولو نظرنا إلى تنشئة الأطفال في محيط الثقافة لوجدنا أنها تصبح «أحد الآليات الدالة على تحويل الضروريات الاجتماعية إلى سمات في الشخصية[1]».

وتتميز مشكلات التنشئة الاجتماعية بأنها تختلف من مجتمع إلى آخر. فبعض المجتمعات أسهل من غيرها من زاوية توافق الشخص معها، ومرد ذلك يرجع إلى متطلبات ثقافة كل مجتمع من أفراده. فكل مجتمع له مساره وتطوره التاريخي، والاقتصادي والاجتماعي الذي ينفرد به كما أن له نظمه الخاصة ونموذجه الفريد من الأدوار الثقافية وليس من شك أن المشكلات الانفعالية المرتبطة باشباع المتطلبات الثقافية للمجتمع تزداد في المجتمع الدينامي المعقد عنها في المجتمع الثابت البسيط نسبيا.

وبينما يستطيع الانسان، بناء على إمكاناته العضوية الكامنة، أن يتوافق مع الحياة تحت ظروف مختلفة فإن أي ثقافة معينة تعتمد على تنظيم نفسي مميز لمجموعة من الافراد، ولا تستطيع أن تبقي على وجودها إلا إذا تحقق هذا الشرط. وفي حدود هذا الشرط تنطلق بحرية إمكانات الانسان لاعادة التوافق والابتكار كظاهرة إنسانية دائمة. وقد تنشأ ثقافات معينة وتزدهر ثم تختفي، ولكن لكي تحل محلها طرق أخرى للمعيشة لذلك فإن الحديث عن الأفراد على أنهم «حملة الثقافة» أو مخلوقات ثقافية لا يقيم وزنا لكل ما نعرفه عن طبيعة الانسان حقها من حيث هو خالق وسيلته المعيشية التي هي أكثر صفاته تميزا. وإلا فكيف يمكننا أن نفسر نشأة عنصر ثقافي جديد؟ أو أن نعلل لعملية التغير الثقافي؟ والتوافق الشخصي؟

وفي نهاية حديثنا عن طبيعة العلاقة بين الثقافة والشخصية نود أن نحذر من الوقوع في خطأ تغلب أي منهما على الآخر، أو النظر إلى العلاقة بينهما من اتجاه واحد[2].

---

(١) انظر المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

(٢) كان الكثير من المتخصصين في العلوم الاجتماعية يؤكدون جانب الثقافة واهميتها على حساب الشخصية ومن أهم هؤلاء «ليزلي هوايت» في اتجاهه الثقافي.

وعلم الثقافة والشخصية كأي علم، يتميز بوجود موضوع ينفرد به، وهو العلاقة الجدلية المتبادلة بين الثقافة والشخصية كما يتميز بمنهج يستخدمه في الدراسة والبحث. أما من حيث الموضوع فقد أفضنا في الحديث عنه، وأما من حيث المنهج فيعتمد هذا العلم أساساً على المنهج الوصفي التحليلي والمقارن ويستعين هذا المنهج بطرق ووسائل وأدوات للبحث فأما طرق البحث في علم الثقافة والشخصية فتتبلور في طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقارنة، وطريقة دراسة سير الحياة وطريقة تحليل المضمون سواء بالنسبة لمضمونات الأدب الشعبي أو الأدب المسرحي أو الفن، أو الأحلام والرؤى وأخيراً طريقة المسح الثقافي.

ومن أهم الوسائل التي يستخدمها علم الثقافة والشخصية الاختبارات النفسية المختلفة والاسقاطية منها بوجه خاص والخرائط وتسجيل الأحلام، وتسجيل تواريخ الحياة والاستبار Interviewing ومن بين الأدوات التي يستخدمها هذا العلم أجهزة التسجيل والدمى واللعب، هذا إلى جانب الحواس الإنسانية كالبصر والسمع وهي أدوات أساسية للملاحظة.

وجدير بالذكر أن الأبحاث في علم الثقافة والشخصية تتميز بأنها أبحاث كيفية تعتمد على الوصف والملاحظة لا على الكم والاحصاء.

= Leslie A. White, "Ethnological Theory" in Sellars, Me Gill, and M. Ferber (eds) *Philosophy for the Future*, *Macmillan*, N.Y. 1949.

لكن الأبحاث الميدانية أثبتت خطأ هذه الحتمية الثقافية التي ترى أن الثقافة هي العامل الوحيد الذي يؤثر في الشخصية في حين لا تؤثر الشخصية في الثقافة. ولم يعد أحد ينادي بها أو يدافع عنها

البَاب الأوَّل

الثقافـــة

الفصل الأول

تعريفات الثقافة

تمهيد:

اصطلاح «الثقافة» Culture كما نستخدمه اليوم يرجع إلى عهد حديث نسبياً رغم أن اللغة العربية واللغات الأوربية قد عرفت اللفظ منذ عهد بعيد. ولكن اللفظ «الثقافة» لم يتخذ معنى محدداً إلا على أيدى علماء الأجتماع المعروفين «بالأنثروبولوجيين» أو «الثقافيين» الذين استبعدوا كثيراً من معاني هذا اللفظ الأخرى، في اللغات الأوربية بوجه خاص كمعنى التثقيف والتهذيب، والتربية، النباتية والزرع.. الخ، وأصبحوا يستعملونه كاصطلاح «للدلالة على كل ما صنعه أي شعب من الشعوب أو أوجده لنفسه ـ من مصنوعات يدوية، ومحرمات، ونظم اجتماعية سائدة، وأدوات ومعاول، وأسلوب للتعبد وباختصار كل ما صنعه الإنسان أينما وجد، مما يطلق عليه علم الأنثروبولوجيا اصطلاحه هذا.

«فالثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية، هي مجمل التراث الاجتماعي، أو هي أسلوب حياة المجتمع. وعلى ذلك فلكل شعب في الأرض ثقافة، بمعنى أن له أنماط معينة من السلوك والتنظيم الداخلي لحياته، والتفكير والمعاملات التي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها، والتي تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي، وعن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشئون الحياة والممارسة لها.

وبما أن الانسان في كل مكان على وجه الأرض يحتاج إلى الغذاء والكساء والمأوى والأمن من الهلاك كما يحتاج أيضاً لاشباع رغبته الجنسية، نجد أن ثقافات الشعوب تتفق جميعاً على تنظيم الحاجات الاجتماعية لأفراد المجتمع. ومعنى هذا أن بعض عناصر الثقافة متشابهة في كل المجتمعات. وكما تتشابه الثقافات فإنها أيضاً تختلف وتتفاوت تبعاً لأمور كثيرة من أبرزها وأهمها الوسائل المؤدية إلى اشباع هذه الحاجات وصور التنظيم نفسه الذي تنتهجه الجماعة لتحقيق رغباتها واشباع حاجاتها.

والثقافة دائمة التغير بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوكية أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات القديمة التي لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة. وتتفاوت المجتمعات في تغيرها الثقافي من حيث طبيعة هذا التغير وسرعته ودرجته ومداه والأسباب الداعية إليه. فقد تكون جغرافية أو اقتصادية أو فكرية وقد تتضافر كلها وتشترك مع غيرها من العوامل الأخرى.

أهمية الثقافة:

تظهر لنا أهمية الثقافة ومكانتها بين العلوم الاجتماعية إذا ما استعرضنا آراء الكثيرين من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فنجد (ستيوارت تشيز) (Stuart Chase) يقول: أن مفهوم الثقافة عند الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين قد أصبح حجر الأساس في العلوم الاجتماعية[1].

أما (مالينفسكي) فيشير إلى الثقافة على أنها أهم موضوعات العلوم الاجتماعية على الاطلاق[2].

وينظر «أوجبرن ونيمكوف»[3] (Ogburn and Nimkoff) إلى الحياة الاجتماعية بوصفها دراماً إنسانية يؤدي أدوارها أربعة ممثلين أساسيين، وهم الوراثة، والبيئة

---

(1) Chase, S. *The proper Study of Mankind*, N.Y., 1948, p.59.

(2) Malinowski, B., "Review of Six Easays on Culture by Albert Blumental" *A.S.R.* vol 4, pp. 583.

(٣) أنظر اوجبرن ونيمكوف، المصدر السابق ص ٩١.

.الجغرافية، والحياة الاجتماعية، والثقافة، لكنه يرى أن الثقافة هي وحدها التي تلعب الدور الأساسي في الدراما الانسانية، وذلك لعدة أسباب أهمها أن الانسان وحده هو الذي له ثقافة، وأن التراث الاجتماعي للانسان هو الذي يجعله مختلفاً عن الكائنات الأخرى. أما البيئة الجغرافية، والحياة الاجتماعية فهي عناصر قليلة الأهمية إذا ما أخذنا في الاعتبار تفرد الانسان وتميزه بعوامل معينة، لأن الانسان يشترك مع غيره من الأنواع الأخرى في هذين العنصرين وهما البيئة الجغرافية والحياة الاجتماعية. وعلى الرغم من أن الإنسان متميز في وراثته وأنه لولا الوراثة لما تطورت الثقافة إلا أن الوراثة عامل ثابت نسبياً ويتضح ذلك من حقيقة كون الانسان لم يتغير تكوينه البيولوجي منذ العشرة آلاف سنة الأخيرة. أما تراثه الاجتماعي فهو على العكس من ذلك.. أنه دائما دينامي متحرك.

أما «شابيرو» فيرى أن للثقافة أهمية كبيرة تظهر من قوله: «إن الثقافة مثل الهواء الذي نستنشقه، نسلم بوجوده تسليما ولكننا نكاد لا نشعر به»[1].

الأصول التاريخية للفكرة والمفهوم:

إن الفكرة العامة حول معنى الثقافة ليست بالجديدة، فقد وجدت بأشكال مختلفة في الانجيل ولدى هومر وهيبو كراتيس وهيرودوتس. الخ. وتبلورت في الاهتمام بأساليب الحياة المميزة للشعوب المختلفة فنجد أن «بويثيس» Boethius يقول مشيرا إلى مبدأ نسبية الثقافة Cultural relativity واختلاف أساليب معيشة الشعوب.

«إن عرف الأمم وقوانينها تختلف اختلافاً بينا لدرجة أن السلوك الذي تعده الأمم جديراً للثناء تعده أمم أخرى مستحقا للعقاب».

أما «ديكارت» Descartes فقد أوضح الفكرة بشكل أكثر تفصيلا في كتابه مقال في المنهج (Discourse on Method).

---

(1) Shapiro, H.L. *Aspects of Culture*, pp. 17: 23.

«من خلال أسفاري، تيقنت من أن كل هؤلاء الذين لهم إتجاهات وأساليب تختلف إختلافاً كثيراً عن إتجاهاتي وأساليبي ليسوا من أجل ذلك الاختلاف برابرة أو متوحشين بل أن لهم منطقهم الذي قد يتفوق على منطقي. إن الشخص نفسه الذي ينشأ منذ نعومة أظفاره بين الفرنسيين أو الألمان سوف يكون مختلفاً تماما إذا ما نشأ هو عينه بين اليابانيين أو بين آكلي لحوم البشر».

كما أن تلك الفكرة وجدت في كتابات «باسكال» (Pascal) ومونتسكيو (Montesquiueu) وفولتير (Voltaire) بدرجات مختلفة من الوضوح.

ويذكر «كروبير» (Kroeber) وكلاكون (Kluckhohn)[1] أن «سبنسر» قد سبق الرواد الانثروبولوجيين في إستخدام كلمة الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجي، وحيث يذكران أنه يعرفها بأنها «مجمل الإنجاز الإنساني».
The sum total of human achivement

أما كلمة الثقافة بمعناها الاصطلاحي الفني الأنثروبولوجي الحديث، فقد ارسيت دعائمها (بالانجليزية) بفضل «تايلور» Tylor سنة ١٨٧١ الذي اقتبس هذه الكلمة من الألمانية بعد بعض التردد بينها وبين كلمة حضارة Civilization لكن هذه الكلمة لم تظهر في أي قاموس انجليزي أو امريكي منذ ذلك التاريخ الا بعد اكثر من خمسين سنة.

ويصور فريق تحرير موسوعة العلوم الاجتماعية في مجلدها الأول في مقال لهم عن «الحرب» وإعادة التوجيه War and Reorientation المكانة التي وصل إليها مفهوم الثقافة حوالي سنة ١٩٣٠ فيقولون:

«إن النظرية الأساسية التي إحتلت مكان الصدارة في العلوم الاجتماعية في العقود الأولى من القرن العشرين هي نظرية الثقافة بحيث يمكن أن نقول أن هذا القرن قد شهد في نصفه الأول تمجيد الثقافة فقد بدا هذا المفهوم أكثر المفاهيم أهمية في كتابات العلماء الاجتماعيين في ذلك الوقت وبخاصة الأنثروبولوجيين وبدأ هؤلاء يتحدثون

---

(1) Kroeber A.L. & Kluckhohn Clyde, *Culture: A critical Review of Concepts and Definitions*, p. 5.

عن قطاعات وتفريعات لمفهوم الثقافة، مما يدل على ثراء هذا المفهوم. وظهر الاهتمام بمصطلحات السمات الثقافية culture traits والمناطق الثقافية culture areas والمراكز الثقافية culture centers والأنماط الثقافية culture types والنماذج الثقافية culture patterns والهجرات الثقافية culture migrations والإلتقاء الثقافي culture convergence والانتشار الثقافي culture diffusion كما انصب إهتمام العلماء على دراسة ميلاد الثقافة ونموها وتزاوجها وخصوبتها ونضجها وأفولها.

وقد دخل مفهوم الثقافة عناصر أخرى جديدة، ويرى أوبلر Opler ان نظرية الثقافة قد اصبحت تحوي كثيراً من أساليب العلاج النفسي Psychiatric Therapy والاهتمام بمشكلات الأقليات كما أصبحت تضم اتجاهات علمية تنمي الى مجال العلاقات الدولية.

وجدير بالذكر أن نفرا قليلا من السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين قد عارضوا بشكل ضمنى أحياناً وظاهرا أخرى إستخدام مفهوم الثقافة على أساس أنه مفهوم غامض وغير محدد نذكر منهم فون فيزا السوسيولوجي الألماني Leopold Von Wiese وراد كليف براون Radcliffe - Brown الأنثروبولوجي الانجليزي الذي يفضل إستخدام إصطلاح البناء الاجتماعي Social structure [1]

الثقافة والحضارة:

ذكرنا أن «تايلور» قد تردد بين إستخدام إصطلاح الثقافة، وإصطلاح الحضارة ثم فضل أخيراً إصطلاح الثقافة لأنه أقل إرتباطا بمفهوم التقدم في درجاته العالية. وقد إستمر الكثيرون من دارسي وعلماء الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من الانجليز والأمريكيين في إعتبار هذين المصطلحين مترادفين، فقد كانت المفهومات المرتبطة بكل منهما متقاربة جدا لدرجة جعلت مسألة المفاضلة بينهما هي مسألة ذوق شخصي إلى حد بعيد.

وجدير بالذكر أنه قد ظهرت في المانيا محاولات منفصلة لايجاد فروق حاسمة ما

---

(١) انظر كروبر وكلاكون، **المصدر السابق**، ص ٦، ٧.

بين الثقافة والحضارة. وكانت أولى هذه المحاولات على يد «فلهلم فون همبولدت» (Wilhelm Von Humboldt) والتي أكملها من بعده كل من «ليبرت وبارث» (Lippert and Barth) والتي تجعل الثقافة تختص بالأنشطة التكنولوجية - الاقتصادية، أو بالمجال المادي material أما الحضارة فتهتم بالجوانب الروحية واثرائها. وقد وجدت هذه النظرة انعكاسا وقتيا لها في علم الاجتماع الامريكي وذلك في كتابات «ليستروارد» Lester Ward و«ألبيون سمويل» Albion Small حوالي سنة ١٩٠٠ أما المحاولة الثانية فتبلورت في استخدام «شبنجلر» Spengler لاصطلاح الحضارة ليعني بها تلك المرحلة الاخيرة المتحجرة التي كانت تمثل فصل الشتاء بالنسبة لتطور الثقافات وذلك في تصوره الخاص للثقافة.

وقد كان لهذا الاستخدام اصداء واسعة ولكنها وقتية في المانيا، بيد انه لم يكن له الا انعكاسات قليلة خارج المانيا.

وقد ظهرت المحاولة الثالثة والاخيرة على يد الفرد فيبر Alfred Weber ١٩٢٠، الذي خص الحضارة بالأنشطة التكنولوجية والموضوعية. أما الثقافة فتختص بالجوانب الروحية الذاتية كالدين والفلسفة والفن. وقد لاقت هذه النظرة انعكاسات لها عند كل من ماكيفر Maciver وأودم Odum وميرتون Merton وهم من علماء الاجتماع الأمريكيين.

والحقيقة ان كثيرا من العلماء والمفكرين الانجليز قد كانوا اكثر مقاومة من نظرائهم الأمريكيين في قبول اصطلاح الثقافة وذلك لأنهم كانوا يجدون في اصطلاح الحضارة واصطلاح المجتمع Society بديلين عنه. لذلك فقد صيغ اصطلاح الانثربولوجيا الاجتماعية في بريطانيا وهو أكثر استخداما حتى الان بينما يفضل الأمريكيون استخدام اصطلاح الانثروبولوجيا الثقافية ونجد ان المؤرخ الانجليزي الشهير ارنولد توينبي يستخدم كثيرا اصطلاحي الحضارة والمجتمع لكنه لا يستخدم اصطلاح الثقافة الا نادرا. ويمكن تعليل ذلك بانه كراهية لاستخدام كلمة ثقافة التي ارسيت دعائمها اولا بلغة اخرى اجنبية. ويبدو ان المفكرين الأمريكيين كانوا اقل ترددا في الاستعارة من الالمان إذا ما قورنوا بالمفكرين من الانجليز.

أما في فرنسا فانهم اكثر مقاومة من الانجليز في استخدامهم لكلمة الثقافة اذ يؤثرون استخدام كلمة حضارة لتدل على ما تدل عليه الثقافة واحيانا يستخدمون كلمة Sociale لتدل على الاجتماعي والثقافي معا.

أما خارج هاتين الدولتين فان قبول اصطلاح الثقافة وفهم معناها على انها تشمل الجوانب الروحية والمادية معا قد اصبح عالميا في كل من روسيا ودول الكتلة الشرقيّة، والسويد والنرويج وهولندا وامريكا اللاتينية، بالمثل كما هو في المانيا والولايات المتحدة، وغيرها من الدول الاخرى[1].

تعريف الثقافة

ربما كان اشهر تعريفات الثقافة على الاطلاق، تعريف «تايلور» احد اقطاب علم الانثروبولوجيا ورواده الاوائل. وهو اول من اعطى مفهوم الثقافة، معناه الاصطلاحي وقد استخدم هذا المفهوم بالانجليزية لاول مرة سنة ١٨٧١ مستعيرا اياه من الالمانية Kultur وقد تاثر «تايلور» في استخدامه لكلمة الثقافة بعالم اماني هو الدكتور «جوستاف كلم» (١٨٠٢ - ١٨٦٧) Gustav Klemm والذي نشر في سنة ١٨٤٣ اول مجلد من Allgemeine culturgeachichte der Manscheit الذي اتمه سنة ١٨٥٢ ويتكون من عشر مجلدات بعنوان تاريخ الثقافة، وفي سنة ١٨٥٥ نشر كتابه بعنوان Allgemeine Culturissenschaft في مجلدين بعنوان الثقافة كعلم. وقد كتب «كلم» Klemm في مقدمة كتابه الاول أن هدفه من الكتاب هو ايضاح التطور التدريجي للبشرية ككل. die allmahliche Entwickelung der menschheit als eines Individluums.

وقد ذكر «تايلور» نفسه أنه اعتمد على «كلم» في كتابيه تاريخ الثقافة، ثم الثقافة كعلم، وذلك في كتابه «أبحاث في التاريخ القديم وتطور البشرية» (Researches into the Early History and Developement of Mankind الذي نشره في لندن سنة ١٨٧٠ وقد استخدم فيه كلمة الثقافة مرتين على الاقل وذلك في صفحتي ٤، ٣٦٩،

---

(١) أنظر كروبير وكلاكون، المصدر نفسه، ص ٢٨٧، ٢٨٩.

ولكنه كان لا يزال يستخدم لفظ الحضارة civilization بكثرة في هذا الكتاب[١].

أما كتاب تايلور الثاني «الثقافة البدائية» وهو أشهر أعماله فقد ظهر فيه اهتمامه البالغ بمفهوم الثقافة لدرجة أنه جعله عنوانا لهذا الكتاب، ويعرف فيه الثقافة بأنها «ذلك الكل المركب المعقد، الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضواً في مجتمع»[٢].

ويمكننا ان نقول دون مبالغة ان هناك اكثر من مائة تعريف للثقافة لعلماء ينتمون الى تخصصات مختلفة منها الأنثروبولوجيا والأنثولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والطب العقلي والاقتصاد والسياسة والجغرافيا ومن الطبيعي ان يركز على عالم يمثل تخصصا معينا على محكات معينة وان يعطي ثقلا لظواهر من الثقافة دون اخرى بحسب ما ينصرف اليه اهتمامه النابع من تخصصه.

ويمكننا ان نصنف تعريفات الثقافة الى سبعة اقسام اساسية:

١ ـ تعريفات وصفية.
٢ ـ تعريفات تاريخية.
٣ ـ تعريفات معيارية.
٤ ـ تعريفات سيكلوجية.
٥ ـ تعريفات بنيوية.
٦ ـ تعريفات تطورية.
٧ ـ تعريفات شمولية.

وسنحاول أن نعرض في كل قسم من هذه الأقسام أهم التعريفات التي تصور الفكرة أو الأفكار الأساسية التي تندرج تحت تصنيف معين ونتبعها بتعليق نقدي عليها ثم نختتم تعريفات الثقافة بتعليق نقدي عام يشملها جميعاً.

---

(١) انظر كروبير وكلاكون، المصدر نفسه، ص ١٤.

(2) Tylor, E., *Primitive Culture*, p. 1.

أولا - التعريفات الوصفية.

تتميز التعريفات الوصفية للثقافة، بأنها تعريفات تبرز، تعداد محتويات الثقافة وهي غالباً ما تكون تايلورية الصبغة أي متأثرة بتعريف تايلور الشهير للثقافة، ولذلك سنبدأ بعرض مفهوم تايلور ثم بعض المفاهيم الوصفية الهامة.

(أ) تايلور Tylor ١٨٧١:

«الثقافة... ذلك الكل المركب المعقد الذي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن، والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي يستطيع الانسان أن يكتسبها بوصفه عضوا في مجتمع[1]».

(ب) ويسلر Wissler ١٩٢٠:

«الثقافة... كل الأنشطة الاجتماعية في أوسع معانيها مثل اللغة والزواج ونسق الملكية والاتيكيت والصناعات والفن. الخ[2]».

(ج) بندكت Benedict ١٩٢٩:

«الثقافة... ذلك الكل المركب الذي يشمل العادات التي يكتسبها الانسان كعضو في مجتمع[3]».

(د) بواز Boas ١٩٣٠:

«الثقافة تضم كل مظاهر العادات الاجتماعية في جماعة ما، وكل ردود افعال الفرد المتأثرة بعادات المجموعة التي يعيش فيها وكل منتجات الأنشطة الانسانية التي تتحدد بتلك العادات[4]».

---

(١) تايلور، المصدر نفسه، ص ١.

(2) Wissler, C., "Opportunities for Coordination in Anthropological and Psychological Research," *American Anthropologist*, vol. 22, p. 1:12.

(3) Benedict, R.,"The Science of Custom" in V. F. Calverton, (ed) *The Making of Man*, The Modern Library., N. Y. 1931. p. 805:817

(4) Boas, F. "Anthropology," *Encyclopoedia of the Social Sciences*, vol. 2, New York, 1930. pp. 73 : 110.

(هـ) لنتون Linton ١٩٣٦ :

«الثقافة . . هي ذلك المجموع الكلي للأفكار والاستجابات العاطفية المشروطه ونماذج السلوك المتعود الذي اكتسبه أعضاء المجتمع من خلال التوجيه أو المحاكاة والذي يشتركون فيه بدرجة كبيرة، أو قليلة[١]» .

(و) لوى Lowie ١٩٣٧ :

«الثقافة هي ذلك المجموع الكلي لما يكتسبه الفرد من مجتمعه ـ تلك المعتقدات والأعراف والمعايير الجمالية وعادات الطعام والحرف التي لم يعرفها الفرد نتيجة نشاطه الابتكاري، بل عرفها كتراث من الماضي ينتقل اليه بوساطة التعلم الرسمي، وغير الرسمي[٢]» .

(ز) بانزيو Panuzio ١٩٣٩ :

«الثقافة هي ذلك المجموع الكلي لذلك النسق الكلي من المفهومات والاستعمالات والتنظيمات والمهارات والأدوات التي تتعامل بها البشرية مع البيئة الفيزيقية والبيولوجية والانسانية لاشباع حاجاتها[٣]» .

(ح) مالينفسكي Malinowski ١٩٤٤ :

«الثقافة هي ذلك الكل المتكامل الذي يتكون من الأدوات، والسلع والخصائص البنائية لمختلف المجموعات الاجتماعية من الأفكار الانسانية والحرف والمعتقدات والأعراف[٤]» .

(ط) كوويبر Kroeber ١٩٤٨ :

«الثقافة هي مجموع ما أنتجه البشر في اجتماعهم كما أنها قوة هائلة تؤثر في

---

(1) Linton, R., *The Study of Man*, N. Y.

(2) Lowie, R. H. *The History of Ethnological Theory*. New York, 1937. p. 3.

(3) Panunsio, C., *Major Social Institutions: An Introducation*, N. Y. 1939. p. 106.

(4) Malinowski, *A Scientific Theory of Culture*, Chapel Hill, North Carolina 1944. p. 36.

البشرية جمعاء أفراد وجماعات على المستوى الفردي والاجتماعي[1].

تعليق على التعريفات الوصفية:

يمكن أن نستخلص من التعريفات الوصفية السابقة والتي تمثل أهم اتجاهات التعريفات الوصفية بعامة سمتين أساسيتين:

أولا ـ النظرة الى الثقافة باعتبارها كل شامل أو وحدة شاملة.

ثانياً ـ تعداد المظاهر المختلفة لمحتوى الثقافة.

ومما يلفت النظر أن تعريف تايلور الذي استهل به كتابه (الثقافة البدائية) كان وما يزال يقتبس مرات مرات عند الحديث عن تعريف الثقافة ليس فقط من قبل الانثروبولوجيين والسوسيولوجيين بل أيضاً من قبل علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي[2]. بل أن كثيرا من العلماء والباحثين يكتفون بتعريف (تايلور) حين يكونون بصدد تعريف الثقافة.

وجدير بالذكر أن (بواز) قد صقل تعريف تايلور ووسع مداه إلا أنه لم يذهب بعيداً عن اتجاهه. ومن المعروف أنه تقابل مع تايلور وكان متأثراً به، ولما كان كل من (وسلر) و(بندكت) و(لنتون) و (كروبير) من تلاميذ بواز، فقد انتقل تأثير تايلور اليهم من خلال (بواز) ويظهر ذلك من خلال تعريفاتهم المختلفة للثقافة.

ويلاحظ في هذه التعريفات أيضاً تعدد ذكر الأعراف والعادات كأحد محتويات الثقافة.

ثانياً ـ التعريفات التاريخية:

تنفرد التعريفات التاريخية بأنها تجعل التراث الاجتماعي أو التقاليد في بؤرة اهتمامها ويتجلى ذلك باستعراضنا لأهم التعريفات التاريخية التالية:

---

(١) Kroeber, *Anthropology*, N. Y. 1948. p. 8: 9.

(٢) أنظر a - Klinberg, *Social Psychology*, 1940.

b - Murphy, G., *Personality*, 1948.

(ا) سابير Sapir ١٩٢١ :

«. . الثقافة هي. . مجموعة الممارسات والمعتقدات المتوارثة اجتماعيا، التي تحدد جوهر حياتنا[١]».

(ب) مالينفسكي Malinowski ١٩٣١ :

«إن التراث الاجتماعي هو المفهوم الرئيسي في الانثروبولوجيا الثقافية وغالباً ما يطلق عليه اصطلاح الثقافة. . فالثقافة تضم الصناعات الموروثة والبضائع والسلع والعمليات التكنولوجية والأفكار والعادات والقيم[٢]».

(ج) لنتون Linton ١٩٣٦ :

«إن الوراثة الاجتماعية هي الثقافة. فالثقافة كأصطلاح عام تعني الوراثة الاجتماعية للبشرية بينما يعني الاصطلاح النوعي ثقافة a culture صفة معينة من الوراثة الاجتماعية[٣]».

(د) ميد Mead ١٩٣٧ :

إن الثقافة تعني ذلك الكل المركب من السلوك التقاليدي، والذي طوره الجنس البشري، والذي يتعلمه جيل بعد آخر هو توقف أما اصطلاح ثقافة a culture فهو أكثر تحديدا لأنه يمكن أن يعني أشكالا من السلوك التقاليدي الخاصة بمجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات أو جنس معين، أو منطقة بعينها، أو زمن بعينه[٤].

(هـ) بارسونز Parsons ١٩٤٩ :

«إن الثقافة تتكون من تلك النماذج المتصلة بالسلوك وبمنتجات الفعل الانساني التي يمكن أن تورث بمعنى أن تنتقل من جيل إلى جيل بصرف النظر عن الجينات البيولوجية[٥]».

---

(1) Sapir, E. *Language*, 221. N. Y.

(2) Malinowski, B., "Culture", In *En cyclopoedia of the Social Sciences*, vol. 4. pp. 621 – 46.

(3) Linton, R., *The study of Man*, p. 78.

(4) Mead, M. *Cooperation and competition Among Primitive Peoples*, p. 17.

(5) Parsons, T., *Essays in Sociological Theory*, Glencoe. Illinois, p. 8.

(و) راد كليف براون Radclifie - Brown ١٩٤٩:

يرى راد كليف براون أن الحقيقة التي يتضمنها اصطلاح الثقافة من وجهة نظره كسيولوجي تتبلور[1] في عملية اكتساب التقاليد الثقافية وهي العملية التي تنتقل بها اللغة والمعتقدات والأفكار والذوق الجمالي والمعرفة والمهارات والاستخدامات في مجموعة اجتماعية معينة أو طبقة اجتماعية. ومن شخص الى آخر، ومن جيل الى آخر[2].

تعليق على التعريفات التاريخية:

تتميز التعريفات التاريخية للثقافة بأنها تنتقي أحد ملامح الثقافة أو أوجهها، وهو التراث الاجتماعي أو التقليد الاجتماعي فتركز عليه بدلا من أن تحاول تعريف الثقافة بشكل متوسع. ويعني اصطلاح الوراثة الاجتماعية عند «لنتن» ما يعنيه اصطلاح التراث الاجتماعي تماما.

ويؤخذ على التعريفات التاريخية للثقافة بوجه عام، أنها تصور الثقافة على أنها استاتيكية جامدة بينما نجد أن اصطلاح التقليد tradition ذاته يتضمن الدينامية والنشاط الدينامي.

ويعد كل من (لنتون) و (ميد) أول من حاولا التمييز صراحة بين الثقافة بوجه عام (Culture) وبين ثقافة معينة (a culture).

ويعزي الفضل إلى هذه التعريفات التاريخية في أنها قد ألقت ضوءاً على حقيقة أن البشر لهم تراث اجتماعي الى جانب التراث البيولوجي، وهو تراث يتبع من عضويتهم في جماعة لها تاريخها.

ويمكننا أن نلخص المثالب الأساسية للتعريفات التاريخية في أنها تتضمن

---

(١) لاحظ أن راد كليف براون كان من المعارضين لاستخدام مفهوم الثقافة وأنه طالما يذكره بالبناء الاجتماعي.

(2) Radcliffe - Brown, A. B.,"White's View of a Science of Culture", *A. Anthrop.* vol. 51, 1949. pp. 503: 12.

ستاتيكية شديدة كما أنها تجعل دور الانسان سلبياً تماما. وهي تنحو بنا لأن نفكر في الانسان «كحامل سلبى للتقاليد الاجتماعية» على حد تعبير (دولارد Dollard) سنة ١٩٣٩[1]. لكننا نلاحظ أن الأشخاص ليسوا فقط مخلوقات ثقافية. ومجرد حاملين للثقافة بل أنهم أيضاً خالقين لها ومبتكرين اياها.

وهذا ما سنحاول بيانه بصورة واضحة في الباب الثالث عن الثقافة والشخصية.

ثالثا ـ التعريفات المعيارية:

يمكن أن نقسم التعريفات المعيارية للثقافة إلى فئتين فرعيتين:

١ ـ فئة تهتم بالثقافة كقاعدة وطريقة أو اسلوب.

٢ ـ فئة تبرز أهمية المثل والقيم.

ويمثل الفئة الاولى من التعريفات المعيارية للثقافة أصدق تمثيل كل من:

(أ) ويسلر Wissler ١٩٢٩:

«الثقافة هي أسلوب حياة تتبعه الجماعة أو القبيلة وهو يضم كل الاجراءات الاجتماعية المقننة.. وثقافة القبيلة، تتضمن مجموعة المعتقدات والإجراءات التي تتبعها القبيلة[2].

(ب) بوجاردس Bogardus ١٩٣٠:

«الثقافة هي المجموع الكلي لأساليب الفعل والتفكير الماضية والحاضرة لجماعة اجتماعية وهي تمثل مجموعة التقاليد والمعتقدات والأعراف والاجراءات المتوارثة[3].

(ج) هيرسكوفيتس Herskovits ١٩٤٨:

«الثقافة هي طريقة حياة الناس بينما المجتمع هو جمع منظم من الأفراد الذين يتبعون طريقا معنيا للحياة. وفي تعبير أبسط فإن المجتمع يتكون من أفراد، أما

---

(1) Dollard, J. Culture, *Society, Impulse, and Socialization*, *A.J.S.* vol. 45. 1939. pp. 50: 63.

(2) Wissler. C. *An Introducation to Social Anthropology*, p. 5, 341.

(3) Bogardus, E. S. Tools in Sociology, *Sociology and Soc. Research.* vol. 14. 1930, pp. 332-41.

الطريقة التي يسلكون بها فهي ثقافتهم[1]».

(د) كلاكون Kluckhohn ١٩٥١:

«الثقافة تشير الى الأسلوب المتميز لحياة مجموعة من الناس، أو إلى خطة حياتهم design for living[2]».

أما الفئة الثانية من التعريفات المعيارية وهي التي تبرز أهمية مفهومي المثل والقيم فيمثلها أصدق تمثيل هؤلاء العلماء.

(أ) توماس Thomas ١٩٣٧:

«الثقافة هي القيم المادية والاجتماعية لأي جماعة من الناس، سواء أكانت متوحشة أو متمدينة (وهي نظمهم، وأعرافهم، واتجاهاتهم وردود أفعالهم[3]».

(ب) بدني Bidney ١٩٤٢:

«الثقافة تتكون من السلوك المكتسب ومن الأفكار التي يكتسبها الأفراد من خلال المجتمع هذا الى جانب المثل الفكرية والفنية والاجتماعية التي يؤمن بها ويقرها أفراد المجتمع ويكافحون من أجل إطاعتها[4]».

(ج) سوروكن Sorokin ١٩٤٧:

(إن المظهر الاجتماعي للكون فوق العضوى، ليتكون من أفراد متفاعلين ومن أشكال من التفاعل من مجموعات منظمة وغير منظمة ومن علاقات بين الأفراد وبين المجموعات.

أما المظهر الثقافي للكون فوق العضوى فيتكون من المعاني والقيم والمعايير

---

(1) Herskovits, N. J. *Man and his works*. p. 29.

(2) Cluckhohn, C. The concept of culture, in Daniel Lerner & Harold D. Lasswell (eds) *The Policy Sciences*, pp. 86 - 101.

(3) Thomas, *W. I. Primitive Behavior*. p. 8.

(4) Bidney, D., "On the Philosophy of culture in the Social Sciences," *Journal of Philosophy*, vol. 39, 1942, pp. 449 - 57.

وتفاعلات هذه العناصر والعلاقات بينها في المجموعات المتكاملة وغير المتكاملة، لأن هذه العناصر تتجسد من خلال الأفعال الظاهرة في الكون السسيولوجي الثقافي Socio-cultural universe [1].

تعليق على التعريفات المعيارية:

تتميز التعريفات المعيارية التي تهتم بالثقافة كقاعدة وطريقة وأسلوب يتبعها الناس في أعمالهم وأفكارهم، بل وفي حياتهم بعامة، بأنها تحيي من جديد فكرة الاعراف الاجتماعية customs التي رأينا ذيوع استخدامها في التعريفات الوصفية. ويعد «كلارك ويسلر» رائدا لهذه التعريفات المعيارية للثقافة لأن الكثيرين من بعده قد اقتفوا أثر عبارته الشهيرة (الثقافة هي أسلوب حياة الجماعة). كما أن هذه التعريفات المعيارية تعني بكلمة الطريقة أو الأسلوب ما يلي :

(ا) نماذج مشتركة أو شائعة.
(ب) جزاءات معينة اذا ما فشل البعض في اتباع القواعد.
(ج) أسلوب للسلوك.
(د) مخططات أو برامج للفعل.

أما التعريفات المعيارية التي تبرز اهمية المثل والقيم، فترى أن المثل والقيم تشكل وحدها أهم نماذج السلوك ومخططات الفعل.

رابعا ـ التعريفات السيكلوجية:

اذا ما تفحصنا محتوى التعريفات السيكلوجية للثقافة فسنجد انها اما تضع في بؤرة اهتمامها الثقافة كعملية تكيف وتوافق الى جانب كونها اداة لحل المشكلات او تبرز عنصر التعلم الانساني فيها، وسنستعرض فيما يلي أهم التعريفات التي تعطينا صورة صادقة لابرز الاتجاهات التي تنطوي تحت قسم التعريفات السيكلوجية للثقافة.

---

(1) Sorokin, P. A., *Society, Culture and Personality* Their Structure and Dynamics, p. 313.

١ - تعريفات تنظر للثقافة كعملية تكيف وتوافق وأداة لحل المشكلات:

ويمثلها أصدق تمثيل هؤلاء العلماء.

(أ) «سمنر وكلر» Sumner and Keller ١٩٢٧ :

«الثقافة هي مجموع اساليب تكيف الناس لظروف حياتهم وهذا التكيف لا يمكن الوصول اليه الا من خلال افعال تجمع ما بين التنوع والانتقاء والانتقال[١]».

(ب) يونج Young ١٩٣٤ :

«هذه الأساليب الشعبية Folkways ، هذه الأساليب المستمرة لمعالجة المشكلات والنظم الاجتماعية نطلق عليها الثقافة. ان الثقافة تتكون من ذلك الكل من السلوك المتعلم أو نماذج سلوك أي جماعة التي تتسلمها من جماعة سابقة او جيل سابق عليها ثم تسلمها بدورها بعد ان تضيف اليها الى جماعات لاحقة او جيل لاحق[٢]».

(ج) فورد Ford ١٩٣٩ :

«الثقافة في شكل قواعد تحكم السلوك الانساني تعطي حلولا للمشكلات الاجتماعية»[٣].

(د) بدنجتون Piddington ١٩٥٠

«يمكن تعريف ثقافة أي شعب بأنها ذلك المجموع الكلي للأجهزة المادية والفكرية التي يشبع الأفراد عن طريقها حاجاتهم البيولوجية والاجتماعية ويتكيفون لبيئتهم[٤]».

---

(1) Sumner, W. G. & Keller, A.G. *The Science od Society*, p. 46 8 47.

يلاحظ أن «سمنر» في كتابه الشهير الأساليب الشعبية لم يستخدم كلمة ثقافة ولكن استخدم كلمة حضارة civilization (المؤلفة)

(2) Young, K. *Introductory Sociology*, p. 18: 19.

(3) Ford, C. S. "Society, Culture and the Human Organism," *Journal of General Psychology*. vol. 20, 1939. pp. 135: 79.

(4) Piddington, R. *An Introduction to Social Anthropology*

٢ ـ تعريفات تهتم بعنصر التعلم الانساني في الثقافة ويمثلها هؤلاء العلماء:

(ا) ويسلر Wisaler ١٩١٦ :

«يمكن النظر الى الظواهر الثقافية على أنها تحوي كل أنشطة الإنسان التي يكتسبها عن طريق التعلم. ولذلك يمكن تعريف الظواهر الثقافية بأنها مركبات من السلوك المكتسب من قبل الجماعات الإنسانية[١]».

(ب) لابير La Piere ١٩٤٦ :

«الثقافة هي تجسيد من العادات والتقاليد والنظم. . الخ ومما اكتسبته أي جماعة إنسانية على مدى الأجيال، إنها مجموعة ما اكتسبته الجماعة عن المعيشة معاً تحت ظروف فيزيقية وبيولوجية معينة وجدت نفسها فيها[٢]».

(ج) بندكت Bendict ١٩٤٧ :

«الثقافة هي الاصطلاح السوسيولوجي للسلوك المكتسب، ذلك السلوك الذي لا يكتسبه الإنسان بالميلاد والذي لا تحدده خلاياه الوراثية مثلما الحال عند الدبابير او النمل. لكنه سلوك لا بد أن يتعلمه من جديد، الجيل الصغير من الأجيال الأكبر منه[٣]».

(د) دافيز A.Davis ١٩٤٨ :

«يمكن تعريف الثقافة بأنها تشمل كل مظاهر السلوك التي يتعلمها (يكتسبها) الفرد في تكيفه مع المجموعة[٤]».

(هـ) هوبيل Hoebel ١٩٤٩ :

---

(1) Wissler, C., "Psychological and Historical Interpretations for Culture," *Science* vol. 43. 1916. pp. 193 - 201.

(2) La Peire, R. T. *Sociology*, p. 68.

(3) Benedict, R. *Race, Science and Politics*, p. 13.

(4) Davis A. *Social — Class Influences upon learning*, p 59.

«الثقافة هي المجموع الكلي لنماذج السلوك المكتسب وهي شيء يتميز به اعضاء المجتمع دون غيرهم ولذلك فهي ليست نتيجة الوراثة البيولوجية[1]».

وهناك تعريف سيكلوجي بحت للثقافة قام بصياغته (روهيم) وهو من اوائل علماء التحليل النفسي الذين حاولوا تعريف الثقافة في إطار مفهومات علم النفس التحليلي ورأينا لأهميته أن نورده ضمن التعريفات السيكلوجية للثقافة.

(ا) روهيم Rohem ١٩٣٤ :

إن الثقافة تعني مجموع عمليات الإعلاء والابدال أو تكوين الردائد أنها باختصار كل ما يؤدي في المجتمعات إلى كف الدوافع أو الحيلولة دون إشباعها إلا بعد تحريفها[2].

تعليق على التعريفات السيكلوجية :

من اللافت للنظر بالنسبة لتعريفات الثقافة التي تصب اهتمامها على الثقافة كعملية توافق وتكيف وأداة لحل المشكلات أن معظمها متأثر بالعلامة (وليم جراهام سمنر) William Graham Sumner بشكل صريح أحياناً وضمني أحياناً أخرى. فنجد أن (يونج) Young على سبيل المثال قد استخدم اصطلاح (سمنر) المفضل «الأساليب الشعبية» Folkways والحقيقة أن سمنر الذي كان شخصية مؤثرة في علم الاجتماع الأمريكي لفترات طويلة كان دائما يؤكد فكرة التكيف والتوافق. وفي تعريفه لمفهومه الرئيسي الأساليب الشعبية الذي يقترب في معناه كثيراً من مفهوم الثقافة يقول:

---

(1) Hoebel, E. A. *Man in the Primitive World, P. 3.4.*

(2) "By culture we shall understand the sum of all sublimations, all substitutes, or reaction formations, in short everything in society that inhibits impulses or permits their distorted satisfaction.

Roheim, G., "The Psycho – Analytic Interpretation of culture," *The International journal of Psycho Analysis,* 1941. vol. 22, pp. 1 – 23.

Roheim, G. *The Riddle of the Sphinx* translated by A. Moneykyrle. p. 216.

«إن الأساليب الشعبية هي عادات الأفراد وعادات المجتمع والتي تنبع من مجهودات الناس لإشباع حاجاتهم وهي تغلف بالاعتقاد في الجن والشياطين والأفكار البدائية عن الحظ ولذلك فهي تكسب سلطة تقاليدية وتصبح بعد ذلك قوة اجتماعية ولا أحد يعرف كيف نشأت ولا متى. وهي تنمو إلى وقت محدود بفضل الجهود الهادفة للناس. وفي وقت معين تفقد قوتها فتضمحل أو تموت أو تتحول. وحينما تكون في قوتها فإنها تمارس ضبطا على الأفراد. لكنها ليست عضوية ولا مادية انها تنتسب إلى نسق فوق عضوي من العلاقات والاعتقادات، والترتيبات النظمية[1]».

وتبدو في هذه التعريفات تأثير نظرية التعلم السيكلوجية ومحاولات للتقريب بين الانثروبولوجيا وعلم النفس.

ويؤخذ على هذه التعريفات أنها تؤكد فقط أن الثقافة هي وسيلة لحل المشكلات وللتكيف أو التوافق مع أن الثقافة أحيانا ما تخلق مشكلات لأنها كثيرا ما تخلق حاجات تتطلب الإشباع وليست دائماً تمد الأفراد بوسائل إشباع الحاجات. هذا بالإضافة الى أن هذه التعريفات تحاول أن تفسر وجود الثقافة دون أن تعرف ما هي بل هي تحاول أن تعطي تعريفا تفسيرياً دون أن تجهد نفسها باعطاء تعريف وصفي أولا.

أما بالنسبة للتعريفات السيكلوجية للثقافة التي تعطي وزنا كبيرا لعملية التعلم والاكتساب فمن المثير أن نجد أن «كلارك وسلر» الذي رأيناه رائدا للتعريفات المعيارية، له أيضاً في مجال التعريفات السيكلوجية فضل السبق والريادة. ومن المعروف أن «وسلر» قد نال تدريباً كسيكلوجي وتأثر «بموضة» المزج بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس وبخاصة بنظرية التعلم السيكلوجية والتي بدأت في معهد العلاقات الانسانية.

أما «لابير» فتبدو اهميته نابعة من كونه يمثل محاولة للمزج بين محتوى التعريفات التايلورية والمدرسة السيكلوجية الحديثة المتأثرة بنظرية التعلم ولذلك فالثقافة عنده مجموع العادات والتقاليد التي تعلمها مجتمع خلال تاريخه ليعرف كيف يعيش.

---

(1) Sumner, William G., Folkways, 1906.

وكل التعريفات التي تنتمي إلى هذه الفئة تحاول أن تؤكد عنصر التعلم الانساني والانتقال غير الوراثي أكثر من أي عناصر ثقافية أخرى ولكن علينا أن ننتبه إلى أنه بينما يوصف السلوك الثقافي إذا جاز هذا التعبير بأنه سلوك متعلم أو مكتسب فليس كل سلوك مكتسب أو متعلم هو سلوك ثقافي وذلك يعني أن التعلم هو أحد الصفات المميزة للثقافة إلى جانب صفات أخرى عديدة.

أما بالنسبة «لروهيم Rohiem » فالواقع أن أهميته تأتي من كونه أول عالم عن علماء التحليل النفسي يحاول اعطاء تعريف منظم للثقافة مستخدما مصطلحات التحليل النفسي في ذلك. والحقيقة أن فرويد قد إستخدم إصطلاح « Kultur » أحيانا ولكن في غير معناه الأنثروبولوجي. وربما كان ذلك مرجعه إلى أنه اهتم أكثر بالأشياء على المستوى العام والعالمي ولم يعط اهتماما كبيرا للتباين الثقافي. أما الفرويديون الجدد أمثال «هورنى» و«كاردنر» و«فروم»، فكثيرا ما يستخدمون كلمة ثقافة بشكل غير محدد فنجد هورنى على سبيل المثال نستخدم لفظ «ثقافي» كثيرا كمرادف للفظ «اجتماعي». [1]

خامسا ـ **التعريفات البنيوية**:

تنفرد التعريفات البنيوية للثقافة بوضوح فكرة النموذج أو التنظيم فيها ويتجلى ذلك من تعريفات هؤلاء العلماء:

أ ـ دولارد: Dollard ١٩٣٩

«الثقافة إسم يطلق على العادات المجردة (عن حامليها) والمرتبطة بعضها بعضا، لمجموعة اجتماعية»[2]

(ب) ـ **أوجبرن ونيمكوف** Ogburn and Nimkoff ١٩٤٠

«تتكون الثقافة من المخترعات أو السمات الثقافية المتكاملة في نسق بدرجات

---

(١) كان المضمون الصريح لفكر روهيم مضمونا نقديا في جوهره فهو لم يكن يترك مناسبة دون أن يأخذ فيها على عاتقه ادانة ما تتصف به المدينة الحديثة من طابع كبتي. وكان يفيض ازدراء لكافة الايديولوجيات والتيارات الفكرية التي تسهم في تدعيم النظام الثقافي القائم (المؤلفة).

(٢) دولار، المصدر السابق، المكان نفسه.

مختلفة من الارتباط بين أجزائه. وتنتظم السمات المادية وغير المادية على السواء حول إشباع الحاجات الانسانية الأساسية وذلك لتمدنا بالنظم الاجتماعية التي هي قلب الثقافة. وتتصل النظم الاجتماعية فيهما بينها لتكون نموذجا فريدا في كل مجتمع. (١)

(ج) ريد فيلد: Redfield ١٩٤٠

«الثقافة تنظيم من المفهومات التقليدية التي تظهر في الفعل والمصنوعات والتي تميز أي جماعة إنسانية من خلال استمرارها من خلال التقاليد». (٢)

(د) لنتون: Linton ١٩٤٥

«والثقافات ليست في آخر تحليلي لها أكثر من استجابات منظمة متكررة لأعضاء المجتمع». (٣)

(هـ) جلن: Gillin ١٩٤٨

تتكون الثقافة من عادات منمطة ومرتبطة وظيفيا ومنتشرة بين مجموعات بعينها من البشر تكون مجموعات إجتماعية معينة. (٤)

(و) كوتو: Coutu ١٩٤٩

الثقافة هي أحد التكوينات الأكثر شمولا والتي تطلق عليها مجالات التفاعل الاجتماعي أنها أسلوب حياة شعب بأسره مثل الشعب الصيني أو شعب غرب أوربا، أو الولايات المتحدة أن الثقافة بالنسبة لشعب من الشعوب هي كالشخصية بالنسبة للفرد، وروح الجماعة ethos بالنسبة للثقافة هي كالأنا self بالنسبة للشخصية أي انها لب كل أنواع السلوك المحتملة. (٥)

---

(1) Ogburn, W. F. and Nimkoff, W. F. **Sociology**, p. 63.

(2) Redfield, quoted in Ogburn, W. F. and Nimkoff, *Ibid.*, 25.

(3) Linton, B. **The Cultural Background of personality**. P. 532

(4) Gillin, J. P., **The Ways of men**. 191

(5) Coutu, **Emergent Human Nature**, P. 353.

تعليق على التعريفات البنيوية :

تتميز التعريفات البنيوية للثقافة بسمتين أساسيتين :

١ ـ وجود تأكيد على العلاقات التنظيمية المتبادلة بين مظاهر الثقافة المختلفة .

٢ ـ ابراز الصفة التجريدية للثقافة بمعنى الحديث عنها كتجريد .

مثال ذلك أننا نجد «دولارد» يفصل الثقافة عن حامليها ويرى أنها نموذج من المفهومات التي يفسر السلوك على هدى منه لكنه ليس هو السلوك . فالثقافة هي خطة عمل للحياة أو نسق من برامج العمل للحياة لكنها ليست الحياة نفسها إنها تحدد ردود أفعال الناس ، لكنها ليست في ذاتها ردود أفعالهم . وتمكن أهمية ذلك الفهم في أنه يحرر الثقافة كثقافة من السلوك ويجردها من النشاط الانساني .

وينفرد تعريف كوتو «Coutu » وهو عالم ينتمي الى ميدان علم النفس الاجتماعي بأنه تعريف أصيل ومبتكر فهو يربط بين التنظيم وأسلوب الحياة كما أنه يمزج في أصالة ما بين الثقافة والشخصية .

سادسا ـ التعريفات التطورية :

يقصد بالتعريفات التطورية تلك التعريفات التي تفسر أصل الثقافة ، أو التي تحاول الاجابة عن سؤ الين هامين ، كيف نشأت الثقافة ، وما هي العوامل التي أدت الى نشأتها؟

وتنطوي تحت التعريفات التطورية ثلاثة إتجاهات هامة :

١ ـ إتجاه ينظر إلى الثقافة بإعتبارها نتاج product

٢ ـ إتجاه ينظر إلى الثقافة على كونها أفكار ideas

٣ ـ إتجاه ينظر إلى الثقافة بوصفها رموز symbols

ومن بين من يمثل الاتجاه الأول في التعريفات التطورية وهو الذي يظهر إلى الثقافة كنتاج :

(أ) جروفز Groves ١٩٢٨

«الثقافة هي نتاج التفاعل الانساني»[1]

(ب) - «هيرسكوفيتز» Hèrskovits ١٩٤٨

الثقافة هي ذلك الجزء من البيئة الذي صنعه الانسان.[2]

ومن بين من يمثل الاتجاه الثاني في التعريفات التطورية وهو الذي ينظر للثقافة كأفكار:

(أ) ويسلر Wissler ١٩١٦:

«الثقافة هي رابطة محددة ومركبة من الأفكار»[3].

(ب) تيلر Taylor ١٩٤٨:

«أقصد بالثقافة كمفهوم وصفي كل تلك الأبنية العقلية أو الأفكار التي يكتسبها الفرد أو يخلقها بعد مولده. وتشمل الأفكار كلا من الاتجاهات والمعاني والعواطف، والمشاعر والقيم والأهداف والاهتمامات والمعارف والعلاقات والارتباطات والمعتقدات[4]».

(ج) فورد Ford ١٩٤٩:

«يمكن تعريف الثقافة بأنها نهر من الأفكار الذي يمر من فرد إلى آخر بوسائل من الرموز والألفاظ والمحاكاة»[5].

أما الاتجاه الثالث في التعريفات التطورية وهو الذي يهتم بالثقافة كمجموعة رموز فمن بين أهم من يمثله من العلماء.

---

(1) Groves, B. R., **An Introduction to Sociology**, P. 23.

(2) Herskovits, **Man and His Works**, P. 385.

(3) Wissler, C., "Psychological and Historical. Interpretations for Culture," *Science*, Vol. 43. pp 193–201.

(4) Taylor, W. W., "A Study of Archaeology," *American Anthropological Assoc.*, 1948. Memoir 69. pp. 109–10.

(5) Ford, J. A., "Cultural Dating of Prehistoric Cites in Viru- valley," Peru. **Anthropological Papers**. Vol. 43, p. 38.

(أ) بين Bain ١٩٤٢ :

«الثقافة هي كل أنواع السلوك التي تنتقل بواسطة الرموز»[١].

(ب) دافيز Davis ١٩٤٩ :

«الثقافة هي كل أساليب التفكير والسلوك التي تنتقل من جيل إلى آخر، بالتفاعل الاتصالي، وأقصد به الانتقال عن طريق الرموز وليس عن طريق الجينات الوراثية»[٢].

(ج) ليزلي هوايت Leslie White ١٩٤٩ :

«الثقافة هي تنظيم خاص من الرموز»[٣].

تعليق على التعريفات التطورية :

تنطوي تحت التعريفات التطورية ثلاثة اتجاهات هامة أولها ينظر إلى الثقافة باعتبارها نتاج والثاني ينظر إلى الثقافة بوصفها أفكار، والثالث ينظر إليها على كونها رموز. وتلتقي هذه الاتجاهات في أنها جميعاً إتجاهات تطورية بمعنى أنها تحاول أن تفسر نشأة الثقافة. ورغم أن التعريفات التطورية قد تبرز جوانب أخرى من الثقافة. لكنها تعطي الوزن كله للناحية النشوئية ـ التطورية.

والحقيقة أن الاتجاه الأول من التعريفات التطورية يلتقي ـ على نحو ما ـ مع التعريفات التاريخية التي تؤكد جانب التقاليد والتراث إلا أن هذا الاتجاه ينحو إلى التأكيد على الثقافة بوصفها نتاج، أو نتيجة، بدلا من وضع عملية التواصل والانتقال في بؤرة إهتمامه كما تفعل التعريفات التاريخية.

أما الاتجاه الثاني من التعريفات التطورية وهو الذي يركز على الثقافة بوصفها

(1) Bain, R. A., "Definition of Culture," Soci, and Soc, Res. Vol. 27, 1942. pp. 87–94.

(2) Davis, Kingsly, Human Society. P. 34.

(3) White, L., "The Symbol: The Origin and Basis of Human Behavior" Pilosophy of Science, Vol. 1, n. 4, pp. 451–63

أفكار فيحاول أن يبرز الجانب غير المادي من الثقافة بل إنه يحاول أن يختزل أهم ما في مفهومات الثقافة الفضفاضة بعض الشيء كمفهوم العرف والخطة. إلى آخره. ويرى أصحاب هذه التعريفات أن ما يطلق عليه الثقافة المادية هو شيء غير ذي وجود، فالوعاء مثلا ليس ثقافة، ولكن الثقافة هي الفكرة وراء الشيء المادي أو المصنوع. وما الصلاة أو الاحتفالات في ثقافة من الثقافات إلا تعبير خارجي مرئي عن فكرة ثقافية معينة.

ويهتم أصحاب الاتجاه الثالث من التعريفات التطورية اهتماماً بالغاً بالرموز في تعريفهم للثقافة بل أن معظمهم يتفق على أن الإنسان ليس حيوانا مفكراً كما أنه ليس حيوانا يصنع ثقافة بل يرون أن السمة الأساسية التي تميز الإنسان هي أنه حيوان يستخدم الرموز. ومن بين هؤلاء «ليزلي هوايت».

سابعاً: **التعريفات الشمولية**:

تتميز التعريفات الشمولية للثقافة بأنها لا تركز على جانب واحد فقط من جوانب الثقافة كما رأينا في الأقسام الماضية من تعريفات الثقافة بل أنها تحاول قدر الامكان أن تتناول الثقافة من أكثر من زاوية كما أنها تحاول أن تفسر الثقافة من وجهات نظر مختلفة وأهم ما يمثل هذه التعريفات ما يلي:

التعريف الماركسي للثقافة:

«كل القيم المادية والروحية - ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها - التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ». وبمعنى أكثر تحديداً فإنه من المعتاد التمييز بين الثقافة المادية (أي الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج وغير ذلك من الثروة المادية) والثقافة الروحية (أي المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية.. الخ). والثقافة ظاهرة تاريخية ويتحدد تطورها بتتابع النظم الاقتصادية الاجتماعية وتتخذ الثقافة في اي مجتمع طبقي - طابعاً طبقيا سواء فيما يتعلق بمضمونها الأيديولوجي أو أهدافها العميقة[1].

---

(١) **الموسوعة الفلسفية**. لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين بإشراف روزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، ص ١٣٩: ١٤٠، ١٩٧٤.

تعريف كروبير وكلاكون Kroeber and Kluckhohn ١٩٥٣

تتكون الثقافة من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمنتقل بواسطة الرموز والتي تكون الإنجاز المميز للجماعات الإنسانية والذي يظهر في شكل مصنوعات ومنتجات. أما قلب الثقافة فيتكون من الأفكار التقاليدية (المتكونة والمنتقاة تاريخيا) وبخاصة ما كان متصلا منها بالقيم. ويمكن أن نعد الانساق الثقافية، نتاجا للفعل من ناحية، كما يمكن النظر بوصفها عوامل شرطية محددة لفعل مقبل[1].

تعليق على التعريفات الشمولية للثقافة:

تتميز التعريفات الشمولية للثقافة بسمات أساسية:

١ ـ أنها تحاول تناول الثقافة من أكثر من جانب فنجد أنها تجمع مثلا بين النظرة الوصفية والتاريخية والمعيارية والتطورية.

٢ ـ أنها تحاول أن تحلل الثقافة، فتبين مكوناتها وماهيتها.

٣ ـ أنها تحاول تفسير نشأة الثقافة كل من وجهة نظرها.

ويمتاز التعريف الشمولي الماركسي للثقافة بأنه يحدد في وضوح أهم مكونات الثقافة فهو يرى أن الثقافة ظاهرة تاريخية كما أنه يربط بين الثقافة وبين النظم الاجتماعية الاقتصادية، أي أنه يربط ما بين الثقافة والمجتمع الذي تنشأ فيه، ويعطي تفسيرا لنشأة الثقافة وتغيرها وهو التفسير المادي التاريخي ويهتم هذا التعريف أيضا ببعد الطبقة الاجتماعية ويربط بينها وبين الثقافة في المجتمعات الطبقية.

أما تعريف «كروبير وكلاكون» الشمولي للثقافة فيمتاز بأنه أكثر شمولا من التعريف الماركسى إذ يضم أيضا النظرة السيكلوجية للثقافة والنظرة البنيوية لها وتظهر الاولى في قولهما بأن الثقافة مكتسبة أما الثانية فتبرز من خلال نظرتهما للثقافة كنماذج من السلوك. كما يمتاز تعريف «كروبير وكلاكون» بأنه يهتم بدينامية الثقافة وكيفية انتقالها

(١) كروبير وكلاكون، المصدر السابق، ص ٣٥٧.

ويفسر نشأة الثقافة ولا يهمل أن الثقافة إذا ما اخترلناها لوجدنا أنها نتاج ورموز وأفكار. أما أهم ما يميز التعريف الشمولي «لكروبير وكلاكون»، فهو إبرازه للصلة الوثيقة التي بين الثقافة والشخصية والتي تبدو في آخر تعريفهما في قولهما: «يمكن أن تعد الأنساق الثقافية نتاجا للفعل من ناحية كما أنه يمكن النظر إليها بوصفها عوامل شرطية محددة بسلوك مقبل». وهذا معناه أن الثقافة من خلق الإنسان من ناحية كما أنها تحدد سلوكه وأفعاله من ناحية أخرى. ولا يهمل هذا التعريف الجانب التاريخي في الثقافة.

ويشترك التعريفان الشموليان للثقافة وهما «التعريف الماركسي» وتعريف «كروبير وكلاكون» في تأكيدهما على أهمية القيم بصفة خاصة في تعريف الثقافة.

تعليق عام على تعريفات الثقافة:

نلاحظ أن معظم تعريفات الثقافة تشترك في مجموعة من الخصائص المشتركة:

١ - أنها تشير إلى أن الثقافة تميز الجماعات أو المجتمعات الإنسانية وأحيانا ما تذكر كلمة أعضاء المجتمع. كل ذلك لإثبات حقيقة المشاركة بين أعضاء المجتمع في الثقافة.

٢ - يشترك كثير من تعريفات الثقافة في إبراز الصفة الكلية للثقافة الإنسانية وهي كثيرا ما تشير إلى الثقافة بهذا الصدد على أنها كل أو وحدة وذلك لتمييزها عن ثقافة بعينها.

٣ - ظهر اصطلاح العادات في معظم التعريفات التعددية، وظهر إستخدام اصطلاح النموذج Pattern في كثير من التعريفات وبخاصة بعد أن اتخذته «روث بندكت» Ruth Benedict عنوانا لكتابها نماذج الثقافة Patterns of culture سنة ١٩٣٤.

٤ - ظهر في معظم تعريفات الثقافة - عدا التعريفات الشمولية - وضوح إتجاه بارز معين يلونها مما حدا بنا إلى أن نقسمها إلى فئات أو أقسام فهناك التعريفات التي تبرز الجانب الوصفي التعددي للثقافة، وهناك التعريفات التي تؤكد الجانب التاريخي

في الثقافة فتضع في بؤ رة إهتمامها التراث الاجتماعي والتقاليد أما التعريفات السيكلوجية فتركز على التعلم والتكيف والسلوك وهكذا نجد في باقي تعريفات الثقافة كالتعريفات المعيارية والبنوية والتطورية ويعكس هذا التركيز في تعريفات الثقافة على جوانب معينة دون غيرها، إهتمامات أصحابها من العلماء والباحثين.

٥ ـ ظهر من تعريفات الثقافة اهتمام الانثروبولوجيين بالجوانب الملموسة في الثقافة بينما وضح في تعريفات السوسيولوجيون للثقافة تركيزهم على الجوانب المجردة مثال ذلك إهتمامهم بالقيم وبالرموز في الثقافة.

ويمكن أن نقول في نهاية حديثنا عن تعريفات الثقافة أننا نسلم بأن كل قسم من الأقسام التي تنطوي تحتها طائفة من تعريفات الثقافة ـ عدا التعريفات الشمولية ـ له هميته. بعبارة أخرى فإننا نعتقد بأن الثقافة نتاج إنساني، وأنها تاريخية مكتسبة كما أنها تضم الأفكار والنماذج والقيم وأنها مبنية على الرموز إلا أن التعريف الجيد للثقافة في نظرنا هو الذي ينجح في الإجابة عن ثلاثة أسئلة تتعلق بالثقافة وهي ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟ فإجابة السؤ ال الأول بالمتعلق بماهية الثقافة سيصف محتوياتها ومكوناتها أما إجابة السؤ ال الثاني، فمتعلق بدينامية الثقافة وتحليل وظائفها وعوامل تغيرها وانتقالها من جيل إلى آخر، أما إجابة السؤ ال الثالث فمتعلق بتفسير نشأة الثقافة ووجودها وعوامل استمرارها وبقائها وتغيرها وفنائها.

خلاصة القول أن التعريف الجيد للثقافة هو الذي يهتم بوصف الثقافة وتحليلها وتفسيرها. وقد نجحت التعريفات الشمولية في رأينا ـ في تقديم تعريفات جيدة للثقافة لأنها استطاعت ان تقدم إجابات شافية تتعلق بالوصف والتحليل والتفسير معاً، أكثر من أي من التعريفات الأخرى.

الفصل الثاني

نظريات الثقافة

تمهيد

هناك نظريات كثيرة لتوضيح مفهوم الثقافة ولكننا سنورد لأسباب منهجية أربع نظريات منها نرى أنها تلخص في وضوح أهم الأسس الخاصة بالثقافة وهي نظريات رالف لنتن الأمريكي Ralph Linton وبرنسلاو مالينفسكي البولندي المولد والانجليزي بالتجنس Malinowski · Bronislaw ووليام جراهام سمنر الأمريكي William Craham Sumner وعبد الرحمن بن خلدون العربي .

نظرية لنتن:

يرى «لنتن» أن الدعامة التي تقوم عليها دراسة الثقافة والشخصية هي «الفرد» . فعلى الرغم من وثاقة العلاقة الوظيفية المتبادلة بين الفرد والثقافة والمجتمع فانه يرى ضرورة الفصل والتفرقة بينها لغرض الدراسة والبحث. وعلى الرغم من أن الفرد أيا كان قلما يكون ذا أهمية كبرى لبقاء المجتمع الذي يعيش فيه ولاستمرار وفاعلية الثقافة التي يسهم فيها ويتفاعل معها، فان «الفرد» وحاجاته وامكانياته أساس كل الظواهر الاجتماعية والثقافية. فما المجتمعات الا جماعات منظمة قوامها الأفراد وما الثقافات في جوهرها وأصلها الا استجابات منظمة متكررة لأعضاء المجتمع.

لهذا السبب فإن دراسة الفرد ـ ليس فقط من وجهة نظر (لنتن) بل أيضاً من وجهة نظر كثير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ـ يجب أن تكون نقطة البداية المنطقية في أي بحث للمجتمع والثقافة والشخصية. فيقول (مكيفر) في كتابه(المجتمع) «أدرك

الانثروبولوجيون ادراكا تاما خلال دراستهم للشعوب البدائية وثقافتها، علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها وقد أيقنوا أن أي فهم واف لشخصية الفرد أو المركب الاجتماعي أو الثقافي الذي هو جزء منه يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل، وتوقف كل منهما على الآخر» [١].

حاجات الانسان:

يرى (لنتن) أنه يمكنا أن تفترض أن حاجات الفرد هي دوافع السلوك الأساسية. وعلى ذلك تكون هي المسئولة عن تفاعل المجتمع والثقافة. وحاجات الانسان تبدو أكثر تنوعا من حاجات أي كائن حي. فبالاضافة الى الحاجات التي يمكن ارجاعها مباشرة للتوترات البيولوجية كالحاجة الى الطعام والنوم والهروب من الألم والاشباع الجنسي، نجد سلسلة أخرى من الحاجات التي لا يتضح فيها الارتباط بالتوترات البيولوجية وتسعى بالحاجات النفسية. وفي بعض الأحيان تسمى الأولى بالحاجات الأولية والثانية بالحاجات الثانوية ومن المؤكد أن الحاجات الفسيولوجية (الأولية) أسبق من الثانوية في سلم التطور البشري، وتظهر أولا في حياة الوليد الرضيع وتهيمن بقوة عليه في سنوات الطفولة المبكرة.

ومع هذا فإن هذين النوعين من الحاجات الفسيولوجية (الأولية) والثانوية يقفان على قدم المساواة اذا نظرنا اليهما كدوافع للسلوك في حياة الفرد الراشد بالمقارنة لحياة الرضيع، ففي أي صراع طويل مستمر بين النوعين من الحاجات تتغلب عادة الحاجات الأولية ـ وان كان يحدث في بعض الحالات أن تتغلب الحاجات النفسية على الحاجات الفسيولوجية كما نرى حالات الاضراب عن الطعام الى النهاية وفي الحالات التي يفضل فيها الشخص أن يموت بالتعذيب على أن يخذل أو يخون صديقا له أو يخون وطنه، أو حتى يتخلى عن رأي من آرائه أو مبدأ من مبادئه [٢].

---

(١) علي أحمد عيسى، **المجتمع** ترجمة عن الانجليزية للمؤلفين ر. م. مكيفر، وتشارلز بيج، ص١١٥

(٢) من اروع الأمثلة التي يمكن أن نستشهد بها في هذا المجال «جان دارك» الفرنسية، وجميلة بوحريد «الجزائرية».

الحاجات النفسية.

على الرغم من أهمية الحاجات النفسية كدوافع للسلوك فاننا لا نعرف الكثير عنها معرفة دقيقة من حيث وصفها وتصنيفها. والحاجات النفسية على العموم حاجات دقيقة جدا الدرجة يصعب معها دراستها دراسة موضوعية بمعنى الكلمة وعلى كل حال فان سلوك الناس خاصة إذا كان يجب أن يكون متوافقا مع نموذج ثقافي خاص يهدف عادة الى ارضاء عدة حاجات معا لا الى ارضاء حاجة واحدة. فعندما نلبس ملابسنا للتوجه لأعمالنا مثلا انما نرضي بذلك عدة حاجات في آن واحد فنحن نقي جسمنا من المؤثرات الجوية المختلفة ونتزين، وفي نفس الوقت نتمشى مع العرف، فنتحاشى لوم الآخرين.

لكل هذا لن نتعرض لتصنيف هذه الحاجات النفسية وانما سنقتصر على ذكر أهمها وأبرزها في تفسير السلوك البشري وهي:

(أ) الحاجة الى الاستجابة العاطفية.

(ب) الحاجة إلى الأمن.

(ج) الحاجة الى الخبرة الجديدة.

ولنتناول كلا من هذه الحاجات بشيء من التفصيل.

(ا) الحاجة إلى الاستجابة العاطفية: Emotional Response

لعل أهم الحاجات النفسية وأبرزها وأقواها وأدومها نشاطا هي الحاجة الى الاستجابة العاطفية (من الأفراد الآخرين) لأنها اللبنة الأساسية في صرح المجتمع والثقافة القائمة. وقد اختير اصطلاح استجابة عاطفية عن قصد، لأنه من الممكن وكثيرا ما يحدث أن يستجيب الاخرون للفرد مجرد استجابة سلوكية (خالية من العاطفة) فلا ترضى هذه الحاجة عنده. ففي مدينة حديثة يحتمل جداً أن يتعامل الفرد مع عدد كبير من الأفراد تعاملا رسميا ومتوافقا مع ثقافة البلد وما يسودها من عرف ويحصل منهم على خدمات هامة من غير أن يشعر في قرارة نفسه بأي استجابة عاطفية بينه وبين هؤلاء الأفراد وفي مثل هذه الظروف تظل حاجته النفسية للاستجابة

العاطفية متعطشة الى الاشباع فيعاني الشعور بالوحدة والعزلة ويكون هذا الشعور مرا قويا كأنما هو وحده تماما ولا يوجد معه آخرين، بل ربما كان شعوره في هذه الحالة بالمرارة والتوتر أقوى كثيراً من شعوره عندما يكون فعلا في حالة وحدة وعزلة حقيقية (مادية مكانية). وكلنا نعرف معنى الشعور بالوحدة والوحشة رغم وجودنا وسط جماعة من الناس.

وهذه الحاجة للاستجابة للعاطفية من الآخرين ـ خاصة الاستجابة السارة ـ هي اللبنة الأساسية في صرح المجتمع لأنها تزود الفرد بالمثيرات الأساسية للسلوك الاجتماعي المقبول. ولهذا فان الناس يخضعون لتقاليد مجتمعاتهم وعاداتها ويعملون بما يمليه عليهم العرف لرغبتهم في استجلاب رضاء الغير والانتماء اليهم.

ويستطرد «لنتن» في الكلام عن هذه الحاجة الى الاستجابة العاطفية فيقول انها حاجة عالمية عامة وقوية، ويشترك فيها جميع أفراد الجنس البشري لدرجة أن كثيراً من علماء العلوم الاجتماعية اعتبروها غريزية بمعنى أنها فطرية وسواء كانت غريزية أو مكتسبة نتيجة الاشراط conditioning كما يرى بعض العلماء فانها حاجة نفسية عامة في الأفراد وقوية وعنيفة في قوتها فالفرد خاصة في طفولته يعتمد اعتمادا كليا على الآخرين وتتصل حياته من قريب وبعيد بأبويه وذويه اتصالا بيولوجيا يتطور مع نموه الى روابط وعلاقات نفسية عدة، وهو طوال تلك المراحل يقيم لنفسه استجابات عاطفية ومختلفة تتشابك وتختلط في بدء حياته وتبقى وتدوم في شخصيته حتى بعد أن يكون قد اتخذ طرقه الخاصة لارضاء هذه الحاجات مستقلا بنفسه دون مساعدة أحد.

وهناك كثير من الأدلة التي تثبت أن الأطفال حتى الرضع منهم يحتاجون لقدر خاص من الاستجابات العاطفية من الآخرين حتى يصلح حالهم. ويبدو أن عدم وجود هذا القدر الخاص من الاستجابات العاطفية هو التفسير الوحيد لارتفاع نسبة وفيات الأطفال في المؤسسات المختلفة ـ حتى تلك التي تمتاز بحسن الادارة وتوافر الشئون الصحية ـ ارتفاعا يربو على نسبة وفيات الأطفال في الأسر الطبيعية، حتى تلك التي تعيش في ظروف صحية سيئة. فمما لا شك فيه أن حاجة الرضيع الى العطف والحب لا تقل عن حاجته الى الغذاء المادي. ولهذا قال أحد علماء التحليل

النفسي في محاضرة له «أن الأطفال الذين لا يحبون لا يعيشون» (Babies who aren't loved don't live)

(ب) الحاجة الى الأمن.

ويقصد بالأمن أمن الفرد في الماضي والحاضر والمستقبل، أي الأمن الطويل المدى فلا يكفي الاطمئنان النفسي للحاضر ما دام المستقبل غامضا. فالحاجة الى الأمن تعتمد على ادراك الفرد للزمن على أنه متصل ينساب من الماضي الى المستقبل ويعبر الحاضر في طريقه. ولأن الأمن الحاضر لا يشبع نفوسنا تجدنا دائما نبحث عن الطمأنينة ونتوقع الثواب في المستقبل. وهذا ما يجعلنا نتحمل بعض المتاعب الحاضرة وننأى بعيدا عن اللذات العاجلة الراهنة لنصل الى لذة كبرى آجله مستقبلة ولهذه الحاجة الى الأمن أمنا طويل المدى، ارتباط عميق بالأديان والشرائع السماوية وتنعكس في أشكال متعددة لأنماط السلوك الثقافي فهي التي تجعل العامل البدائي يخلط السحر بالتكنولوجيا وهي التي تجعل الناس في جميع مستويات الثقافة تتخيل الجنة التي ستثاب بها في المستقبل على سلوكها الطيب في الحاضر وبذلك نجد أن لهذه الحاجة النفسية للامن أثرا فعالا في توجيه السلوك البشري وجهات خاصة، وتعمل على بقاء الحياة الاجتماعية واستمرارها.

(ج) الحاجة للخبرة الجديدة:

ويسميها بعض العلماء الحاجة الى الجدة او المخاطرة، ويرى «لنتن» أن هذه الحاجة أقل تسلطا وارغاما والحاحا على الشخص من الحاجة الى الاستجابة العاطفية والحاجة إلى الأمن أو على الأقل فانها قلما تلح على الفرد لاشباعها قبل أن يفرغ من ارضاء حاجاته الأخرى. وتعبر هذه الحاجة عن نفسها عندما يمل الشخص فتدفعه الى التخلص من الملل بمختلف أنواع السلوك التجريبي وارتياد آفاق جديدة. ولهذه الحاجة مستويات ومظاهر مختلفة كالاستطلاع، والاستكشاف والاختراع والهجرة.

الحاجات هي المحركات الأساسية للسلوك:

يرى «لنتن» أن للنوعين المذكورين من الحاجات الفسيولوجية والنفسية دورا

جوهريا في السلوك يجمله في أنها المحركات الأساسية للسلوك. فلولا ما يزودان به الفرد من حيوية وحماسة دافعة ما قام بأي سلوك أيا كان. فهو يسلك اذن ليزيل التوتر أو يخفف منه. وهذا ينطبق على السلوك الظاهري كالكلام والمشي والهرب وعلى السلوك الباطني كالتعلم والتفكير. ومع هذا فان أشكال السلوك المختلفة لا يمكن تفسيرها على أساس الحاجات الدافعة وحدها، فهذه الحاجات مجرد قوى ومحركات ودوافع والسلوك المعبر عنها يتشكل بعدد لا نهاية له من العوامل الاخرى في الوسط الثقافي الذي يعيش فيه. فالسلوك الذي يكفي لارضاء حاجات أو مجموعة من الحاجات لا بد ان ينتظم ويتشكل في اطار الوسط، وحسب البيئة التي يعيش فيها الفرد وتتضمن البيئة خبرة الفرد ايضاً.

وعلى ذلك فنمط السلوك الذي يرضي الحاجة الى الطعام يختلف اختلافا كبيراً في مدينة متقدمة عنه في الريف. وزيادة على ذلك فان الأساليب التي يتخذها الفرد في كل حالة لارضاء حاجته تختلف باختلاف خبراته السابقة. ففي القفار نجد الفرد الذي تعود الصيد يختلف في سلوكه وطريقته للحصول على الطعام، عن الشخص غير المتعود على الصيد. أي أن سلوك الفرد رهن بخبراته السابقة وخبرات الفرد بدورها مشتقة من احتكاكاته وتفاعلاته مع البيئة التي يعيش فيها.

اهتمام «لنتن» بدراسة البيئة:

ويتنقل لنتن الى الاهتمام بدراسة البيئة مؤكدا ضرورة فهمها فهما جيداً حتى نستطيع فهم شخصية الفرد، وفي ذلك يقول أننا نميل عادة الى التفكير في البيئة بمعنى الظواهر الطبيعية كدرجة الحرارة أو نوع التربة أو المواد الغذائية الممكن الحصول عليها... ألخ. وكلها عوامل لا بد أن تتغير بتغير الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن كل هذه العوامل تنعكس في خبرات الفرد وبالتالي تنعكس في شخصيته، فانها في الحقيقة قليلة الأهمية في تكوين الشخصية. وبين البيئة الطبيعية وبين الفرد توجد دائما بيئة انسانية a human environment تفوق البيئة الطبيعية في الأهمية، وفي تفسير الظواهر الاجتماعية للثقافة. وهذه البيئة الانسانية تتكون من مجموعة منظمة من الافراد الآخرين وتعرف بالمجتمع Society ولها أسلوب خاص في الحياة مميز لها

ويعرف هذا الاسلوب بـ«الثقافة». وتفاعل الفرد مع كل هذا هو المسئول عن تكوين معظم أنماط سلوكه، وعن ثقافته وحتى عن استجاباته العاطفية العميقة الجذور [1].

نظرية مالينفسكي:

أما «مالينفسكي» فنظرية الثقافة في نظره قائمة على الحاجات الأساسية والاحتمالات المختلفة لارضائها. وهي في ذلك تتفق تمام الاتفاق مع نظرية «لنتن» غير أنها تبرز المفهوم الوظيفي الذي اعتنقه بشكل ظاهر.

ففي رأيه أننا إذا تعرضنا لدراسة أي ثقافة بدائية كانت أو متقدمة معقدة فإننا سنجد أنفسنا مجموعة واسعة من الوسائل بعضها مادي وبعضها انساني، وبعضها روحي.

ففي رأيه أننا إذا تعرضنا لدراسة اي ثقافة بدائية كانت أو متقدمة معقدة فاننا سنجد أنفسنا أمام مجموعة واسعة من الوسائل بعضها مادي وبعضها انساني، وبعضها روحي. وهذه الوسائل هي التي تعين الشخص على معالجة المشاكل المحسوسة الخاصة التي تقابله. وتنبع هذه المشاكل من تلك الحقيقة، الا وهي ان الشخص له جسد خاضع لعدة حاجات عضوية وأنه يعيش في بيئة موالية له، بمعنى أنها تقدم له المواد الخام التي على أساسها ينتج ويبتكر أو بيئة عدوة له، بمعنى أنها تحوي كثيرا من القوى الخطرة الشريرة وهذه الحقائق تتضمن أن نظرية الثقافة لا بد أن تقوم على الحقائق البيولوجية. فلا بد مثلا أن يوجد الانسان حلا للمشاكل التي تنبع من حاجاته الاساسية، ، كالحاجة الى الطعام والحاجة الى الاشباع الجنسي والى الوقاية من الخطر. . الخ وحل هذه المشاكل لا يتم الا بانشاء بيئة جديدة، بيئة ثانوية[2] Secondary environment أو صناعية artificial وهذه البيئة ـ التي هي الثقافة بعينها لا أكثر ولا أقل، لا بد أن تظل على الدوام، مستمرة، ومتجددة

---

(1) Linton, R., *The Cultural Background of Personality*, p. 9.

(2) Malinowski, B., *A Scientific Theory of Culture*, p. 37.

ومحفوظة، ومرعية. وهذا من شأنه أن يخلق ما يمكن أن يوصف وصفاً عاما بأنه مستوى جديد للمعيشة (A New standard of living) يتوقف بدوره على المستوى الثقافي للجماعة المحلية وعلى البيئة، وكذلك يتوقف على قدرة الجماعة، وعلى المستوى الثقافي للمعيشة Cultural Standard of living ويعنى أن حاجات جديدة تظهر وأن معايير خاصة تفرض على سلوك الانسان. ومن الواضح أن التقاليد الثقافية لا بد أن تورث من جيل إلى جيل. ومعنى هذا انه لا بد من وجود طرق ووسائل للتربية أيا كانت. كما لا بد أن يكون هناك نظم وقوانين. وبما أن التعاون هو جوهر كل ثقافة. فلا بد أن يكون هناك نظام معين للمعيشة وقوانين معينة تحكمها وتنظمها.

كما لا بد من وجود تنظيمات لحماية التقاليد ومراعاة الأخلاق والقوانين. كذلك الجانب المادي للثقافة، لا بد أن يتجدد ويظل على الدوام فعالا ومستمرا بنظام. وعلى ذلك فلا بد أن يكون هناك نوع من التنظيم الاقتصادي حتى في أبسط المجتمعات البدائية.

مما سبق يتضح أنه لزاما على الفرد أولا وقبل كل شيء أن يشبع كل حاجاته العضوية البيولوجية. ولذلك فهو مضطر الى إيجاد تنظيم، والقيام بألوان مختلفة من النشاط خاصة بالتغذية والتدفئة والأسكان والملبس والحماية من البرد والرياح وتقلبات الجو. كما أنه مضطر الى حماية نفسه والقيام بالتنظيم اللازم الذي يضمن هذه الحماية ضد الأعداء، والاخطار الخارجية سواء من البيئة المادية او من الحيوان أو الانسان.

كل هذه المشاكل الأساسية التي تواجه الفرد تحل له بوساطة معدات وأدوات وتنظيمات للناس في مجموعات متعاونة كما تحل له بوساطة العلم والمعرفة والقيم والخلق.

الحاجات الأساسية والحاجات الثقافية:

ونظرية «مالينفسكي» في الثقافة تحاول أن تبين أن الحاجات الأساسية للفرد وإشباعها الثقافي يرتبط أرتباطا وثيقا باشتقاق حاجات ثقافية جديدة وأن هذه

الحاجات الجديدة تفرض على الفرد والمجتمع نوعا ثانويا من الجبرية أو الالزام ويرى «مالينفسكي» أن العلاقة بين أي نشاط ثقافي وأي حاجة انسانية أساسية كانت أو مشتقة يمكن أن نقول عنها أنها علاقة وظيفية. فالوظيفة اذن لا يمكن أن تحدد أو تعرف بأي طريقة أخرى غير أشباع حاجته بنشاط يتعاون فيه الناس، ويستعملون الأدوات، ويستهلكون البضائع[1].

وهذا التعريف يتضمن فكرة أخرى جوهرية ذات صلة وثيقة بكل وجه من أوجه الثقافة تلك هي فكرة التنظيم Organization فلتحقيق أي غاية، أو لبلوغ أي هدف، لا بد أن يتعاون الناس. وتتضمن فكرة التنظيم، خطة محددة، أو بناء خاصا، تعتبر مقوماته الأساسية عالمية بمعنى أنها عامة، وينطبق على كل الجماعات المنظمة في كل الثقافات. ويسمى «مالينفسكي» وحدة التنظيم الإنساني «النظام الاجتماعي». ومفهوم النظام الاجتماعي عنده يتضمن الاتفاق على مجموعة من القيم التقليدية هي التي تجمع الناس بعضهم ببعض كما يتضمن أيضاً أن هؤلاء الناس يرتبطون بعلاقات محددة، وبمكان معين في بيئتهم سواء أكان طبيعياً أو صناعياً.

نظرية «سمنر»:

يرجع «سمنر» النشأة الأولى للطرق الشعبية أو العادات الاجتماعية[2] التي تقترب في معناها كثيراً من الثقافة بل أنها لتكون المحتوى الأساسي للثقافة، إلى الحاجات الضرورية الحيوية التي تتطلب الارضاء والأشباع. ويمكننا أن نلخص آراءه في هذه الناحية في أنه لكي يتم أرضاء الحاجات الضرورية، لا بد من قيام الناس أفرادا وجماعات بأفعال أو طرق أو أساليب مختلفة من النشاط يغلب عليها المحاولة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢) مما يسترعى النظر أن معظم المؤلفات الحديثة في علم الاجتماع والانثروبولوجيا لا تتكلم عن العادات الاجتماعية تحت عنوان Social Habits بل تحت عنوان Folkways وهي الطرق الشعبية، وأول من استعمل اسطلاح Folkways كمرداف للعادات الاجتماعية هو العالم الامريكي «وليم جراهام سمنر» في سنة (١٩٠٥)

والعشوائية. وغني عن البيان أن هذه الأساليب التي يمارسها الناس لارضاء حاجاتهم الضرورية، لا بد أن تتكرر مرة بعد مرة ويوما بعد يوم وسنة بعد سنة. وفي أثناء هذا التكرار لا يلبث الناس عن طريق (التجربة او الخطأ) أن يكتشفوا أن هناك طرقا ناجحة صائبة مفيدة، وطرقا فاشلة وغير صائبة وضارة وبطبيعة الحال يختارون الطرق والأساليب التي أخفقت في أرضاء حاجاتهم، أو التي سببت لهم آلاماً وأضرارا تؤ ثر على رفاهيتهم وسعادتهم.

ومن البديهي أن الناس عندما يتبين لهم صلاحية أسلوب ما أو قيمة طريقة ما من طرق السلوك في إرضاء حاجاتهم فانهم يرغبونها ويكررونها في كل مناسبة تتطلبها ويتمسكون بها مع مرور الزمن وبذلك تتبلور وتصبح عادة اجتماعية يتعارف الناس عليها ويعملون على ترسيخها وتأصيلها وتثبيتها في نفس الأفراد كما يعملون أيضاً على نقلها أفقيا في الجيل الواحد ورأسياً إلى الأجيال المتعاقبة في شكل أعراف وتقاليد تحرص عليها الجماعة وتحترمها. فما دامت قد اصبحت ضرورية لسلامة البناء الاجتماعي ولرفاهية الجماعة فهي تمثل النصرفات الصحيحة، والصائبة والسلوك المتسم بالصواب والخير والحكمة[1].

وفي هذا يقول الدكتور حسن الساعاتي: «أن ما يفعله الإنسان مرة ويستحسنه يميل إلى فعله مرة أخرى فمرات، وإذا ما تكرر فعله، وكان لا يزال يستحسنه ويستسهله فإنه يود لو أن غيره يفعله أيضاً ولا سيما إذا كان هذا الشخص الآخر عزيزا عنده كأبنه مثلا، وإذا استمر هذا الميل من جيل إلى جيل آخر، قويت العادة كثيراً» ويمكننا أن نقول: «أن العادات والتقاليد كالدرب الذي كلما طرقه المارة تمهد وسهل السير فيه حتى أنهم لا يستطيعون في آخر الأمر العدول عنه إلى درب آخر مطروق»[2].

وخلاصة ما تقدم أن الطرق الشعبية بكل فروعها من عرف وتقاليد وآداب،

---

(1) سمنر، **المصدر السابق**، ص ١، ٢٠.

(2) حسن الساعاتي، **علم الاجتماع القانوني**، ص ١٠٨.

سلوك، تستمد أصولها وتشتق وجودها من التجربة الاجتماعية للناس من تفاعلهم وتعاملهم بعضهم مع بعض في حياتهم الاجتماعية المشتركة. وفي هذا يقول «سمنر»؛ ففي سبيل التصارع من أجل البقاء، وعن طريق تعاون الناس بعضهم فتكون الطرق الشعبية وتنشأ بطريقة غير واعية، وغير شعورية. وبمرور الزمن تبدو ثابتة وأصيلة وراسخة على الرغم من أن أحد لم يقصد حدوثها ويتعمد تكوينها أو يخطط لها أو يعرف عنها مقدما[1].

ولما كانت العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية تنبثق من حاجات الناس الطبيعية الحيوية فإن العلماء يميزونها دائماً بأنها تلقائية Spontaneous أي تتكون في داخل الجماعة بصور غير واعية Unconsciously وغير مقصودة، ودون تأمل أو هدف منطقي، ذلك لأن أساسها المحاولة العشوائية والتجربة والخطأ في إشباع الحاجات الطبيعية. فهي تمثل ضرورة اجتماعية تلقائية وظاهرة جوهرية لمعيشة الناس بعضهم مع بعض إذ تربط فيما بينهم في الحاضر وتلقنهم تجربة الماضي وتسهل عليهم معاملاتهم المتبادلة. وهكذا ينشأ كل منا فيجد نفسه أمام «رصيد» مدخر من العادات التي أرتضتها جماعته واتفقت عليها. فالعادات إذن سابقة على الفرد كما انها ليست من خلق تفكيره الهادف بل تنبثق من المحاولة والخطأ وتنمو مع التجربة فيسير وفقها الفرد دون وعي منه دون تفكير منطقي، اذا يرى نفسه ملزما بمراعاتها حتى يجاري ويطابق من يعيش بينهم وينسجم معهم. فهو في الحقيقة مضطر بل منساق بشكل يكاد سحريا إلى أن يصب قوالب سلوكه، ويشكل أعماله وفقا لها، أن يخطر بباله أن يتدخل فيها أو يحاول تعديلها وتطويرها.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نورد فقرة للعالم «سمنر» تتبلور فيها أهم معاني تلقائية العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية فهو يقول: «أن الطرق الشعبية ليست من خلق الذكاء البشري، وليست من ابتكار التأمل العقلي الهادف أن مثلها كنتائج القوى الطبيعية التي يستخدمها الناس ويسخرونها لتحقيق أغراضهم دون وعي منهم، أو كمثل طرق السلوك الغريزية عند الحيوان التي تنمو مع التجربة والتي

---

(١) سمنر، المصدر السابق، س ٣٤.

تصل الى أعلى مستوى للتكيف تبعا للاهتمامات التي يراد أشباعها[1].

ويرى (سمنر) أن العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية ملزمة وجبرية أي أن لها سلطانا على الأفراد يضغط عليهم ويشعر كل واحد منهم أنه مضطر للخضوع لها. ويقول: أنها (تنظم كل أعمال الإنسان من أكل أو شرب أو صوم أو أفطار أو أستحمام أو غسل أو تزين.. الخ[2].

ويلاحظ أن سمنر قد القى بنظريته في الطرق الشعبية التي تترادف إلى حد كبير مع الثقافة كثيراً من الضوء على نشأة الثقافة وعلى مميزاتها وخصائصها أيضاً.

نظرية عبد الرحمن بن خلدون:

وفي هذا المجال أرى لزاما على أن أشير إلى أن (لنتن)، ومالينفسكي وسمنر لم يأتوا بجديد. فقد سبقهم إلى آرائهم في الأسس الخاصة بالثقافة عبد الرحمن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع. فقد أوضح في مقدمته كيف أن دوافع الإنسان الفطرية هي أساس الظواهر الاجتماعية بل أساس الثقافة بمعناها الكامل. كما حلل النشاط الاجتماعي وأبرز ما يحتوي عليه من ظواهر هي نفس الظواهر التي أبرزها (مالينفسكي) وهي ظاهرة التخصص، وظاهرة تقسيم العمل، وظاهرة التعاون التي بدونها لا تتحقق مطالب الإنسان. فابن خلدون يرى أن الاجتماع الإنساني ضروري للتعاون من أجل الحصول على الغذاء من جهة ولدفع عدوان الحيوان المفترس من جهة أخرى. ويقول في ذلك: (... أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم): أن الإنسان مدني بالطبع (أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤ ها إلا بالغذاء وهداه إلى التماسه بنظرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله. إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه. وهو قوت يوم من الحنطة مثلا، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن

(١) سمنر، المصدر نفسه، ص ٤٠

(٢) سمنر، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والطبخ. وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. وهب أنه يأكله حبا من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة، والحصاد، والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الأولى بكثير. ويستحيل أن توفى بذلك كلمة أو ببعضه قدرة الواحد. فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه. . . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة لها. فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته. . . ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويعالجه الهلاك عن مدى حياته ويبطل نوع البشر» [1].

ويضيف قائلا بصدد حاجة الإنسان إلى النظام السياسي: «أن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم. وليست السلاح التي جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم، لأنها موجودة لجميعهم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون لغيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. وهذا هو معنى الملك» [2].

ويقول في الحاجات الأساسية للانسان وفي التخصص وتقسيم العمل في معرض الحديث عن البدو والحضر: «إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤١، ٤٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز، والنحل، والدود، لنتاجها وإستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك. ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها، وتوسعه البيوت، واختطاط المدن والامصار للتحضر ثم تزيد أحوال الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل. . . . ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري[1].

هذا وتظهر آراء ابن خلدون الخاصة بتقسيم العمل بشكل أوضح في فصول مستقلة في المقدمة تتناول أمهات الصنائع المختلفة ومن أهمها الفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة والتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب.

تلخيص :

على هدى النظريات السابقة المتفقة الى حد كبير بعضها مع بعض يمكننا أن

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.

نلخص كيفية نشأة الثقافة ودور الفرد فيها. فالانسان كالحيوان يحتاج في حياته الى اشباع حاجاته الأساسية فهو يحتاج إلى أن يأكل ويلبس ويستقر في مأوى معين يحميه تقلبات الجو ويحتاج إلى الراحة بعد العناء، وإلى الطمأنينة من الخطر والهلاك، كما يحتاج إلى أن يشبع رغبته في الزواج والنسل. والفرق بين الانسان والحيوان في اشباع هذه الحاجات هو أن الحيوان يعتمد في ذلك على سلوكه الغريزي الفطري مستخدما ما لديه من تركيب فسيولوجي، فلا يحتاج الحيوان عند ولادته الى ان يتعلم شيئا من الكبار إلا في النادر من الحالات وإنما يولد في الغالب مستكملا أساليب تكيفه مع البيئة التي يعيش فيها عن طريق تكوينه الجسمي واستعداده الفطري.

أما الانسان فيعتمد على عقله وذكائه لكي يخلق ويبتكر الوسائل المختلفة التي ترضي وتشبع وتنظم هذه الحاجات الاساسية. ومعروف في الامثال أن الحاجة تفتق الحيلة. أي أن فكرة الثقافة تقوم على اشباع الفرد لحاجته الأساسية وعلى كفاحه المستمر لحل ما ينشأ عن هذه الحاجات الاساسية من توترات ومشاكل أو ما يشتق منها من حاجات جديدة - حاجات ثقافية - ولذلك فإن الفرد مضطر في كفاحه لكي يشبع هذه الحاجات، الى القيام بألوان مختلفة من النشاط وأنواع خاصة من التنظيم، تلزمه وتحتم عليه أن يتعاون مع غيره. وعن طريق انتظام الفرد في جماعة وتعاونه معها يتعلم كثيرا من وسائل ارضاء حاجاته من الأفراد الاخرين. وهذه الوسائل التي يخترعها أو يهتدي اليها أو يصطنعها لكي يشق طريقه في الحياة ويستطيع المعيشة - هي مكونات الثقافة.

وواضح من هذا ان الثقافة اذن مكتسبة أي أن الفرد لا يولد مزودا بها بل هو يصل إلى اختراعها بالعقل أو يكتسبها من المجتمع الذي يعيش فيه ثم يحور فيها. كما يتضح أيضاً أن الثقافة تميز الانسان عن الحيوان، فنماذج معيشة الحيوان ثابتة لا تتغير لأنها لا تعتمد على مجرد السلوك الغريزي الذي يولد مزودا به. أما الانسان فنماذج معيشته قائمة على التفكير وما يتميز به من مرونة وتجديد وإبداع ولذا فانها تتغير من عصر لأخر وفق الحياة الاجتماعية وما يحيط بالمجتمع من عوامل اجتماعية وطبيعية.

وعبقرية النوع الانساني تقوم على ثقافته وثقافته من صنعه. وثقافته تبدأ من الفترة التي بدأ فيها الانسان يستخدم عقله في سبيل الوصول إلى حياة أفضل. أي أن الثقافة نشأت كنتيجة مباشرة لصراع العقل الانساني ضد الطبيعة ومحاولة التحكم في الظروف المحيطة به. فالموارد الطبيعية من معادن أو أنهار أو غابات لا قيمة لها الا اذا فكر فيها الانسان وادخلها في وعيه، ثم بدأ يتعامل معها ويعرف وسائل استغلالها فيكيفها ويتكيف معها ليرضي حاجاته الأساسية ويحقق أغراضه ومطالبه الاجتماعية. فالثقافة أمر متصل ومتفاعل مع الأنسان وتعتبر حصيلة للنشاط البشري. [1] ويؤكد العالمان «واردن» (Warden) ولوب (Loeb) ان الثقافة انبثقت فجأة يوم ظهر الإنسان على وجه الأرض فوجدوها رهن بوجوده. [2]

(1) Young, Kimball, *Sociology: A study of Society and Culture* pp. 31-32.

(٢) فؤاد البهي السيد، علم النفس الاجتماعي، ص ٥٣.

الفصل الثالث

خصائص الثقافة ومميزاتها

تمهيد:

هناك صفات أساسية هامة تتصف بها الثقافات على اختلاف أنواعها، وسنحاول قدر الأمكان أن نوضح أبرز هذه الصفات على الصفحات التالية:

١ ـ الثقافة نتاج اجتماعي إنساني:

لا وجود للثقافة دون مجتمع انساني ولا وجود للمجتمع الإنساني دون ثقافة ما، فهما ظاهرتان متماسكتان أشد التماسك ويشبههما كربير (Kroeber) بأنهما كسطحي الورقة في تلاصقهما ـ فإذا محونا من أي مجتمع إنساني ثقافته فإننا بذلك نكون قد سلخنا عنه بشريته.[1]

والثقافة تنشأ عن الحياة الأجتماعية البشرية وهي من اختراع واكتشاف الإنسان والثقافة تشمل جميع نواحي التراث الاجتماعي البشري أو كل ما يميز الحياة الاجتماعية عند الإنسان، عن الحياة الاجتماعية عند باقي الحيوانات.

ولقد ذكرنا أن الثقافة بدأت من الفترة التي بدأ فيها الانسان يستخدم عقله في سبيل الوصول الى حياة أفضل أي أنها نشأت كنتيجة مباشرة لصراع العقل الإنساني مع الطبيعة ومحاولة التحكم في الظروف المحيطة به. وكثيرا ما تكون عملية خلق

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

الثقافة بطيئة وتدريجية وغير ملحوظة، لذلك فنحن لا نستطيع أن نحدد تماما متى بدأت عادات معينة مثل عادات التحية، أو عادة السير على الجانب الأيمن من الطريق بالسيارة. . . إلخ.

من ذلك نرى أن الثقافة من خلق الإنسان وأنها لا تورث بيولوجيا. حقيقي أن الأفراد يتوارثون بعض نماذج مبسطة من السلوك مثل التنفس وتناول الطعام والبكاء وطرفة العين eye blinking والتي نشاهد مظاهرها عند صغار الأطفال لأن أساسها الحاجات البيولوجية الموروثة لكن حتى هذه النماذج المبسطة من السلوك نجد أنها تتحدد بالثقافة لأن الثقافة هي التي تعطيها المعنى كما أنها تحدد متى وأين وكيف يمكن أن تحدث.

والثقافة اجتماعية بمعنى أن الأفراد الذين يعيشون في جماعات أو مجتمعات منظمة يشتركون في ثقافة معينة وهي التي تجعلهم يميلون إلى أداء الأفعال بالطريقة نفسها تقريبا. و هذا هو السبب الذي يجعل الناس في جماعة معينة أو مجتمع معين يبدون متشابهين بالنسبة للغرباء عن جماعتهم أو مجتمعهم فالعادات التي يشترك فيها أعضاء الجماعة بعضهم مع بعض هي التي تكون ثقافة تلك الجماعة «فالعادات الجمعية أو العادات المشتركة في جماعة اجتماعية بغض النظر عن نوعية تلك الجماعة التي قد تكون الأسرة أو القرية أو الطبقة أو القبيلة هي التي تكون الثقافة أو الثقافة الفرعية».

٢ ـ الثقافة مكتسبة:

إن الثقافة ليست غريزية ولا فطرية كما أنها لا تنتقل بيولوجيا، ولكنها تتكون من العادات التي يكتسبها كل فرد خلال خبرة حياته بعد الميلاد. وتتضمن الثقافة توقعات الجماعة group expectations التي يتعلمها الفرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية، كما أنه عن طريق هذه العملية أيضا، يكتسب عموميات السلوك التي تشكل الثقافة.

ويكتسب الأفراد الثقافة من خلال صلاتهم وعلاقاتهم بالآخرين. وتشير عملية التعلم أو الأكتساب إلى تكرار أساليب السلوك الاجتماعي المشتركة بين أعضاء جماعة اجتماعية معينة. ويمكن أن ننظر إلى عملية أكتساب الثقافة من أبعاد وزوايا متعددة وهي التي تعبر عنها مصطلحات متنوعة، كالوراثة الاجتماعية social inheritance والتمثيل assimilation والتثقف acculturation والاستعارة borrowing والانتشار

diffusinn والتنشئة الاجتماعية socialization وغيرها من المصطلحات. ولكن كل ما يهمنا من هذه المصطلحات هو تأكيد أهمية عملية التعليم والاكتساب التي تحدث في موقف جمعي.

فالأطفال على سبيل المثال حين يشبون في أسرهم وجماعاتهم فانهم يكتسبون عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية طرق السلوك والتفكير والاعتقاد والشعور التي يفصح عنها آباؤهم وأقرباؤهم وجيرانهم.

أما المهاجرون إلى مجتمع جديد فانهم يكتسبون الثقافة الجديدة والأساليب الجديدة في الحياة عن طريق عمليتي التمثيل والتثقف كي يستطيعون التواصل والتعامل مع أفراد ذلك المجتمع.(1)

وإذا كانت الثقافة تكتسب عن طريق التعلم فهي لا بد وأن تخضع لقوانين التعلم التي قطع السيكلوجيون في سبيلها شوطا كبيرا من الدراسة والبحث. وبينا نجد أن لكل الحيوانات القدرة على التعلم، فإن الانسان وحده الذي يستطيع أن ينقل عاداته التي اكتسبها الى ابنائه وتعد اللغة عاملا هاما في هذا الصدد فهي الأداة الأساسية التي ينقل بها الناس معارفهم ومعتقداتهم، وعادتهم من جيل الى آخر. وبفضل اللغة يستطيع كل جيل أن ينقل خبراته، بطريقة رمزية الى الجيل الناشيء وهكذا يستطيع جيل الأبناء أن يتعرف في ساعات قلائل على ما قد يكون قد استغرق من الآباء سنينا في تعلمه(2)

ومن خلال استخدام اللغة استطاع الإنسان أن يجعل من نفسه سيداً على الحيوانات الأخرى وأن يطور ذلك الكل المركب من المعارف والسلوك الماهر الذي نطلق عليه الحضارة. أما تلك الحيوانات التي فشلت في اتخاذ لغة فإن ثقافتها توقفت عند أدنى حدود البدائية والتي تتكون فقط من أنساق من السلوك المكتسب والمتنقل من جيل إلى آخر بلا أدنى اضافة أو تعديل ذلك لأنه سلوك غريزي وبيولوجي في المحل الأول. نتيجة ذلك أن (ثقافة الكلاب) أن صح هذا التعبير أي سلوكهم المكتسب إنما هو سلوكهم ذاته منذ خمسة آلاف سنة مضت بينا نجد أنه في هذه الفترة الزمنية نفسها انتقلت ثقافة الإنسان من مرحلة البربرية barbarianism إلى مرحلة

(1)Himes, Joseph, S., *The Study of Sociology*, pp. 74: 75.

(2)Lundberg G. A., Schrag, C. C., and Larsen, O. N., *Sociology*, pp. pp. 201–202.

التصنيع Indusrialism

٣- الثقافة إنتقالية وتراكمية:

تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد ونظم، وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف عن طريق المخلفات المادية والرموز اللغوية كما أنها تنتقل من وسط إجتماعي إلى وسط إجتماعي آخر وبهذا المعنى فإنها تراكمية Cumulative فالإنسان يستطيع أن يبنى على أساس منجزات الجيل السابق أو الأجيال السابقة فهو ليس بحاجة إلى أن يبدأ دائما من جديد في كل جيل. وتختلف الطريقة التي تتراكم بها خاصة ثقافية معينة كاللغة مثلا، عن الطريقة التي تتراكم بها خاصة أو سمة ثقافية أخرى كالتكنولوجيا على سبيل المثال.

وفي عملية الانتقال الثقافي نجد أن انتظامات السلوك regularities of behavior تشمل وجوداً مستقلا عن شخص بذاته أو جماعة بعينها(١).

٤ - الثقافة مثالية:

ينظر إلى العادات الاجتماعية التي تكون الثقافة على أنها تمثل نماذج مثالية ينبغي على أعضاء الجماعة أو المجتمع أن يحتذوها، أو يمتثلوا لها، ويتكيفوا معها. وقد يكون هناك تفاوتاً ملحوظاً بين النموذج والواقع، ولكن أهمية وجود النموذج أو المثال تبقى موجودة ومعروفة. فمعظم الناس يظهرون ـ وبدرجة ملحوظة ـ وعيا بمعاييرهم الثقافية الخاصة بهم، وقدرة على التمييز بينها وبين العادات الفردية الخالصة وبسهولة في ادراكها وتفهمها والحديث عنها بالتفصيل ويتضمن ذلك معرفة بالمواقف التي يعد فيها النموذج أو المعيار الثقافي المعين ملائما، والجزاءات المتوقعة إذا لم يتوافق الفرد مع هذه النماذج والمعايير. وهذه الخاصة من خصائص الثقافة تميزها عن العادات الفردية التي لا تحمل أية مضمونات مثالية أو نموذجية(٢).

٥ ـ الثقافة إشباعية:

تشبع الثقافة، دائما، وبالضرورة، الحاجات البيولوجية الأولية وكذلك

(١) انظر فرانسيس ميرل، المصدر السابق ص ١٢١.
ونظر أيضا Harvey C. Moore, "Cumulation and Culture and Cultural Processes," *Amer Anthropologist a56. 347—357 (June 1954).*

(٢) انظر كروبير وكلاكون، المصدر السابق، ص ١٦٦

الحاجات الثانوية المشتقة منها أيضـاً ولذلك يقال أن للثقافة خاصة إشباعية. والجوع والعطش مثالان على الحاجات البيولوجية، أما الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية socio-cultural لأنها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الجمعي وتنتقل بالطريقة نفسها مثل الحاجة إلى الزواج على سبيل المثال.

وحيث أن الثقافة تتكون من العادات وبما أن علم النفس قد أكدت حقائقه أن العادات تثبت وتستمر طالما تحقق الإشباع. لذلك فإن الإشباع يدعم العادات ويقويها بينما ينجم عن قلة الإشباع أن تنطفىء العادات ويخبو نورها أو تختفي تماماً. وسنوضح ذلك بأمثلة عند الحديث عن أن الثقافة انتقائية[1].

وتأسيساً على ما تقدم فإن مكونات الثقافة تبقى فقط إذا ما كانت تمد أفراد المجتمع بحد أدنى من الإشباع أو بتوازن مناسب تتفوق فيه اللذة على الألم. وقد اهتم «مالينفسكى» بهذه النقطة اهتماماً خاصا، إستغرق منه سنوات لتأكيده وشرحه وحيث كان معظم الأنثروبولوجيون يرون أن إستمرار الثقافة وبقائها مسألة مفروغ منها ولا تقبل أي جدال أو مناقشة.

ويترتب على كون الثقافة إشباعية، مسلمه أخرى، وهي وجود تشابهات ثقافية واسعة المدى بين الثقافات، ناتجة عن الحقيقة القائلة بأن الدوافع الإنسانية الأساسية، المتماثلة عالميا، تتطلب أشكالا متماثلة من الإشباع. ويبدو أن إقتراح «ويسلر» Wissler بوجود ما يطلق عليه «النموذج الثقافي العالمي» قد انبنى على هذه المسلمة[2].

٦ ـ الثقافة تكيفية:

إن الثقافة تتغير. وتتميز عملية التغير الثقافي بأنها عملية تكيفية، يمكن مقارنتها على وجه ما، بالتطور في عالم الكائنات الحية، ولكنها تأخذ مجرى آخر.

وتميل الثقافات ـ خلال فترات زمنية ـ معنية إلى التكيف مع البيئة الجغرافية فالناس ينبغي أن يكونوا قادرين على أن يأكلوا ويلبسوا ويسكنوا وذلك بالتكيف لما

(١) أنظر ما بعد، ص ٨٠.

(٢) انظر كروبير وكلاكون، المصدر السابق، ص ١٦٨.

حولهم، وهذا لا يعني أن البيئة تحدد إتجاه الثقافة وإنما يعنى أن على الثقافة أن تتكيف للضرورات الجغرافية إن كان لها أن تبقى[1].

وتتكيف الثقافات أيضا عن طريق الاستعارة والتنظيم وذلك بالنسبة للبيئة الاجتماعية للشعوب المجاورة. وتتكيف الثقافات لنفسها كذلك بمعنى أن تتكيف للتغيرات المختلفة التي تطرأ على مظاهرها بسرعات مختلفة[2] فالأسرة، على سبيل المثال عليها أن تتكيف للسيارة، والحكومات يجب أن تتكيف للقنبلة الذرية والهيدروجينية. وأخيراً فإن الثقافات عليها أن تتكيف للمتطلبات البيولوجية، والسيكلوجية للكائن الإنساني وعندما تتغير ظروف الحياة فإن الأشكال التقليدية تتوقف عن مد الإنسان بحد أدنى من الإشباع. وعلى ذلك فإنها تستبعد، وتظهر حاجات جديدة وتظهر تكيفات ثقافية جديد لها.

ويعزى إفتراض كون الثقافة تكيفية الكثيرين إلى فكرة لامفر من أن ترد على الخاطر وهي فكرة التقدم أو بنظرية عن مراحل التطور، أو فكرة وجود حتمية من أي نوع. ورغم ذلك فإننا نتفق مع أوبلر Opler الذي يرى بناء على دراسته للاباش (Apache) أن الأشكال الثقافية المختلفة قد تمثل تكيفات لمشكلات متشابهة كما أن العكس صحيح أيضا بمعنى أن الأشكال الثقافية المتشابهة قد تمثل تكيفات لمشكلات مختلفة.

وقد يبدو لبعض الأنثروبولوجيين أن مفهوم التغير الثقافي كعملية تكيفية لا يتسق مع مفهوم التغير الثقافي كعملية تاريخية لكننا نرى في الحقيقة أن ليس ثمة خلاف بين ما هو وظيفي functional وما هو تاريخي historical كما يحلو للبعض أن يطلق عليهما. فكلا الاتجاهين صحيح، وكل منهما يكمل الآخر، بل أن أعظم الأعمال في الأنثروبولوجيا لا يكتمل إلا إذا إستخدم فيها كلا الاتجاهين في تكامل والتماء. إن تاريخ الثقافة ما هو إلا سلسلة متصلة من الأحداث الفريدة التي تتحدد فيها

---

(1) Betty, Meggers, "Environmental Limitations on the Development of Culture, *Amer. Anthr.*, 56: 801–842 (Oct. 1954).

(٢) أنظر William, F. Ogburn, *Social Change* (rev. ed.) N. Y. the Viking Press 1950.

الأحداث اللاحقة بالأحداث السابقة عليها. ومن وجهة النظر الثقافية فإن الأحداث التي تؤثر فيها يلحقها من أحداث في السياق التاريخي نفسه كثيرا ما تكون أحداث غير ثقافية بمعنى أن أصولها خارجة عن السياق الثقافي وهي تتضمن أحداثاً طبيعية مثل الفيضانات وألوان القحط المختلفة وأحداثاً بيولوجية كالأوبئة وأحداثا سيكلوجية كالثورات الإنفعالية والحدس الخلاق، وهذه الأحداث تغير ظروف حياة المجتمع. فهي تخلق حاجات جديدة تتطلب الاشباع كما أنها تجعل من الأشكال الثقافية القديمة أشكالا غير مناسبة وهي تستميل سلوك المحاولة والخطأ كما أنها تستثير الاختراعات والمستحدثات الثقافية ولكن الأحداث التي تؤثر فعلا في حياة المجتمع أكثر من غيرها هي الصلات التاريخيةبشعوب من مختلف الثقافات لأن الناس يميلون إلى أن يفتشوا في المنابع الثقافية لجيرانهم جريا وراء حلول لمشكلاتهم اليومية قبل أن يحاولوا إبتكارات حلول جديدة لها. ويعد فهم الطبيعة الطبيعة التاريخية للثقافة وبخاصة دور الانتشار مطلباً أساسيا قبل عقد «أية تعميمات» بين ـ ثقافية (cross - cultural) وجدير بالذكر أن نؤكد أن الأحداث التاريخية يعد تأثيرها شرطيا وليس محددا في مجرى الثقافة. والإنسان في النهاية إنما يعيش في الثقافة ومن خلالها، وهو أكثر الحيوانات قدرة على التكيف[1].

٧ ـ الثقافة تكاملية:

يعد ميل المكونات الثقافية لثقافة بعينها إلى أن تلتحم وتتحد لتكون كلا متكاملا منسجما هو أحد نتائج عملية التكيف استخدامنا لكلمة «ميل» إستخدام له مغزاه لأنه يرد على مغالاة بعض الوظيفيين الذين يدعون أن الثقافات متكاملة بطبيعتها وإنها تشكل أنساقا تكاملية تعزف مكوناتها لحن التوازن الكامل. والحقيقة أننا نذهب مع ما يراه «سمنر» من أن العادات الاجتماعية أو الطرق الشعبية تتعرض لضغوط من أجل أن تتكامل وتتسق بعضها مع بعض Strain of consistency لكن التكامل الحقيقي لا يتحقق بشكل تام ذلك لأن الأحداث التاريخية دائما ما تفرض تأثيراً مزعجا ومعوقا للتكامل. والتكامل يستغرق وقتاً. وهناك دائما ما يطلق عليه (أوجبرن) Ogburn

---

(١) أنظر كروبير وكلاكون، المصدر السابق، ص ١٦٩.

التخلف الثقافي (Cultural - lag) والذي ينشأ عن اختلاف سرعة التغير بين العناصر المادية والعناصر غير المادية في الثقافة.

ويظهر التكامل الثقافي بصورة جلية في المجتمعات البسيطة، والمجتمعات المنعزلة، حيث يندر وجود عناصر خارجية في ثقافات تلك المجتمعات كما أن العناصر الأصلية لا تتغير بسرعة أما في ثقافات المجتمعات المركبة غير المتجانسة فالتكامل لا يظهر بشكل واضح، وحيث نجد أن عناصرها الأصلية تتغير باستمرار.

ونستطيع القول في النهاية أن كل الثقافات تظهر ميلا للتكامل الثقافي برغم وجود فروق كبيرة بينها في مقدار هذا التكامل لأنه إذا لم يكن هناك حدا أدنى من التكامل الثقافي فإن المجتمع لا يكتب له البقاء والتماسك[1].

٨ ـ الثقافة انتقائية:

يتم توارث الثقافة من جيل إلى جيل على نحو مختلف كل الاختلاف عن توارث الصفات الجسمية والحيوية في الكائنات الحية، فقوانين الوراثة الحيوية ثابتة مطردة إلى حد بعيد، وقد لا تكون كل هذه القوانين قد كشفت بعد، ولكنها على أية حال تتم تبعا لنظام ضروري دقيق. وإذا أمكن معرفة كل العوامل الموروثة ودراسة كل شيء عن الأجيال السابقة للكائن الحي أمكن تحديد العناصر الموروثة في ذلك الكائن بكثير من الدقة أما إنتقال الثقافة فلا يتم بمثل هذه الآلية والحتمية بل هو يتم غالبا عن وعي وعن إدراك. ولا يمكن في أغلب الأحوال تحديد طريقة الانتقال هذه بدقة كاملة لأن شروطاً وعوامل لاحصر لها تتدخل في هذا الانتقال.

والعناصر الموروثة ـ في حالة وراثة الصفات الحيوية ـ تنتقل دون أن يحدث فيها تعديل أو تغيير بل دون أن يختارها من إنتقلت إليه. أما إنتقال عناصر الثقافة فهو انتقائي بمعنى أن الجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة ينتقي منها البعض ويستبعد البعض الآخر تبعا لظروفه وحاجاته. ولدينا مثل واضح لهذه الظاهرة في حالة انتقال العادات القديمة إلى الأجيال الجديدة. فالجيل الحالي في مصر مثلا لا يقبل كل

---

(١) أنظر فرانسيس ميرل، المصدر السابق، ص ١٢٢.

العادات القديمة التي شاعت لدى الأجيال السابقة لأن الكثير من هذه العادات يرجع إلى التمسك بقيم كانت محترمة ومقدرة في زمانها بين الأجيال السابقة مثل المبالغة في حب الظهور والتفاخر في الاحتفال بالزواج. وغيره من المناسبات السعيدة الأخرى. وكذلك في كثير من التقاليد الخاصة بالزيارات وتبادل الخدمات وتربية الأطفال، فإن الجيل الحالي قد وقف منها موقفاً إنتقائيا، أي غير فيها وانتقى منها ما يناسب ظروفه وأحواله[1].

ولكن يجب أن نبرز تلك الحقيقة الجوهرية وهي أنه ليس معنى الانتقاء هنا أن لنا إختيارا تاما في قبول عناصر الثقافية أو رفضها. فمما لا شك فيه أن هذه العناصر تعلو على مشيئتنا إلى حد ما. وغاية ما هنالك أن قبولنا الواعي لعناصر الثقافة يجعل لنا نوعا من القدرة على تكييفها تبعا لظروفنا والوقوف منها موقف الانتقاء لا موقف التلقي السلبي، وقد فطن ابن خلدون إلى «تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام، فقال: «وهو داء دوى شديد الخفاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة. وبذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والاوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول.»[2]

ويرى ابن خلدون أن التغير الاجتماعي انما يتم برفض عناصر ثقافة الأجيال السابقة والإبقاء على البعض الآخر (ويظهر في ذلك معنى الانتقاء الذي أشرنا اليه) وإضافة عناصر جديدة من واقع حياة الأجيال اللاحقة (الحالي منها والمستقبل). ويشرح ذلك شرحا يكاد يكون جدليا، إذ يبين تضارب العادات وتفاوتها وتركيب المتضارب والمتفاوت إذ يقول: «والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكمية: الناس على دين الملك. وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر، فلا بد من أن يفرغوا إلى عوائد

---

(١) أنظر فؤاد زكريا، الانسان والحضارة، ص ٢٧، ٣٩٣٨.
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٨.

من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فإذا جاءت دولة أخرى بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها. خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت للأولى أشد مخالفة، ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة. . [1].

٩ - الثقافة متغيرة:

والثقافة خاضعة لقانون التغير الذي تخضع له جميع مظاهر الكون. كما قال «هيرقليطس Heraclitus» إن التغير قانون الوجود، وإن الاستقرار موت وعدم. والتغير الثقافي هو كل تغير يحدث في العناصر المادية وغير المادية للثقافة. ويقصد بالعناصر المادية المباني والأثاث والأدوات والملابس والآلات ووسائل المواصلات . . . الخ. أما العناصر غير المادية أو المعنوية فيقصد بها، العادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك والفن واللغة والدين والأفكار والمعلومات. وتتغير الثقافة بما تضيفه اليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم، وأنماط سلوك، أو بالعكس بما تستبعده وتحذفه من بعض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات التي لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة وتبدأ عملية التغير أولا في العناصر المادية للثقافة، ويبدو التغير فيها بسرعة بعكس العناصر المعنوية فإنها تتبع في تغيرها العناصر المادية وبذا يتم فيها التغير ببطء شديد. ومعنى هذا أن العناصر المعنوية تتخلف عن العناصر المادية في تغيرها وتعرف هذه الظاهرة باسم «التخلف الثقافي» Cultural Lag [2]

والناس عادة لا يقبلون التغير وترك القديم إلا إذا ظهرت لهم منافع ومحاسن الجديد وامتيازه وتفوقه على القديم. وهذا يبدوا بوضوح في العناصر المادية في الثقافة أكثر بكثير منه في العناصر المعنوية. لأن العناصر المادية محسوسة وملموسه. فليس من

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(٢) مصطفى الخشاب وآخرون، **أصول علم الاجتماع**، ص ٢٥٦.

Ogburn & Nimkoff, *Sociology*, p. 886–893.

الصعب مثلا أن يدرك الناس، أن السيف أشد فتكا من العصا، وإن المدافع؛ والدبابات والمدرعات، والطائرات، والقنابل الصاروخية أسرع وأمضى وأنفع في القتال من الحراب والنبال والسيوف وأن قطع المسافة بالسيارة أسرع وأكثر توفير للراحة من قطعها على ظهور الحمير أو الجمال مثلا وأن استعمال البوتاجاز في الطهو أنظف وأسرع وأسهل من إستعمال موقد الكيروسين... الخ أي أن الناس بالنسبة للعناصر المادية في الثقافة أقل مقاومة للتغير وأكثر قبولا لها وإقبالا عليها. أما بالنسبة للعناصر المعنوية وتغيرها فالأمر عكس ذلك إذ أن الملاحظ والثابت انهم يقاومون هذا التغير ويعارضونه معارضة شديدة. والدليل على هذا الصعوبات التي اعترضت الأنبياء عندما جاءوا بأديان أسمى من الأديان التي وجدت قبل نزول الرسالة عليهم. فمن أشق الأمور على القوم أن يحاول فرد اقناعهم أن دين أبائهم أقل شأنا من الدين الجديد. وكذلك الحال في الطقوس والعرف والعادات والقيم والتقاليد المتعلقة بعواطف الناس كطقوس دفن الموتى، أو مراسيم الزواج أو الاحتفالات بالأعياد والمناسبات المختلفة فالقاعدة العامة في التغير أنه يتم بصورة أسرع وأسهل في النواحي التي لا ترتبط بالعواطف الانسانية. وإن ارتبطت فيكون إرتباطها سطحيا ـ كوسائل المواصلات مثلا، فإنها تتغير بسهولة وبسرعة لأنها لا تمس عواطف الناس مساسا كبيرا. أما العناصر المعنوية للثقافة فهي بما فيها من قوى نفسية كامنة تمس عواطف الناس العميقة الجذور، كما تمس مشاعرهم ومعتقداتهم ولذا تشتد مقاومتهم لتغييرها. إذ يستلزم التغيير في هذه الحال تغيير العواطف والمشاعر والاحساسات عندهم وهذا أمر عسير وشاق على النفس البشرية. «ولهذا السبب يعزي البطء الشديد في تغير العناصر المعنوية للثقافة، وبالتالي تفسير كيفية حدوث التخلف الثقافي».

ولا توجد ثقافة من الثقافات غير خاضعة لظاهرة التغير. وأننا حين نتحدث عن جمود بعض الثقافات (كثقافات الشعوب البدائية أو البيئات الريفية) إنما نتجاوز الدقة في التعبير. ولعل ما يفسر وقوعنا في هذا الخطأ هو أننا نتحدث غالبا عن الحاضر الذي نشهده ويحكم على مجتمع ما في فترة قصيرة من الزمن ولكننا لو أمعنا النظر وتوخينا الدقة وقارنا ثقافة المجتمع الحاضرة كما نشهدها أو كما نعيشها بما كانت عليه في عهود

مضت فإننا لابد أن نرى فروقا واضحة بين الفترتين وتغيرا في أسلوب الحياة.

فيجب إذن أن نضع في أذهاننا أننا عندما نتحدث عن جمود الثقافات البدائية أو الريفية إنما نقصد بذلك أنها أقل تغيرا وأبطأ في سرعة تغيرها بالنسبة لغيرها أي أن الجمود والتغير أمور نسبية. وما دمنا سنأخذ هذا المعنى النسبي في الاعتبار، فلا حرج إذن من الكلام عن الثقافات الجامدة والثقافات المتغيرة.

الثقافات الجامدة:

إذا حدث التغير الثقافي ببطء شديد وفي نطاق ضيق فإنه لا يدرك بسهولة وفي هذه الحالة توصف الثقافة بالاستقرار والجمود. كثقافات الشعوب البدائية أو البيئات الريفية. ويعزى الجمود في هذه المجتمعات وبطء التغير في أسلوب معيشتها إلى ظروف معينة جغرافية أو اجتماعية أو فكرية تعزلها عن الاتصال بغيرها وبالتالي تعزلها عن الاستفادة بخبرات الغير فتظل مكتفية بخبرتها الخاصة المحدودة وبذلك تعد من الشعوب الجامدة أو المتخلفة أو البدائية. وهذه العزلة إما أن تكون مفروضة على الجماعة فرضاً كما في حالة البلاد المستعمرة التي يحول الاستعمار بينها وبين مختلف أنواع التقدم. وقد تكون عزلة ذاتية، أي يفرضها المجتمع على نفسه فرضا. فهناك مجتمعات تكره كل غريب عنها، ولا ترغب في اقتباس أي شيء من الدول الأخرى حتى أنها لتجتهد أن تنفصل عن باقي العالم عن طريق فرض عقوبات صارمة على من يخالف هذا الاتجاه ويحاول الاتصال بمجتمعات أخرى للاقتباس منها. وهذا ما تفعله القبائل البدائية ذات الثقافات المقدسة (Sacred) أو شبه المقدسة حيث يعتقدون أن التقاليد المنحدرة اليهم من أسلافهم لا يجوز مساسها أو مخالفتها لأن ذلك يجلب الضرر على الجماعة المخالفة أيا كان نوعها ويؤكد العامة والريفيون عندنا ذلك بقولهم: «قطع العوايدفال» أي شؤم. بل إن من الناس من يعتقد في قوة خفية وراء التقاليد تعاقب على المخالف. ومنهم من يعتقد ان العقاب لا يقع على الشخص الخالف وحده بل يتعداه إلى أهله وعشيرته وهذا طبعا أشد وقعا وايلاما.

ففي المجتمعات المبدائية والريفية المنعزلة يكون التغير بطيئا جد أو يتم بصورة

غير ملحوظة. فكلما كانت القيم أقرب إلى الجمود صعب تغيير الأوضاع لأوضاع السائدة في المجتمع واحلال أوضاع أخرى جديدة محلها.

الثقافات المتغيرة:

اذا حدث التغير الثقافي بسرعة وفي نطاق واسع يمس كثيرا من مظاهر الحياة أمكننا أن نصف الثقافة بأنها متغيرة. كالثقافة الامريكية والثقافة الاوربية والثقافة المصرية وكثقافة المدينة بالنسبة للقرية «فالمدينة هيئة اجتماعية مفتوحة» بينما القرية هيئة اجتماعية مقفلة أو منعزلة - نسبيا. وكلما كان المجتمع مفتوحا أي على اتصال بغيره زادت سرعة التغير فيه. فمن مميزات المدينة الحديثة، كثرة الوسائل التي تسهل الاتصال وتزيد من سرعته مما يسهل انتشار الثقافة من جماعة الى أخرى ويسهل احداث التغير في المناطق التي تقتبس عناصر ثقافية جديدة فسهولة المواصلات الحديثة وسرعتها شجعت على كثرة الأسفار والسياحة والاتصال الشخصي الذي ينجم عنه إتصال فكري يكون له أثره في التغير الاجتماعي.[1] كذلك فان وسائل الاتصال الفكري ذات أثر بالغ في تغير الثقافات. فقد ساعدت الاذاعة والصحف والنشرات والمجلات والكتب والرسوم والصور والسينما والتليفزيون على تبادل الأفكار والخبرات وتغير الثقافات.

آراء «وولترباجوت»: Walter Bagehot

وفي معرض الحديث عن جمود الثقافة النسبي ونغيرها تغيرا بطيئا أو سريعا لا بد ان نشير إلى آراء «وولترباجوت»[2] الاقتصادى والاجتماعى المشهور. تلك الآراء التي وضحها في كتابه ذى العناوين «الطبيعة والسياسة» أفكار عن تطبيق مبادىء الانتخاب الطبيعي، والوراثة في المجتمع السياسي.

---

(١) Nasr, Abdul-Muizz, *Walter Bagehot*, p. 803–837.

انظر كذلك: Lundberg, Shrag ! Larsen, *Sociology*, pp. 687–692.

(2) Bagchot, Walter, *Physics and Politcs*, p. 26.

وقد أوضح في هذا الكتاب نظريته الاجتماعية ـ البيولوجية، التي تعتمد على الربط أو المزج بين مفاهيم حيوية (بيولوجية عضوية) ومفاهيم سياسية فلقد قرأ كتاب (هنرى مين) Henry Maine بعنوان «التاريخ القديم» وكان ميالا إلى اعتناق آراء «مين» الخاصة بالحالة الأولى (الأصلية) للمجتمع وكان باجوت على علم بنظريات «دارون» وكان مقتنعا بأن الانتخاب الطبيعى يلعب دوراً في تطور المجتمع الأنسانى، يعادل دوره في تطور الجنس الحيواني.

المجتمع الحديث سريع التغير:

ويرى «باجوت» أن الخصائص المميزة للعصر الحاضر تكمن في سرعة التغير ويقول: «بالتغير السريع يصبح كل شيء قديماً.» ووظيفة العلم (عن طريق البحث الدائب والتسجيل المستمر) هي أن يحول كل شيء بسرعة إلى شيء غابر (يتعلق بالماضى) بينما يتقدم الفكر باستمرار في غير استقرار. كل كل هذا يبدو في نظر «باجوت» فكر متمايزا في نسقه عن الفكر في العصور السابقة التي كانت تمتاز باستقرار (في الفكر) كبير، وهو استقرار مبنى على العادات الثابتة Unreflective Habits فالمجتمع قبل العصور التاريخية كان منظما، في شكل أسر باترياركية. وكانت قواة الدولة موجودة في سلطة الأب الأكبر. وكان السلوك آليا (أوتوماتيكيا) وتحكميا ويرى «مين» أن أصل المجتمع السياسى وجد مع الانتقال من الأسرة الباتريركية إلى التجمع المحلى كمبدأ تنظيمى. أما «باجوت» فقد رأى فكرة «مين» سطحية، وفضل عليها نظريه «دارون» القائلة بالانتخاب الطبيعى إذ رأى أنها أكثر ملائمة لتفسير انتقال المجتمع من الشكل الباترياركي الى الشكل السياسي. ويرى باجوت انه بمجرد بدء السياسة (التنظيم السياسي) لم يكن هناك صعوبة لتفسير استمرارها ودوامها. ومهما قيل ضد مبدأ الانتخاب الطبيعي في ميادين اخرى فليس هناك شك في انه كان العامل المسيطر في تاريخ البشرية الاولى فالأقوياء كانوا يقتلون الضعفاء كلما كان ذلك في استطاعتهم.

المعتقدات الدينية تؤدى إلى الاستقرار:

ويقول باجوت: «لست بحاجة إلى إثبات أن أى شكل لأى تنظيم سياسى (أيا

كان) لأفيد وأبعد أثراً من لا شيء[1]» (أي من عدم وجود تنظيم سياسى) ولقد كان أهم المشاكل الأساسية في المجتمع السياسى القديم الوصول إلى النظام والطاعة. وقد وصلوا إليها عن طريق مزج الكنيسة بالدولة، وهكذا أمكن استخدام المعتقدات الدينية لتطويع الأفراد للدولة. ويرى «باجوت» أن الهدف من هذا المزج هو خلق ما يمكن تسميته «بقرص العرف» Cake of Custom [2] فكل أفعال الناس في الحياة في نظره لا بد أن تخضع لقاعدة واحدة ولهدف واحد ـ ويعرف ذلك (بالمران الوراثى) أى التكرار Hereditary Drill الذي يعد جوهريا للاستقرار. ويحاول (باجوت) توضيح رأيه بأمثلة من التاريخ فيقول: (ويدل التاريخ القديم المسجل للآريين، على أن الأمور تطلبت وجود ملك ومجلس لحل ألوان الصراع في ذلك الوقت. أما روما واسبرطة فقد كانتا (تتمرنان) على ارستقراطيات كتب لها النجاح بسبب هذا المران وهذه الظاهرة، ظاهرة المران أو التزام النظام هي عنصر موجود في كل المجتمعات ويمتد أثرها أيضاً إلى الكتاب. فما يتوقع من الكتاب أن يكتبوه فهم يكتبونه وإلا فإنهم لا يكتبون على الاطلاق. وبينما يظن الناس أنهم يختارون ما يحبون، نجدهم في واقع الأمر محكومين بآراء الناس التي تصل اليهم والتي تملى عليهم ما يكتبون. وأما إذا كانت أفكارهم بارزة وغريبة بحيث تأبى أن تصب في القوالب (الشائعة المتعارفة) فإنهم يتركون القراءة إطلاقا» وهنا يلعب مبدأ الحذف دوره وكذلك مبدأ استعمال وعدم استعمال الأعضاء وعملية التزام النظام هذه والتقوية العرفية (أى بالعرف) للعادات التي تأخذ شكل النظام العام للمجتمع، تؤدي إلى تكوين الخلق القومي ويقول: (باجوت) إني أعتقد أن ما نسميه الخلق القومي National character قد نشأ تماما بنفس الطريقة. ففي البداية يخلق نوع من (سيطرة الصدفة) نموذجا، ثم بالجذب الذي لا يقاوم ـ أى الضرورة التي تحكم كل الناس إلا الأقوياء، ليقلدوا كل ما تقع عليه أنظارهم وأن يكونوا كما يتوقع منهم أن يكونوا بتشكل الناس حسب هذا النموذج هذه في رأيى هي عين العملية التي بوساطتها توجد ألوان من الخلق القومى

---

(1) Bagehot, Walter, *Physics and Politics*, p. 26

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨، ٢٩.

الجديد في زماننا [١] .

ويرى «جاك بارزون» Jacques Barzun أن (باجوت) اكتشف متناقضين أساسيين للحياة السياسية أولهما المتناقض الأخلاقي، الذي يتلخص في أن المصلحة العامة لا تتحقق عن طريق اتباع قواعد المصلحة الخاصة. ويقول أننا في هذا الرأي يواجه متناقضا سيكولوجيا يتلخص في أن كلا من الاستقرار والتغير متعادلان في ضرورتهما للحياة الاجتماعية على الرغم من كونهما متعارضين تماما. ولكن السؤال الذي يبرز بخصوص ذلك هو: هل في استطاعة البشر أن يكونوا في آن واحد ساكنين ونشيطين مقيدين بالعادة ومجددين [٢] الحقيقة أن الطبيعة البشرية مرنة أساساً. أما المران على القديم والعرف أو بمعنى آخر (قرص العرف) فهو يؤدى إلى تصلب المرونة الأصلية. ومن الممكن تدريب الانسان على حرفة منذ طفولته فيتقنها. ولكنه بعد أن يشب عليها لا يستطيع اتقان غيرها مهما تدرب عليها. فالعادة المكتسبة هي مصدر الاستقرار عند الانسان المحترف والمواطن. ويرى (باجوت) أن الحكم الكيس يعتمد على الاستقرار الناشيء من المحافظة على «قرص العرف».

التوتر والصراع بين القديم والحديث:

وقد رأى (باجوت) بثاقب نظره أن ديناميات المجتمع هي نتيجة التوتر الذى يحدث بين السلوك العرفي والعناصر الدخيلة التى تتصارع معه. ويقول في ذلك أن المثل يقول (كل من يتخاطب بلغتين دعي أفاق) وهذا يصور بصدق شعور الجموع البدئية عندما تؤدى الوطأة المفاجئة الأفكار وأنواع السلوك الجديدة إلى انهيار الدكتاتورية المحكمة لأي قانون مقدس، تاركة الانسان المرن الانطباعي ـ كما هو حينئذ ـ ليتبع إرادته الـ[illegible]ـة بدون إرشاد واضح من الأخلاق والدين المتوارثين. وقد أرادت الاوليجار كيات القديمة أن تحفظ نمطها كاملا، ولهذا الغرض كانت على صواب في ألا تسمح للأجانب أن يمسوا هذا النمط[٣] (بأى تغيير أوتعديل). ومن

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨، ٣٩.

(2) Bagehot, Walter, from Barzun£s Introduction, p. XIV.

(٣) المصدر نفسه، ٤٢.

هذا الأساس النظرى للتوتر بين العوامل العرفية والعوامل الدخيلة تمكن باجوت من عرض الصراع كظاهرة مركزية في النمو والبناء الاجتماعى ويضيف (باجوت) إلى ذلك قوله: من الممكن وضع ثلاثة قوانين أو ما يشبه القوانين.

الأول - في كل مرحلة معينة للعالم تميل الأمم الأشد قوة إلى السيطرة على الأمم الأخرى وفي حالات مميزة خاصة تكون تلك الأمم الأشد قوة خير الأمم.

الثاني - في كل أمة معينة يميل النمط الخلقى أو الأنماط الخلقية - الأشد جاذبية - إلى أن تسود. وتلك الأنماط الأشد جاذبية فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية هى التي نطلق عليها (الخلق الأحسن)

الثالث - في معظم الأحوال التاريخية لا تشتد أى من هاتين المنافستين بوساطة قوى خارجية ولكن في بعض الأحوال كتلك التي تسود الآن في الجزء من العالم ذى التأثير البالغ، تشتد كلتاهما إلى درجة كبيرة[1]

مفهوم الصراع عند «باجوت».

وفي معالجة (باجوت) لمفهوم الصراع، كان واضحاً كل الوضوح إذ قال: (إن تقدم الفنون العسكرية هو أشد الحقائق بروزا في تاريخ الانسانية بل إنى أكاد أقول أكثرها تألقا وبريقا [2]. وإذا ما تدبرنا قدرة البشر على القتال ونظرنا إليها ككل نجد أنها تزداد شدة على مر العصور. فكلما زادت القوة الحربية قلت الرذائل الحربية. ولا غرابة في ذلك فالمثل يقول (كل شيء مباح في الحب والكفاح) All is fair in love and war فمثلاً ظهر خطأ الاعتقاد بأن الاقامة في المدن تجعل الناس يميلون إلى الدعة والمسالمة. وفي الماضى قد كان في وسع البدائيين الوقوف أمام هجمات القدماء المتمدنين. أما الآن فأن البدائيين لا يستطيعون أبداً الصمود أمام الدول المسلحة تسليحاحديثاً. وينبئنا التاريخ بأن أقوى الأمم استطاعت أن تدحر أضعفها وأن تتسلط عليها أمداً طويلاً. ونخلص من ذلك إلى أن كل كسب فكرى - إن صح هذا

(١) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨.

التعبير - استحوذت عليه أمة من الأمم كانت تفيد منه في حروبها. ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول، أن الغزو عمل على تحسين النوع البشرى عن طريق امتزاج مختلف القوى واختلاط الشعوب بعضها ببعض. وحتى المدنيات فأنها تنمو بوساطة تجمع القوى وظهور المنافسة بينها إن الصراع بين الأمم كان منذ البداية قوة أساسية في تقدمها»[1]. ويقسم (باجوت) التاريخ الانساني إلى ثلاثة عصور كبرى:

١ - عصر العرف فيما قبل التاريخ.

٢ - عصر الحروب ونشأة الأمم الذي كانت فيه فنون الحرب القوة البنائية الأولية.

٣ - عصر المناقشة أو العلم الذي قد بنى نظاما اجتماعياً مفتوحاً للأفكار العلمية الدخيلة.

وفي أثناء علاجه لهذه الموضوعات يطرح جانباً كثيراً من الأفكار التقليدية فهو مثلاً يعارض فكرة أن التقدم من خصائص التاريخ العامة. ويرى أن اليونان والأمم الشرقية لم تعرف شيئا عن هذه الفكرة بل إن جزءاً كبيراً من البشرية عاش خارج إطار هذه الفكرة ويعارض باجوت كذلك الفكرة التقليدية التي تتلخص في أن النوع البشرى يريد أن تكون له الأصالة، ويقول: «في هذه اللحظة نفسها يعلم اتباع (كونت) الأكثر جوداً أنه يجب علينا أن نحكم بوساطة تسلسل هرمى - مزيج من الفلاسفة المتعمقين في العلم ولكن من يستطيع أن يشك في أن «كونت» كان سيشنق بوساطة نظامه الهرمى نفسه»[2].

ويمكن أن نستخلص من آراء (باجوت) السياسية - الاجتماعية، انه يعترف بقيمة الاستقرار ولكنه يسمح بالتجديد ويتركه يتصارع مع القوى المستقرة والناتج النهائي بعد هذا الصراع سواء أكان الاستقرار نفسه أو التجديد برمته أو المزيج منهما هو في اعتقاده الأصلح. هذه المعالجة الاجتماعية النفسية معالجة دينامية مبنية على

(1) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(2) المصدر نفسه، ص ٦١.

الاعتراف بالتغير الاجتماعي التغير المستمر في الحياة الاجتماعية. ومن هنا تبرز أهمية آراء «باجوت» إذا ما أردنا أن نعالج موضوع أثر الثقافة في الشخصية على أسس سليمة فلا بد أن نأخذ في الاعتبار فكرة أن الشخصية على تنمو وتتكامل وتتغير في مجتمع متغير ولكنه متكامل في الوقت نفسه. ولكن لا بد من أن نذكر تحذيراً على جانب كبير من الأهمية وهو ان هذه الأفكار مناسبة لمجتمع يتغير بسرعة وهو المجتمع الحضري والمجتمعات المفتوحة لعوامل التغير والتجديد أما المجتمعات المبسطة سواء كانت بدائية أو ريفية فأن الأمر فيها على صورة استقرارية جامدة إلى حد كبير.

ونخلص من ذلك إلى حقيقة بالغة الأهمية وهي أنه كلما تعقدت الثقافة وازدادت نسبة المدنية كان تطبيع الفرد وتربيته أمر بالغ الصعوبة لأن الفرد وتطبيعه يحدثان في جو مفعم بالصراع بين عوامل متضادة، وقيم غير ثابتة في مقاديرها أي في نسيج إجتماعي مهتز أشد الاهتزاز.

وقد أوضح أحد علماء الاجتماع تعقد الحياة الاجتماعية وأبرز حيرة الفرد فيها فكتب يقول: «إن الفرد في المجتمع المعقد يعيش وسط حياة اجتماعية مهتزة أعنف إهتزاز. فالقانون ليس رادعاً كافياً. والدين صار فكرة ولم يعد ضابطا قوياً، والشك تطرق إلى كل القيم والمثل. وأصبح ما يمارس غير ما يدرس، وتنوعت الآراء، وتعددت الاتجاهات وطغت الحضارة بمادياتها على ما كان سائداً من قيم روحية أخذت في الضعف والزوال. وقد ترتب على ذلك زيادة العبء على منظم الشخصية فأصبح عليه أن يحاول في كل موقف من المواقف اتخاذ قرار حاسم عند المفاضلة بين عنصرين أو إتجاهين متباينين أو متضادين. فالفرد دائما يسائل نفسه: أي الطرق أفضل؟ أي الأمور أسلم؟ أي الأشياء أجمل؟ أي الفروض أصوب؟ أي الكلمات أدق في نقل أفكاري؟ أي السلوك أفيد في تقوية مكانتي؟ أي الآراء أصدق؟ وهلم جرا. كل ذلك عوامل تعقد الشخصية وتعيق عملية المنظم لأن عوامل التغير كثرت وتنوعت وبدا المجتمع لبعض المفكرين معتلا[1].

---

(١) حسن الساعاتي، «التحليل الاجتماعي للشخصية»، **المجلة الجنائية القومية**، عدد (١)، مارس ١٩٥٨، ص ٧٧، ٧٨.

الفصل الرابع

تحليل الثقافة

تمهيد :

هدفنا في هذا الفصل هو تقديم تصوير سريع لعملية نمو الثقافة ، لكي نتبين كيف تنمو الثقافة وتتطور من بدايات ضئيلة صغيرة إلى أن تصبح لها مكوناتها الحالية الهائلة كما أننا نرجو من ورائه ايضاح بعض التحليلات والتصنيفات التي تضفي على مفهوم الثقافة فهما أدق وأعمق.

(ا) الثقافة المادية والثقافة غير المادية:

إن الطبيعة التراكمية للثقافة يمكن أن نلاحظها بوضوح أكثر فيما يتعلق بالثقافة المادية (التي تمثلها الأدوات والمباني على سبيل المثال)، إذ ما قورنت بالثقافة غير المادية (ويمثلها الدين وآداب السلوك على سبيل المثال).

ويلاحظ أن بعض التعريفات الاولى للثقافة لم تكن تتضمن الأشياء المادية كجزء من الثقافة. وكان ينظر إليها على أنها أساليب مكتسبة من السلوك وليس على أنها مجموعة من الأشياء لذلك فإن مفهوم الثقافة المادية لم يكن له مكان في هذه التعريفات هذا بالإضافة إلى أن الأساليب المكتسبة من السلوك والتي تستخدم في صنع الأشياء المادية وفي استعمالها كانت تشكل ظواهر سيكولوجية وغير مادية .ورغم ذلك فإن اصطلاح الثقافة المادية شاع استخدامه بعد ذلك ليعنى الأشياء التي تشكل جزءاً من التراث الاجتماعي والتراث الاجتماعي هو جزء من بيئة الإنسان بينما تشكل الطبيعة الجزء الثاني ومن هنا تصبح الأشياء المادية من التراث الاجتماعي إضافة

جديدة للبيئة. فالمنازل، على سبيل المثال، تقي ساكنيها من المطر، والثلج، والرياح. ويمكن الاحتفاظ في أي منزل بجو ربيعي دائم طوال السنة عن طريق أجهزة التكييف المختلفة في المناطق الاستوائية او الشمالية على السواء وهكذا نرى أن الثقافة المادية تشكل بيئة جديدة. تتكيف لها الظواهر الإنسانية أو فوق العضوية Superorganic كما يحلو للبعض أن يسميها مثل الحياة الأسرية والتعليم والترويح ويمكن القول بأن كثيراً من مظاهر الثقافة غير المادية ما هي إلا أشكال من التوافقات والتكيفات للأدوات والمستحدثات التكنولوجية[1].

ويمكن القول بأن الثقافة المادية هي المظهر الفيزيقي للتفاعل الإنساني بينما تمثل الثقافة غير المادية المظهر الايديولوجي أو الفكري من هذا التفاعل.

وتشمل الثقافة المادية كل ما يصنعه الإنسان في حياته وكل ما ينتجه العمل البشري من أشياء ملموسة وكذلك كل ما يحصل عليه الناس عن طريق استخدام فنونهم التكنولوجية، بينما تشمل الثقافة غير المادية مظاهر السلوك التي تتمثل في العادات والتقاليد والمثل والقيم والأفكار والمعتقدات[2].

والثقافة في تحليلها النهائي هي نموذج أو نماذج patteras من السلوك الإنساني المنظم. والتفاعل الاجتماعي هو مصدر هذا السلوك. والإنسان هو صانع ثقافته مستخدماً فكره في ذلك. وبعض المظاهر الانسانية للثقافة تبقى في المستوى السيكلوجي بينما تكون الأخرى في المستوى الفيزيقي. ونستخلص من ذلك أن هناك مستويين للثقافة الأول مادي ويتضمن كل الأشياء المادية في نسق معين بينما المستوى الثاني غير المادي أو الفكري أو الايديولوجي ويتضمن كما ذكرنا من قبل، المعاني، والقيم، والمعايير، والعلاقات. وجدير بالذكر أن هذه مستويات للثقافة وليست أنماطا مختلفة[3] وأن أساس الثقافة موجود في العقل الانساني فالأشياء المادية لا قيمة لها إذا لم يوجد العقل والمعرفة التي تستطيع استخدامها، لذلك فإن المعنى المتصل

---

(1) انظر أوجبرن ونمكوف، **المصدر السابق**، ص ٤٦.

(2) انظر أحمد أبو زيد، **البنـاء الاجتماعـي**. الجزء الأول، المفهومات ص ١٩٤

(3) انظر فرانسيس ميرل، **المصدر السابق**، ص ١٦، ١٧.

بمستويات الثقافة المختلفة هو أكثر أهمية من الأشكال الفيزيقية والنماذج الثقافية هي نماذج عقلية بالدرجة الأولى بمعنى أنها تشكل انتظامات سلوكية توجد بين الأشخاص(1).

(ب) **الثقافة الظاهرة والثقافة الضمنية** : explicit and impilicit culture

تعيش الثقافة في عقول أفراد المجتمع أو في نماذج عاداتهم، وتتجلى الثقافة من خلال سلوك الأفراد حين ينشغلون في أشكال مختلفة من السلوك.

ومن بين محاولات تحليل الثقافة لتبسيطها وإلقاء ضوء أكثر على دراستها وفهمها، تقسيمها الى ثقافة ظاهرة وثقافية ضمنية، على أساس وجود درجات لرؤية السلوك الثقافي تتراوح ما بين الأنشطة المقننة للأشخاص وبين دوافعهم الداخلية (والتي غالبا ما تكون لا شعورية) التي تجعلهم يسلكون سلوكا معينا.

ويرى «كلاكون» (Kluckhohn) أن الثقافة الظاهرة تشتمل على تلك الانتظامات في الأقوال أو الأفعال والتي تأخذ شكلا عموميا يمكن ملاحظته عن طريق الحواس وبخاصة حاستي السمع والبصر. أما الثقافة الضمنية فيذهب كلاكون إلى أنها تجريدية أي يمكن استخدامها من الدوافع الكامنة وراء السلوك.(2)

نستطيع أن نستدل مثلا على السلوك الثقافي للمراهقين من الانتظامات في ملابسهم ومحادثاتهم وآدابهم السلوكية وهذا على المستوى الظاهري أو الملموس، أما على المستوى الضمني فان الرغبة الضمنية أو الكامنة في الموافقة الاجتماعية هي الدافع الخفي، وراء السلوك الجمعي للمراهقين.

(ج) **النموذج الثقافي العالمي**: The universal culture pattern

تواجه كل المجتمعات مشكلات مشتركة عليها أن تحلها ويركز هذا

---

(1) Linton R., *The Tree of Culture*, p. 36 – 37.

(2) Kluckhohn, C., Study of Culture, Chapter 5 in Daniel Lerner and Harold D. Laswell (eds) *The Policy Sciences*, p. 88.

المفهوم الذي قدمه «كلارك ويسلر» على التشابهات اكثر بعد تأكيده على الاختلافات. والنموذج الثقافي العالمي يعني أن هناك مكونات معينة للثقافة لا تختلف فيها أي ثقافة عن الأخرى بدائية مبسطة كانت أو حديثة معقدة وهذه المكونات هي:

١ ـ اللغة.

٢ ـ السمات المادية والأشياء والمهارات المتصلة بها.

٣ ـ الفن.

٤ ـ الغيبيات والأساطير والمعرفة العلمية.

٥ ـ الممارسات الدينية.

٦ ـ الأسرة والنسق الاجتماعي.

٧ ـ الملكية.

٨ ـ الحكومة.

٩ ـ الحرب.

وتمثل هذه التقسيمات التسع حداً أدنى من الثقافة لا يمكن اختزاله وتكون ما يطلق عليه «ويسلر» النموذج الثقافي العالمي[1].

(د) تداخل العناصر المختلفة للثقافة.

إن العناصر المختلفة للثقافة وثيقة الصلة بعضها بعضا. وهي لا تعمل منفردة فالأسرة في المجتمع الحديث وثيقة الصلة بالنظام التعليمي والدين في المجتمعات البدائية وثيق الصلة بالطب. والحقيقة أن عناصر الثقافة تتشابك وتتحد لتكون نسيجا متينا. وفي الثقافات الحديثة نجد أن الأخلاق والدين يشكلان وحده وثيقة الصلة بينما كانت الأسرة والانتاج يمثلان في الماضي وحدة متينة. ويمكن أن نصور هذا التكامل والاتصال بين عناصر الثقافة وأجزائها، بالاتصال والتكامل بين أعضاء

(1) Wissler, C., *Man and Culture*, p. 74

الكائن الحي أو بين أجزاء الآلة.

(هـ) السمة الثقافية: Culture trait

هي أبسط العناصر الثقافية التي تبدو في النواحي المادية أو المعنوية كالفنية أو اللغوية أو الاجتماعية، فالمسمار والقلم وغطاء الرأس، سمات مادية أما السمات المعنوية فقد تكون كلمة أو أشارة أو فكرة أو ممارسة دينية.

(و) المركب الثقافي: Culture Complex

إن العناصر الفرعية للثقافة تتكون بدورها من روابط متشابكة وعندما تركز الصلات بين العناصر الفرعية للثقافة على سمة ثقافية بعينها يطلق عليها عندئذ المركب الثقافي. فهناك على سبيل المثال مركب «الحصان» Complex Horse وحوله تتجمع ممارسات تتصل بالركوب وصناعة عدة الحصان والحرب والزراعة وصناعة المركبات والنقل بالعربات. وعندما اتخذ الهنود الحمر الحصان كحيوان أساسي يعتمدون عليه نقلا عن الأسبان فانهم قد اتخذوا معه أيضاً مركب الحصان.

ولعل أفضل مثل وأقربه الى الأذهان في هذا الصدد «المركب» المعروف في الكتابات الانثروبولوجية باسم (مركب الماشية) Cattle Complex ويتضح في اعتماد مجموعة القبائل التي تسكن في شرق أفريقيا (أوغندا وكينيا وتنجانيقا) وفي جنوب السودان وبعض مناطق افريقيا الوسطى على الماشية، بحيث يعد رعي الأبقار هو أهم السمات المميزة لثقافة هذه الشعوب. ولقد بلغ من حب الناس للماشية وولعهم بها وبامتلاكها أن أصبحت أعداد الأبقار في معظم المناطق هناك أكثر بكثير جدا من امكانات المراعي مما أصاب الماشية ذاتها الهزال والضعف الشديد لقلة الأعشاب والحشائش التي تتخذها غذاءاً لها. ورغم ذلك فلم تثني هذه الصعوبة الناس عن الاقبال الشديد على امتلاك مزيد من الماشية، ولجوئهم في سبيل الحصول عليها إلى شن الاغارات، والحروب على القبائل المجاورة لسرقة أبقارهم وقد بلغ من أهمية الماشية في حياة الناس هناك أن منزلة الرجل الاجتماعية تقاس بعدد رؤوس الأبقار التي يملكها وأنهم ينظرون الى الشخص الذي لا يملك شيئا منها بعين الاحتقار بل أنهم لينبذونه تماما من بينهم.

وتتعدى أهمية الماشية ذلك الى كثير من مجالات الحياة الأخرى وتظهر اهميتها في أن معظم أحاديث الناس اليومية تدور حول الماشية والعشب كما أن الشبان انفسهم يتخذون منها وسيلة للتحبب إلى الفتيات. بل أن أول عمل جدي يمارسه الشبان بعد البلوغ هو الاشتراك في الاغارة على مخيمات القبائل المعادية لسرقة الأبقار ويتخذون من ذلك العمل وسيلة ليس فقط لاظهار شجاعتهم أو حتى للتقرب الى الفتيات بل أنهم ينظرون اليه أيضاً على أنه هو الخطوة الأساسية التي تؤكد عضويتهم في المجتمع القبلي وانتمائهم اليه بالفعل. كذلك تشكل الماشية في قبائل شرق أفريقيا العنصر الأساسي في المهر عند الزواج والدِّية عند القتل، كما أنها وسيلة للتهادي بين الأقارب والأصدقاء. ومن الطريف ان نجد أن كثيرا من أسماء الأشخاص عند قبيلة الناندي Nandi في كينيا، مستمدة من الماشية او من بعض صفاتها فمن الأسماء الشائعة هناك (فم العجل) أو (البقرة الحمراء) أو (الثور الأبيض) وما إلى ذلك كما أن اكبر قبيلة في بلاد الناندي هي قبيلة (موى) Moi ومعناها العجل[1].

(ز) **النموذج الثقافي**: Culture Pattern

لا توجد السمات الثقافية في حالة عزلة بعضها عن بعض، بل انها تتحد مع غيرها من السمات مكونة علاقات داخلية دينامية. ويطلق على هذا المجموع أو الجشطلت (Gestalt) من العلاقات الوظيفية الدينامية بين عناصر الثقافة وسماتها اصطلاح النموذج الثقافي[2].

ويعد النموذج الثقافي وليس السمة الفردية هو الوحدة الوظيفية الأساسية للثقافة فالفرد نادرا ما يكتسب سمات فردية منعزلة بل أنه يكتسب توقعات ثقافته وممارستها في شكل نماذج ثقافية.

ويمدنا مفهوم النماذج الثقافية برؤ ية أساسية حول أسباب اتصاف السلوك الجمعي بالانتظام والخضوع لنهج معين. والحقيقة أنه لولا ميل الثقافة لتكوين النماذج

---

(١) انظر احمد أبو زيد، المصدر السابق، ص ١٩٨ - ٢٠٠

(2) Benedict, R., *Patterns of Culture*

الثقافية لكان الانتظام في السلوك الاجتماعي أمرا مستحيلا ولسلك الأفراد في عشوائية وفوضى بما تمليه عليهم دوافعهم البيولوجية والغريزية ولأصبح المجتمع المنظم مستحيل الوجود ولا تكفى المكونات الفردية للثقافة أو السمات الثقافية سواء كانت مادية أم غير مادية في شرح أسباب الانتظام في السلوك الاجتماعي فنحن نلاحظ أن السلوك الإنساني سلوك نموذجي Patterned أي يتبع نماذج معينة إن صح التعبير. وتنتقل تلك النماذج عن طريق التعلم أو الاكتساب من جيل إلى آخر، وهو بصدد اكتساب أساليب الحياة. وتعد مجموعات العادات الاجتماعية التي يطلق عليها النماذج الثقافية هي المكونات الأساسية في المجتمع المنظم.

وفي عملية التنشئة الاجتماعية يكتسب الفرد النماذج الثقافية المناسبة مثل أساليب السلوك المتنوعة. كطعام الافطار والذهاب إلى المدرسة ولعب كرة القدم والمواعدة Dating (في المجتمعات الأوربية والأمريكية) والزواج.

ويمكن القول بأن كل مجتمع بل أن كل طبقة بصفة عامة لها مجموعة من النماذج التي تفرضها على الأفراد وبذلك تضمن حداً اذنا من التماثل في السلوك.وتعد الطرق الشعبية (العادات الاجتماعية) والسنن وغيرها من التوقعات المعيارية، جزاءات تشكل الأساس الأخلاقي لهذه النماذج وعندما يتبع أعضاء جماعة ما التوقعات الأساسية نفسها. نلاحظ في سلوكهم قدرا من التماثل، بحيث يمكن التنبؤ والتوقع من ذلك التماثل، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول أنهم يتبعون النموذج الثقافي نفسه[1].

وقد يكون النموذج الثقافي عموميا Uiniversal أي عاما شائعا في المجتمع ككل، كما قد يكون خاصا Special بقطاع معين من المجتمع. بعبارة أخرى فإن هذا النموذج قد يكون محدودا بطبقات أو مهن أو فئات معينة كالذكور والإناث. فتناول الطعام بالشوكة والسكين نموذج عمومي في المجتمع الأمريكي والأوربي، بينما تعد مقاتلة الديوك Cock-figting في البنجاب (Punjab) نموذجا ثقافيا خاصا بالرجال. ويشير «لنتون» إلى وجود ما يطلق عليه النماذج البديلة alternatives وهي أشكال مختلفة من

(1) *Honigman, John, J., Culture and Personality*, p. 24.

السلوك يمكن استخدامها في الموقف نفسه لتحقيق الهدف نفسه ويختلف عدد البدائل باختلاف المجتمعات، وجدير بالذكر أن البدائل أو النماذج البديلة يزداد عددها في الثقافات الحديثة المركبة عنها في الثقافات البدائية المبسطة ففي الثقافات الحديثة هناك على سبيل المثال الحصان والدراجة والقطار والسيارة والطيارة، كلها لتحقيق غرض واحد وهو الانتقال.

والخلاصة أن النماذج الثقافية لها مستويات مختلفة من العمومية والقهر والصدق وهي:

(أ) العموميات Universals : بمعنى أنها تصدق على أغلبية المجتمع.

(ب) الخصوصيات Specialities : وهي نماذج خاصة بقطاعات معينة من المجتمع.

(ج) البدائل Alternatives : وهي نماذج مختلفة من الاستجابة لمواقف متشابهة في المجتمع نفسه.

وإذا كانت «العموميات» هي التي تعطي المجتمع وحدته الثقافية وتعبر في الوقت نفسه عن تلك الوحدة وبذلك تعد من عوامل التكامل والتماسك في المجتمع فإن «الخصوصيات» تؤدي إلى ظهور التمايز والتغاير والتفاوت داخل نطاق المجتمع دون أن يتعارض ذلك مع التجانس الثقافي العام.

وجدير بالذكر أن (العموميات) الثقافية هي التي تعطي المجتمع تجانسه الداخلي ضد قوى التغاير التي تمثلها (الخصوصيات) الثقافية. وليس من شك في أن أية محاولة لدراسة الثقافة التي تسود أي مجتمع من المجتمعات مهما صغر حجمه ومهما بدا من تجانس ثقافته وبساطتها ينطوي على كثير من الصعوبات الناشئة عن ضرورة البحث عما تنطوي عليه السمات الثقافية العامة من (بديلات) وما يختفي تحتها من (خصوصيات) حتى يمكن فهم الثقافة في وحدتها وتكامل أجزائها فالمهم في الأمر ليس هو البحث عن السمات التي تؤلف الثقافة، والعناصر التي تدخل في تكوين كل سمة على حدة، وإنما المهم هو دراسة تكامل هذه العناصر والسمات والملامح رغم كثرتها وتعقدها. إذ مهما يكن من تعقد الثقافة وتركيبها فإنها ليست في آخر الأمر

مجرد مجموعة من الملامح المستقلة المنعزلة أحداها عن الأخرى، بل هي في الواقع كل متكامل، تأتلف فيه جميع العناصر الجزئية رغم اختلافها وتنوعها بل وتضاربها في بعض الاحيان. وكثيراً ما توجد سمات ثقافية بعينها في أكثر من مجتمع واحد، ولكن ترتيب هذه السمات وعلاقاتها بعضها ببعض يختلف في كل مجتمع عنه في المجتمعات الأخرى، مما يؤدي في النهاية إلى اختلاف صورة الثقافة أو شكلها في كل منها، أي أن تشكيل الثقافة يتوقف إلى حد كبير على ترتيب هذه السمات داخل المجتمع وفقا لمبدأ معين أو عدد من المبادىء، أو أنساق القيم السائدة هناك[1].

(ح) الثقافة والنظم الاجتماعية:

أهمية السلوك والنظم:

سبق أن تعرضنا لمناقشة فكرة أن الثقافة تقوم على إشباع الفرد لحاجاته الأساسية وعلى كفاحه المستمر لحل ما ينشأ عن هذه الحاجات الأساسية من توترات ومشاكل أو بعبارة أخرى ما ينشأ عنها وما يشتق منها من حاجات جديدة أي حاجات ثقافية يخلقها المجتمع. وقد اقتبسنا آراء أربعة من العلماء، هم ابن خلدون ولنتن ومالينفسكي وسمنر، واتضح أنها كلها تتفق على أن الفرد في كفاحه لكي يشبع حاجاته المختلفة من تغذية وملبس وأسكان وتدفئة . . الخ مضطر إلى القيام بألوان مختلفة من النشاط وبتنظيمات خاصة تلزمه وتحتم عليه أن يتعاون مع غيره. فالتعاون إذن جوهر كل ثقافة وفي هذا المعنى يقول «مالينفسكى» (أن أهم حقيقة عن الثقافة كما نعيشها ونخبرها ونلاحظها ملاحظة علمية، هي تنظيم الناس في جماعات دائمة. وهذه الجماعات ترتبط بنوع ما من الاتفاق، أو بقانون التقاليد أو بالعرف أو ما يقابل العقد الاجتماعي في نظر روسو Rousseau's Contrat Social فدائما أبدا نراهم متعاونين في حدود إمكانية خاصة، في جزء معين من البيئة يخصهم ويستعملون أدوات وأجهزة خاصة ولهم حق في قدر من الثروة. وفي تعاونهم هذا يتبعون القوانين والقواعد التكنولوجية الخاصة بمراكزهم أو تجارتهم ويراعون قواعد وآداب السلوك الاجتماعية

---

(١) انظر أحمد أبو زيد، المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

Piddington R., *An Introduction to Social Anthropology*, pp. 14–17.

ويحترمون الدين والتقاليد والقانون، ويتمسكون بالعرف وبكل ما يكون سلوكهم[1].

الجماعات المنظمة ضرورة ثقافية:

إن كل فرد منا يولد في أسرة لها دين وفي مجموعة من المعارف وينتمي غالبا إلى نظام طبقي معين ويتأثر بنظام اقتصادي وسياسي معينين وكلها وجدت من أجيال مضت ويندر أن تتغير. ولو تتبعنا حياتنا اليومية لثبت أن في كل مكان وفي كل عمل هادف لا يستطيع الفرد اشباع حاجاته وتحقيق رغباته وميوله الا داخل جماعات منظمة وعن طريق ألوان من النشاط المنظم. فالفرد يذهب للنوم ويستيقظ سواء أكان في منزله او في مدرسة داخلية أو في معسكر أو في مؤسسة أو في دير أو في ملجأ. وكل من هذه الهيئات تمثل مجموعة من ألوان النشاط التي ترتبط بعضها ببعض وبها الخدمات تعطى وتؤخذ وفيها مأوى مادي يتوافر فيه أقل ما يمكن أو أكثر ما يمكن من مقومات الراحة، كما أن ادارة كل منها تتطلب قدرا من التكاليف لا بد أن يدفع ويحتاج الى مجموعة منظمة من الناس لتدبره وله مجموعة من القوانين يجب على كل فرد أن يطيعها وأن يخضع لها.

وتنظيم أي من هذه المؤسسات أو الهيئات سواء كانت اسرية أو سكنية أو اصلاحية لا بد أن يقوم على قانون دستوري أو على مجموعة من القيم والاتفاقات كما أن كلا منها يشبع مجموعة من الحاجات للأفراد الذين ينتمون لها وللمجتمع عامة. وإذا تتبعنا الشخص خارج بيته نجد أنه في كل حالة، يقوم بألوان من النشاط متوقفة على علاقاته بأعمال تجارية أو صناعية أو بمدرسة مثلا أو بمعهد ديني او هيئة سياسية أو بمنظمة ترفيهية. وهو في هذه المنظمات يكون إما خادما أو مخدوما إما رئيسا أو مرؤوسا. وخلاصة القول أننا اذا تتبعنا السلوك اليومي لأي فرد ذكرا كان أو انثى، صغيرا أو كبيرا سليما أو مريضاً، لوجدنا ان كل أوجه حياته لا بد ان تكون مرتبطة بأحد هذه التنظيمات التي لو نظرنا اليها متجمعة ومتكتلة ومتداخلة مترابطة لكانت

---

(١) ماليفسكي، المصدر السابق، ص ٤٣.

هي الثقافة نفسها. ففي المنزل وفي العمل وفي المسكن وفي النادي وفي المستشفى وفي المسجد أو الكنيسة.. في كل هذه نجد مكانا وجماعة ومجموعة قوانين او قواعد أو أصول مدونة أو غير مدونة كما نجد ميثاقا ووظيفة (A charter and function) والميثاق هو فكرة المنظمة كما يعتنقها اعضاؤ ها وتحددها الجماعة، أما الوظيفة فهي الدور، دور المنظمة في هيكل الثقافة الكلي كما يحدده الباحث السوسيولوجي سواء في الثقافات الهمجية (البدائية) أو التمدنية[1].

ويجدر بنا أن نلخص ما سبق في أن التراث الثقافي وما سيلزمه من نشاط متنوع وتعامل بين الأفراد انما يتم عن طريق انواع من التنظيم والتنسيق تنشأ تلقائيا أو عن قصد لتأمين الرغبات الأساسية والحاجات الأولية الضرورية فضلا عن انها تمد الأفراد بالأصول والقواعد والمبادىء العامة التي يجب أن تقوم عليها معاملاتهم بعضهم مع بعض. وهذه الأصول والقواعد والمبادىء العامة لا تلبث أن تتبلور وترسخ في كيان المجتمع وتكوينه وتثبت ثبوتا نسبيا وتصبح قوانين ودساتير وشرائع مدونة أو معتقدات محفوظة في العقول والصدور، وطقوس مقدسة أو أحكام فرعية. ومجموعة الشرائع والأحكام هذه التي يخضع لها الأفراد والجماعات في مختلف مظاهر النشاط الاجتماعي تعرف بالنظم الاجتماعية. Social Institution.

النظم الاجتماعية Social Institutions

تعريفها: جاء في كثير من الكتب والمقالات المعنية بدراسة الثقافة والتنظيم تعاريف كثيرة للنظم الاجتماعية. ويختلف كل تعريف عن الآخر في تحديد مفهوم النظم الاجتماعية تبعا لوجهة النظر التي ينظر اليها منها. فيعرفها Kardiner بأنها الوسائل التي تؤثر بها الجماعة على الأفراد أي القواعد التي بمقتضاها تسير الجماعة الفرد وفق النماذج التي تراها أما «ميد» G Mead فيقول «ان النظم ليست إلا نماذج منظمة للسلوك.. توجه أعمالنا ومواقفنا.» «ويعرفها لبرج» بأنها ليست في الغالب إلا التنظيم الرسمي أو الشكلي للنماذج الاجتماعية» وقريب من هذا ما ذهب اليه Hauriou الفرنسي من أن «النظام الاجتماعي ليس إلا فكرة أو مشروعا لعمل، يتحقق

(١) المصدر نفسه، ص ٤٦، ٤٧، ٤٨.

ويستمر في وسط اجتماعي منتجا نتائج قانونية ويعرف «دور كايم»، و «موس» Mauss و «فوكونيه» النظم بأنها جميع طرق التفكير والعمل القائمة قبل الفرد Préetabliés والتي ليس عليه إلا الخضوع لها. وهذه الطرق تنتقل إلى الفرد عادة عن طريق التعليم[1].

وإذا أمعنا النظر في هذه التعاريف المختلفة نجد أن عددا منها قد اتفق ضمنا أو تعبيرا على ابراز بعض خصائص النظم الاجتماعية. ولعل من أحسن التعاريف التي وضعت للنظم الاجتماعية تعريف J. O. Hertzler لأنه تعريف شامل يعكس مكان النظم الاجتماعية في محيط الظواهر الاجتماعية ويبرز طبيعتها كشكل خاص للظواهر الاجتماعية ويبين وظيفتها الاجتماعية ومكوناتها. فهو يرى أن النظم الاجتماعية «كليات ثقافية أساسية منظمة وهادفة، تتكون لا شعوريا أو عن قصد، لتشبع رغبات الأفراد وحاجاتهم الاجتماعية المرتبطة بالتعامل الناجح بين أي مجموعة من الناس - وتتكون من قوانين، وقواعد ومثل عليا مدونة وغير مدونة ومن الأدوات اللازمة والوسائل التنظيمية والرمزية والمادية. وتحقق نفسها، اجتماعيا، في الممارسات الموحدة المقننة والمرعيات، وفرديا في الاتجاهات والسلوك التعودي للأفراد. ويقوم الرأي العام على دعمها وتنفيذها بصفة رسمية وغير رسمية عن طريق الهيئات الخاصة التي ترعاها[2].

ويرى «مالينفسكي» أن أحسن وصف لأي ثقافة، وصفا مبنيا على الحقيقة الملموسة، يجب أن يقوم على معرفة نظمها الاجتماعية وتحليل هذه النظم التي تنتظم فيها هذه الثقافة[3].

النظم الأجتماعية الرئيسية:

هناك نظم إجتماعية رئيسية تعتبر المقومات الأساسية لأي ثقافة، بدائية كانت أو

---

(١) كل هذه التعاريف نقلا عن حسن سعفان، **أسس علم الاجتماع**، ص ٦٣.

(2) Hertzeler, J. O., *Social Institution*, p. 4

(٣) مالينفسكي، **المصدر السابق**، ص ٤٩.

متمدينة. وتتشعب هذه النظم إلى ما يأتي:

١ - النظم الأسرية:

وهي ما تتصل بالأسرة من حيث تكوينها ونطاقها ووظائفها وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض، وأنواع الحقوق والواجبات بينهم ومحور القرابة وطقوس الزواج والطلاق والحضانة والكفالة وشئون الميراث.

٢ - النظم التربوية:

وهي ما تتصل بتنشئة الأطفال ونقل التراث الثقافي من جيل إلى جيل ووضع أساليب ومناهج إعداد الفرد وتنشئته ليتمثل نظم المجتمع ويتكيف وفق أساليبه في التفكير والعمل

٣ - النظم الدينية:

وهي ما تتصل بالنماذج الدينية والسحرية وما يتعلق بها من فكرة الأفراد عن الخالق والمخلوق والصلة بين العالم الذي يعيش فيه الإنسان وعالم الغيب وكذا فكرتهم عن الروح والنفس والأساطير الدينية. . . إلخ.

٤ - النظم الأخلاقية:

وهي مجموعة العادات والتقاليد المرعية والمفاهيم الخلقية وتشمل العرف السائد والأساطير والأمثلة السائرة والعادات المتبعة في الأعياد وحفلات الزواج والميلاد والتعميد والختان Circumcision وغير ذلك من العادات المتعلقة بالترفيه وقضاء أوقات الفراغ.

٥ - النظم الجمالية والفنية:

وهي ما تتعلق بمعايير الفن والذوق والجمال عند القوم. وتتمثل في النقش والرسم والرقص والموسيقى والأدب وما إلى ذلك من أنواع الفنون الجميلة.

٦ - النظم اللغوية:

وهي ما تتعلق بنماذج التفاهم والاتصال بين أفراد المجتمع والتعبير عما يجول في

خواطرهم كالحركات والإشارات، واللغة والكتابة وغيرها من الوسائل المستخدمة لنقل المعاني والأفكار من شخص إلى آخر.

٧ ـ النظم الاقتصادية:

وهي ما تتصل بالقواعد التي يسير عليها المجتمع في شئون إنتاجه وتبادل وتوزيع ثرواته واستهلاك منتجاته وتشريعات عماله. . . إلخ.

٨ ـ النظم القانونية:

وهي ما تتصل بالقواعد والقوانين التي يلتزمها المجتمع في تحديد معاملات الأفراد بعضهم مع بعض في الأمور المدنية والتجارية وفي توقيع الجزاءات وتفسير المسئوليات والتشريعات.

٩ ـ النظم السياسية:

وهي ما تتصل بتنظيم شئون الحكم وأسسه وتقسيم السلطات، وتنظيم علاقة الهيئة الحاكمة بالفرد والمجتمعات الأخرى. . . إلخ.

الثقافة كل مركب Complex من النظم:

مما سبق نرى أن البناء الثقافي يتكون من جهاز منسق منظم من النظم الأجتماعية الرئيسية التي تمثل نواحي الحياة المختلفة وأن كلا من هذه النظم الرئيسية يتبعه عدد عديد من النظم الفرعية كالهيئات والجمعيات والمؤسسات. إلى آخره. وكل هذه النظم الفرعية وما يرتبط بها من جماعات الناس تخدم النظم الأجتماعية الرئيسية وما ترسمه هذه النظم من أنماط ثقافية يعيش وفقها الأفراد كما تخدم وتباشر ما ترعاه من مواضعات وقواعد وأفكار وعادات وتقاليد وقيم. وكل هذه الأنظمة متجمعة تكون الثقافة. ولا بد أن نؤكد هنا أن الثقافة ليست مجرد مجموعة من النظم المتراصه المتجمعة فإذا نحن حللناها إلى مقوماتها فإنما نلجأ لذلك بقصد الدراسة وزياده الإيضاح. لذلك يجب أن نضع في أذهاننا دائما فكرة أن الثقافة «كل مركب» متصل الأجزاء. ففي كل مجتمع نجد أن النظم الاجتماعية الرئيسية منها والفرعية وما يتصل بها من أنماط السلوك والتفكير تنسق في مجموعة ثقافية واحدة أو إطار ثقافي واحد

تنسجم أجزاؤه بعضها مع بعض. وهذا هو ما يسميه العلماء باسم التضريس الثقافي (Culture Configuration) فالنظم والعادات والأنماط الاجتماعية إذ تكون مجموعة مرتبطة لكي يتألف منها بناء إجتماعي إنما تكون أشبه شيء بالبيئة التضاريسية حيث نجد السهول والجبال والمنخفضات والهضاب والأنهار تكون مجموعة تضاريسية مترابطة. ونجد أن أجزاء التضريس الثقافي يسودها نوع من الانسجام يؤلف بينها. وهذا الانسجام قد يكون كاملا تاما أو غير كامل حسب الظروف المحيطة بالمجتمع. لكن لا بد من وجود قسط من هذا الانسجام كحد أدنى وكشرط أساسي لاستمرار الحياة الاجتماعية. وهذا الانسجام هو ما نسميه باسم «التكامل الثقافي» Culture Integration وفقدان التكامل الثقافي يؤدي بالنسبة للأفراد إلى الاضطراب والفوضى وإلى مشكلات نفسية واجتماعية وإلى أنواع من الصراع التي قد تحول بين الجماعة وتطورها تطورا سويا.

والتكامل الثقافي يعني كذلك أننا لا يمكن أن نفهم أي نظام اجتماعي فهما تاما إلا إذا ربطنا بينه وبين النظم الأخرى في المجتمع فهي تؤثر بعضها في بعض وتتأثر بعضها ببعض وعناصرها دائمة التداخل والترابط والتفاعل المستمر المتبادل. فالنظم الدينية مثلا لا تكون دراستها وافية إذا عزلناها عن نظم الحكم السائدة والأوضاع المتعلقة بالأخلاق والأسرة والثقافة وغير ذلك. كذلك نظام الأسرة يتأثر تأثرا كبيرا بالنظم القضائية والاقتصادية والدينية. فهو متداخل مع القانون في شكل دراسة عقد الزواج وما يترتب عليه من حقوق والتزامات. ومتداخل أيضا مع الاقتصاد حين نتعرض للمستوى المعيشي للأسرة وميزانية الدخل والإنفاق والعلاقات المادية بين أفرادها. . الخ أما التداخل مع النظم الدينية فمستمد من أن الرابطة الزوجية لها طابع قدسي تحرص الأديان عليه. كذلك نلاحظ أن نظام الأسرة لا يمكن أن ندرسه ولا أن نفهمه على حقيقته، إذا عزلناه عن العادات السائدة والعرف والتقاليد بما يتمثل في مقدمات الخطبة وما يلازم المراسيم الزواجية من تقديم هدايا، وإقامة حفلات. . . الخ. هذا فضلا عن ارتباط ذلك بالمعايير الفنية والجمالية، مما يظهر جليا في إجراءات اختيار الأثاث والأزياء. . . الخ.

ومما سبق يتضح أن الارتباط والتعاون والتداخل بين النظم الاجتماعية على درجة

من القوة بحيث يتعذر أحيانا أن نفصل بين مجالاتها وتخصصاتها وأهدافها ووظائفها فكثيرا ما تشترك هذه الأنظمة الاجتماعية في تحقيق غاية واحدة.

أهمية النظم الاجتماعية:

يتفق معظم العلماء على الأهمية البالغة لدراسة النظم الاجتماعية في فهم ثقافات الشعوب حتى أن بعضهم قد عرف علم الاجتماع «بأنه العلم الذي يدرس النظم الاجتماعية»[1]. فالنظم، كما سبق أن أشرنا ضرورة إجتماعية. فلكي يعيش الناس في مجتمع لا بد أن يلتزموا بقواعد معينة وأن يسيروا في نظم خاصة في شئونهم التربوية والأخلاقية والعائلية والاقتصادية.. الخ كذلك يجب أن تكون لهم لغة مميزة يتفاهمون بها وأن يخضعوا لأساليب محددة فيما يتعلق بحياتهم الدينية والسياسية. ودراسة النظم الاجتماعية إذن هي التي توقفنا على فهم الثقافة وأسلوب الحياة في أي مجتمع من المجتمعات وذلك لأنها تعتبر المقومات الأساسية لتقنين النشاط الاجتماعي والفردي بمختلف صوره وأشكاله فهي التي تعمل على تشكيل سلوك الأفراد والجماعات وتضعه في قوالب ضابطة ونماذج رتيبة تسهل الاتصال والتعامل بين من يعيشون في مجتمع من المجتمعات. وهي التي تؤثر في أفكار الأفراد ومعلوماتهم ومهاراتهم وخبراتهم ودوافعهم واتجاهاتهم وقيمهم لأنها تحملهم على تكييف سلوكهم وفقا لمقتضياتها بما تقدمه لهم من سبل تطمينهم على إشباع حاجاتهم الضرورية. والنظم هي الهادي والمرشد الذي يرشد الفرد إلى ما يجب عليه اتباعه، وما يتحتم عليه تجنبه والابتعاد عنه. وهي التي تنقل إليه التراث الثقافي وتطبعه بالطابع الثقافي المميز للمجتمع الذي يعيش فيه. ولذلك يصدق عليها قول هرتزلر Hertzler أنها (حاملات ثقافة المجتمع) وأنها (أسس الضبط الاجتماعي) والحصون أو القلاع التي (تحفظ القيم، وتحمي التراث الثقافي بما لها من قدرة عجيبة على مقاومة التغير)[2].

---

(١) أحمد الخشاب، دراسات في النظم الاجتماعية. ص ١٠.

(٢) هرتزلر، المصدر السابق. ص ٤٦، ٤٧.

النظم الاجتماعية والعقل الجمعي:

ولعل ما ينسبه «هرتزلر» إلى النظم الاجتماعية، من أنها تحفظ القيم وتحمي التراث الثقافي بما لها من قدرة عجيبة على مقاومة التغير، يمكن تفسيره برأي «دور كايم» في أن النظم الاجتماعية ذات خاصية اجبارية الزامية (Coercitive – obligatior)[1]، أي أنها تفرض نفسها على الأفراد وتجبرهم على طاعتها، وتستطيع أن تؤثر على العقول الفردية تأثيرا إلزاميا وهذه الخاصة الإلزامية الإجبارية مستمدة من المجتمع ممثلا في العقل الجمعي. فالعقل الجمعي في نظر «دور كايم» مصدر كل الوقائع أو الظواهر الاجتماعية. والنظم الاجتماعية ما هي إلا «نماذج للتفكير والعمل» يرسمها العقل الجمعي لكي يسير عليها الأفراد وهي قوالب يصب الأفراد فيها سلوكهم وأعمالهم. وهي ليست من صنع الأفراد ولا من صنع فرد ولكنها من صنع المجتمع. فهي وقائع جمدت وتبلورت واستقرت في شكل نماذج انتقلت إلينا من الأجيال السالفة التي أسهمت في إنشائها وتطورها. ولما كانت هذه النظم من صنع المجتمع فهي إذن مشتقة من العقل الجمعي الذي تعلو سلطته على سلطة الأفراد. ولذلك يتحتم على الأفراد أن يطيعوها أو يحترموها. وكل من يحاول أن يخالفها فإنه يقابل بمقاومة مادية أو معنوية تختلف في شدتها ودرجتها حسب نوع المخالفة وظروفها وفي هذا يقول «دوركايم». فلو حاولت أن أخالف قواعد القانون فإن هذه القواعد تقاوم محاولتي وتسعى لمنع عملي قبل أن يقع. أو لإبطاله ورده إلى شكله السوي، إن وقع وكان من الممكن إصلاحه أو لأن أكفر عنه إن لم يمكن سوى التفكير عنه. أما إن كان الموضوع قواعد الأخلاق فقط فإن الضمير العام يهيمن على كل فعل يريد أن يمسه بسوء وذلك برقابته على سلوك المواطنين وبالجزاء المتنوع الذي يعده للمخالف. وقد يكون الإلزام أحيانا ضعيف الوطأة ولكنه مع ذلك موجود. فإذا خرجت مثلا على ما تواضع الناس عليه فلبست من الثياب ما راق لي، دون أن أراعي الملابس المألوفة في البلاد والمتعارف عليها في الطبقة التي أنتسب لها فإن الضحك الذي أستهدفه والسخرية التي أقابل بها من الناس نوع من أنواع الجزاء ولو كان خفيفا. ويكون الإلزام في بعض الأحيان غير مباشر ومع ذلك فليس أثره بأقل من أثر الإلزام المباشر. أنا لست

(١) أحمد الخشاب، **المصدر السابق**، ص ١٩

ملزمًا باستعمال اللغة الفرنسية لمخاطبة أبناء بلادي، ولا أنا ملزم باستعمال النقود الرسمية إلا أنه يتعذر على أن أفعل غير ذلك. ولو حاولت أن أخرج على هذه الضرورة لفشلت محاولتي فشلا ذريعا. . فهذه كلها أمور تتصف بصفات خاصة جدا وهي أنها أنواع من الأعمال والتفكير والمشاعر خارجة عن الفرد ولكنها ذات قوة ضاغطة تفرض بها نفسها عليه[1]». ومما يجدر ذكره أن هذه القوة الضاغطة الملزمة في النظم الاجتماعية تظل في حالة كمون طالما يسير الأفراد في سلوكهم وفقا لمقتضياتها ولكنها تنشط وتصبح فعالة وتثبت وجودها كلما حاول الفرد أن يخرج على القواعد التي رسمتها. ولا يشعر الأفراد عادة بما للنظم الاجتماعية من قوة إلزامية. ذلك لأنهم ينشئون منذ ولادتهم على القواعد والتقاليد والقيم التي ترسمها ومن ثم تصبح طبيعيا بالنسبة لهم، مثلها في ذلك مثل الضغط الجوي الذي يتحمله الأفراد دون أن يشعروا به لأنهم تعودوه. وفي هذا يقول «دور كايم» في نفس الوقت الذي نجد فيه ان النظم الاجتماعية مفروضة علينا نجد انفسنا متمسكين بها فهي تلزمنا وفي نفس الوقت نجد راحتنا في إطاعتها[2].

وإذا بحثنا في هذه النظم الاجتماعية لاتضح لنا أن الفرد لا يمكن أن يكون مصدرها لأنها نتاج النشاط الاجتماعي للأجيال السابقة مضاف إليه النشاط الاجتماعي للجيل الحالي ولذلك فإن الفرد لا يمكنه أن يغير منها مهما أوتي من قوة عبقرية إلا إذا كان في ذلك معبرا عن رأي المجتمع متمثلا في العقل الجمعي. فالعقل الجمعي - لا العقل الفردي هو أساس التطور الاجتماعي وله في نظر (دور كايم) تفوق على العقل الفردي. كما أنه أكثر تفوقا عليه في الناحية الأخلاقية. ولذلك يتمتع العقل الجمعي والمجتمع باحترام وتقديس كبيرين. والحق أن العقل الفردي مدين للمجتمع أو للعقل الجمعي من حيث مضمونه وشكله. وخلاصة القول أن العقل الجمعي هو القائد الأعلى والأمر المطاع الذي يحتذي الأفراد ما يرسمه من قواعد وما يضعه من نماذج. فهو العقل الذي يسود الجماعة ويسيرها ويسيطر عليها. وهو ليس مجرد

(١) محمود قاسم، **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، ترجمة عن الفرنسية لاميل دور كايم، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) حسن شحاته سعفان، **المصدر السابق**، ص ١٦٨.

حاصل جمع عقول الأفراد بل هو مركب منها ونتاج تفاعلها واتحادها واندماجها وتأثيرها المتبادل بعضها في بعض مثله في ذلك مثل ما يحدث في العلوم الكيميائية عندما تتفاعل عدة مواد مختلفة وينتج عن تفاعلها مركب جديد له صفات جديدة خاصة به تختلف كل الاختلاف عن صفات العناصر التي تكون منها. وفي هذا يقول «دور كايم» . . ذلك أن نفوس الأفراد حين تتداخل وتشتبك وتمتزج تولد كيانا من نوع نفسي إذا فضل هذا الوصف ولكنه نوع نفسي جديد متميز خاص . . إن الجماعة تفكر وتحس وتعمل خلافا لما قد يفكر فيه الأشخاص ويحسونه ويعملونه لو كانوا منفردين.

العقل الجمعي والتصورات الفردية والجمعية:

إن نظرية «دور كايم» في العقل الجمعي تقوم على أساس التمييز بين ما يسميه بالتصورات الفردية Representations Individuelles والتصورات الجمعية Representations Collectives فهو لا يرى ضرورة لذلك الفرض الذي يتلخص في أن هناك روحا أو مادة يقوم عليها المجتمع ولكنه يرى أن الحياة العقلية تتكون من تيار من التصورات بعضها فردي وبعضها جمعي.

التصورات الفردية

فاما الأساس الأولى للتصورات الفردية فيوجد في المشاعر التي تنتج عن تفاعل كثير من خلايا المخ. ولكن ما ينتج عن هذا التفاعل هو شيء جديد هو مركب ذو صفات خاصة به، مركب تتغير فيه العناصر بالضرورة بسبب امتزاجها ويضيف «دور كايم» ان كل نوع من هذه المشاعر ليس نتاجا لخلية مفردة بل نتاج عدة خلايا في تفاعل متبادل. والمشاعر الناتجة تمتزج لتكون الصور (Images) وهذه الصور بدورها تمتزج لتكون التصورات الفردية.

التصورات الجمعية:

وكما أن التصورات الفردية تقوم على الصلة المتبادلة بين عدة خلايا متنوعة فكذلك تقوم التصورات الجمعية على تجمع الأفراد في المجتمع وارتباطهم بعضهم ببعض. وهكذا تكون هذه التصورات الجمعية «ضميرا جمعيا». وهو مركب ذو

صفات خاصة ينتج عن طريق مزج الضمائر الفردية واتحادها في النهاية أي عن طريق مزج أو تركيب التصورات الفردية ويرى «دور كايم» ان التصورات الجمعية هي أعظم شكل للحياة النفسية حيث أنها تصور التصورات. ويضيف إلى ذلك قوله ان المجتمع «هو أعظم واقع للحياة الفكرية والأخلاقية» كما يقول: «ان التصورات الجمعية هي نتاج تعاون هائل يمتد وليس فقط في المكان (الفضاء) بل في الزمان أيضا. أنه عقول جديدة قد تجمعت ووحدت وألفت بين الأفكار والعواطف بينما جمعت الأجيال الطوال لها (للعقول) خبرتها ومعرفتها ولذلك تركز فيها نشاط فكري خاص. وهو نشاط نجده دائما أغنى وأكثر تعقيدا من نشاط الفرد»[١].

ويرى «دور كايم» أن للتصورات الجمعية خصائص معينة تميزها. فهي خارجة عن الشعور الفردي. فالعلم مثلا نتاج لتعاون على نطاق عظيم الاتساع وهو يفوق أي شيء يمكن أن يحفظه أي عقل فردي. والأفكار الدينية تأتي إلى الفرد من الخارج ولها استقلال خاص. وبالمثل الحركات الاجتماعية والأحداث التي تكون عاملا فعالا في إيجاد بعض الظواهر الاجتماعية السوية منها والمعتقلة كل ذلك خارج عن الشعور الفردي. هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أن التصورات الجمعية تختلف في النوع عن التصورات الفردية. فالجماعة، تفكر وتسلك، وتشعر بشكل يختلف تمام الاختلاف عن أفرادها إذا كانوا منفردين[٢] فالتجمع يؤدي إلى إنتاج كائن جديد. وهو عبارة عن فردية نفسية ذات خصائص تميزها وذات تصورات لها مضمون يختلف عن مضمون التصورات الفردية. وفضلا عن ذلك فإن كل جماعة لها أشكالها المميزة لها، من عادات وحاجات تختلف تبعا لعدد أفرادها ولاستعداداتهم.

والواقع أنه من الصعب أن نحصل من (دور كايم) على جملة توضح لنا بدقة مكونات أو مضمون التصورات الفردية. ويبدو أنها تتكون من الخبرات المتعلقة بجسم الفرد. ذلك لأنه فيما عدا ذلك (أي فيما عدا جسم الإنسان) فإن الفرد مدين بكل شيء للبيئة الاجتماعية.

---

(1) Ginsberg, Morris, *The Psychology of Society*, p. 55

(٢) المصدر السابق، صفحة ٥٦.

الباب الثاني

الشخصية

الفصل الخامس

تعريف الشخصية

تمهيد:

يعد مفهوم الشخصية من أكثر مفاهيم علم النفس تعقدا وتركيبا، فهو يشمل كافة الصفات الجسيمة والعقلية والوجدانية، في تفاعلها بعضها البعض، وفي تكاملها في شخص معين يتفاعل مع بيئة إجتماعية معينة. ولهذا تعددت الآراء وتباينت المحاولات التي تعالج مفهوم الشخصية، وطبيعتها، وخصائصها، واختلفت تعاريفها اختلافا كبيراً، فمن التعاريف ما يتناول الشخصية كما يراها الغير، فتصف الأثر الذي تتركه مجموعة الصفات الجسمية والعقلية، والوجدانية للشخص في الآخرين. ومن التعاريف ما يتناول الشخصية كما يحسها ويتصورها الفرد نفسه، وتدور حول شعور الشخص بذاتيته ووحدته.

وقبل أن نتعرض لدراسة الشخصية ينبغي أن نحاول تحديد المعنى العلمي لهذه الكلمة، خاصة وأن استعمالها في الأحاديث العادية من المرونة بحيث يحتمل أكثر من معنى واحد. هذا وللشخصية عند العامة مفهوم يختلف عن مفهومها عند العلماء فقد تعود الناس خطأ أن يقولوا عن «س» من الناس أنه ليست له شخصية. وعن «ص» من الناس أن له شخصية. ومعنى هذا في نظرهم أن الشخصية شيء موجود عند الأفراد ومفقود عند البعض الآخر. والحقيقة العلمية أن لكل إنسان (يعيش في المجتمع) شخصيته الخاصة به، غير أن الناس يختلفون في نوع هذه الشخصية وليس في وجودها أو عدمها.

والأصل في كلمة شخصية personality أنها مشتقة من لفظ لاتيني persona [١] ومعناه القناع، أو الوجه المستعار الذي يظهر به الشخص أمام الغير. وكان إستعمال هذا اللفظ مرتبطا بالتمثيل المسرحي حيث يبدو الشخص للغير عن طريق ما يأتيه من حديث وحركات ظاهرة.

والغرض من إستعمال هذا القناع هو تشخيص خلق الشخص الذي يقوم بدور من أدوار المسرحية، فهو بمثابة عنوان عن طباع الشخص ومزاجه الخلقي، ويشمل هذا المعنى الممثل والدور الذي يقوم به أو الصفة الظاهرة (الوجه المستعار) والصفة الطبيعية (الممثل). وربما كان ذلك على أساس أن «الدنيا مسرح كبير، وأن الناس جميعاً ليسوا إلا ممثلين على مسرح الحياة[٢]».

أما في اللغة العربية فإن كلمة «شخص» تعنى نظر إلى، أو حضر أمام. وشخص بمعنى عين، عندما نقول الطبيب شخص المرض كما نقول شخص الدور بمعنى مثله، ومشخص بمعنى مجسم، ويحمل تعبير الشخصية معان متعددة. فهو مفهوم معقد متغير، يصعب على الباحثين فيه أن يتوصلوا إلى إطار ثابت ينتظم جميع مقوماته، أن يتفقوا على تعريف ثابت له. ولهذا إختلفت وجهات نظر العلماء الذين يتناولون بالبحث موضوع الشخصية وتنوعت تفسيراتهم، وتباينت طرق دراستهم لها. وقد أحصى العالم (ألبورت Allport) أكثر من خمسين تعريفا للشخصية في اللغات الأجنبية بعضها لاهوتي، وبعضها فلسفي، وبعضها اجتماعي، وبعضها سيكلوجي[٣]. ولعل التعاريف التي وصفت بها الشخصية أكثر من هذا العدد بكثير.

محاولات لتعريف الشخصية:

سنستعرض فيما يلي بعض تعاريف الشخصية، فنبدأ بمفهوم الشخصية عند

---

(١) يذكر «ثاولس» Thouless بصدد شرح كلمة Persona واستعمالها، أنه كان لبسمارك Persona أي «قناع شخصية» يجعله يبدو للغير في الحياة الخارجية رجلا حديديا بينما كانت زوجته - وهي التي كانت ترى وتعرف كثيرا عن حقيقة شخصيته المختبئة (عن الناس) وراء «القناع» Persona تصفه بأنه بطة عليلة مسكينة

Thouless, R. *General 9 Social Psychology*, pp. 112–114. (A poor Sick duck)

(2) Shakespeare, W., *As You Like It*. Act II, Scene 7.

(3) Allport G., *Personality: A Psychological Interpretation*, New York, Holt, 1937.

العامة كما تستخدم في الحياة اليومية، ثم نتناول وجهة نظر بعض علماء الاجتماع في تعريف الشخصية، ثم نستعرض تعاريف الشخصية كما يعالجها علماء النفس.

أولا ـ مفهوم الشخصية في الحياة اليومية:

ذكرنا أن تعريف الشخصية قام في البداية على فكرة التمثيل وما يبدو على الفرد من الصفات الظاهرة بصرف النظر عما يخفيه في نفسه من صفات داخلية. ويرتبط بهذه الفكرة تعريف الشخصية بالقدرة على التأثير في الغير أو الأثر الذي يتركه الشخص فيمن حوله، وما يتعلق بذلك مما يكون لدى الفرد من هيبة ووقار وكبرياء، أو تواضع وخضوع واستسلام، وهذا ما يعنيه العامة حين يستخدمون كلمة شخصية في الحياة اليومية فيقولون أحيانا أن فلانا ذو شخصية قوية، وأن آخر ذو شخصيه ضعيفة، ويقصد بذلك أن الأول ذو تأثير على غيره وأنه مستقر في رأيه له أهداف واضحة في الحياة وأن الشخص الثاني ضعيف الارادة ليس فيه ما يميزه عن غيره فهو يتأثر بغيره بسهولة، ويعجز عن التأثير في الغير، إلى غير ذلك من الصفات. هذا هو تعريف المفهوم العام للشخصية في حياتنا اليومية.

ثانياً ـ تعريف الشخصية عند علماء الاجتماع:

يهتم علماء الاجتماع بموضوع الشخصية باعتبارها أحد الأسس الجوهرية التي تقيم الحقيقة الاجتماعية. فالمجتمع يقوم كنسق من العلاقات المتبادلة بين الأفراد، ولهذا لا يمكن أن نعزل الفرد عن مجتمعه، وثقافته، لأنه لا يصبح إنسانا إلا من خلال تفاعله مع الآخرين في الجماعة. وهذا التفاعل في حد ذاته يخضع لقيود الثقافة وضغوطها، وتنميطها. وفيما يأتي بعض تعريفات علماء الاجتماع للشخصية.

يرى «بيسانز» (Biesanz) أن لكل شخص شخصيته كما للآخرين، طالما أنه قد مر خلال عملية التنشئة الاجتماعية، بصرف النظر عن اتجاهاتها أو الأسس التي قامت عليها، لهذا فهو يعرف الشخصية بأنها (تنظيم يقوم على أساس من عادات الشخص وسماته. وهي تنبثق (الشخصية) من خلال العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية)[1]. ويعني (بيسانز) بالتنظيم تكامل العادات والاتجاهات، والسمات.

(1) Biesanz, J. 9 Biesanz, M., *Modern Society*, p. 178 N.Y. 1954.

ويقصد بالعادات الطرق الدائمة نسبياً التي يسير عليها الفرد في سلوكه، والاتجاهات هي الميول التي تظهر في الأفعال الموجهة نحو قيم معينة، كالأشخاص أو الأشياء أو النظم الاجتماعية أما السمات فهي الصورة العامة للاستجابة.

أما «جرين» (A. Green) فالشخصية عنده، ليست مجرد القيم والسمات بل أن تعريفها يجب أن يتضمن صفة هامة بها، وهي التنظيم الدينامي، الذي بدونه قد تصبح الشخصية عاملا معوقا في النمو والانتماء إلى جماعات متعددة في المجتمع[1]. أي أن «جرين» يؤكد أن الإنسان يصبح شخصا نتيجة للمؤثرات الاجتماعية التي تؤثر في كيانه التشريحي والفسيولوجي والعصبي، ولا بد له كي يصير شخصا أن يكتسب اللغة. وعلى ذلك فالشخصية لا تقتصر على ما يميز الشخص، بل تشتمل أيضا على ما هو مشترك بين الشخص والآخرين.

أما عند «أوجبرن» (Ogburn) ، و «نيمكوف» (Nimkoff) فالشخصية تعني التكامل النفسي الاجتماعي للسلوك عند الكائن الإنساني، الذي تعبر عنه عادات الفعل والشعور والاتجاهات والآراء. وقد يتعارض السلوك الاجتماعي مع السلوك الفسيولوجي، إن جاز هذا التعبير، على الرغم من الصلة المتبادلة بينهما. ولذلك فإن الجانب الاجتماعي الهام للشخصية يكمن في أنها تنمو في المواقف الاجتماعية، وتعبر عن نفسها من خلال التفاعل مع الآخرين. لهذا يهتم عالم الاجتماع بمعرفة تكوين الشخصية وبقائها وتغيرها، ومختلف العوامل المؤثرة فيها، وإن كان يصب جل إهتمامه على المؤثرات الاجتماعية[2].

ويؤكد (سوروكن) (Sorokin) أهمية موضوع الشخصية بالنسبة لعلم الاجتماع لأنه يرى أن الأفراد هم المكونات الأساسية في كل الأنساق الاجتماعية والثقافية. وما دام الأمر كذلك فإن شخصياتهم تؤثر من غير شك في إطار الأنماط الثقافية والاجتماعية ولا ينكر «سوروكن» أهمية الوراثة البيولوجية في الشخصية، ولكنه يذهب إلى أن الجانب الاجتماعي الثقافي من الشخصية لا يتحدد، عن طريق هذه الوراثة، لأنه

---

(1) Green, A., *Sociology*, pp. 115–116.

(2) Ogburn, W. 9 Nimkoff, *A Hand book of Sociology*, p 191

يصب في قالب معين من خلال الوسط الاجتماعي الثقافي. فالفرد يمتص عالمه الثقافي الاجتماعي، ويتمثله وينمو على تربته. والثقافة مرآة أعضائها، وما يقيمون من تنظيمات اجتماعية، أما البناء الاجتماعي فإنه يعكس مكوناته من الأفراد وأنماطهم الثقافية. ويرى سوروكن أن الدراسات المتعددة التي أجريت في ميادين علم نفس الطفل، والتحليل النفسي، وعلم الجريمة تؤكد أن الجانب الأكبر من الشخصية الإنسانية يرتكز على دعائم المجتمع والثقافة. فالنمو العقلي، والذاكرة، والتحليل، والتعميم، يستحيل دون التفاعل الإنساني، كذلك لا يمكن أن تتراكم الخبرات، والثقافة، أو تتميز معايير الصواب والخطأ دون تفاعل الأجيال، أو من غير توافر الخبرة الجمعية، ولم يكن للغة أن تنبثق من غير التفاعل الاجتماعي[1].

ويمكن القول بعامة أن اهتمام علماء الاجتماع بدراسة الشخصية كان محصورا في العوامل الثقافية والاجتماعية التي تكون الشخصية، دون الاهتمام بعوامل الوراثة البيولوجية. فالفرد في نظرهم يكتسب شخصيته بانتمائه إلى جماعة، حيث يتعلم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية أنساق السلوك والمهارات المختلفة، والعادات، ومعايير الجماعة.

ثالثاً ـ تعريف الشخصية عند علماء النفس:

تتعدد تعريفات علماء النفس للشخصية فمنها ما يصف الاستعدادات الداخلية والعوامل الخارجية التي تتفاعل مع بعضها فتكون الشخصية، ومنها ما يؤكد الصحة النفسية فينظر إلى الشخصية من زاوية نمط التوافق الفردي المتميز. فيرى أن ما يحدد الشخصية هو تلك الأفعال التي نقوم بها لتساعدنا على المحافظة على توازننا، وتكيفنا مع الظروف التي تحيط بنا. ومنها ما يرى أن تعريف الشخصية بالأثر الذي يتركه الفرد في الآخرين لا يكفي لأنه لا يوضح لنا شيئا عن الصفات الداخلية الحقيقية في الشخص إذ أن الفرد يمكن أن يعتبر عدداً من الشخصيات، وهي: الشخص كما يراه غيره ـ والشخص كما يرى نفسه، والشخص على حقيقته.

فتعريف السلوكيين للشخصية يتناول أيضا الصفات والمظاهر الخارجية

---

(1) Sorokin, P. *Society, Culture, and Personality*, pp. 342-343

للشخص إذ يوضح أن الشخصية هي مجموع العادات السلوكية للفرد، وهي مجموع أوجه النشاط التي يمكن الكشف عنها بالملاحظة الفعلية لمدة طويلة تكفي لأخذ فكرة يعتمد عليها عن الشخص. ولا شك في أن هذه التعاريف غير شاملة لأنها تهتم فقط بالشخص كما يراه غيره وتهمل الناحيتين الأخريين.

أما تعريف مدرسة التحليل النفسي فعلى النقيض من التعاريف السابقة إذ أنه ينظر الشخصية كقوة مركزية داخلية توجه الفرد في حركاته وسكناته. ومثل هذا التعريف أيضاً غير شامل لأنه يهتم بمظهر واحد من الشخصية، وهو الشخص كما يرى نفسه.

وهناك تعريفات تنظر إلى الشخصية كمجموعة من الصفات، منها تعريف (مورتون برنس) (Morton Prince) الذي يقول: «إن الشخصية هي حاصل جمع كل الاستعدادات والميول والغرائز والدوافع والقوى البيولوجية الفطرية الموروثة، وكذلك الصفات، والاستعدادات والميول المكتسبة من الخبرة»[1] وهذا تعريف غير دقيق، لأنه يحمل في طياته خطر التفكير في هذه الصفات كوحدات منعزلة بعضها عن بعض، والواقع خلاف ذلك لأن الشخصية وحدة لا تتجزأ، وهي أكثر من مجرد مجموع أو حاصل جمع صفات فهي كالمركب الكيمياوي يحتوي على صفات خاصة به، تختلف كل الاختلاف عن صفات العناصر المكونة له. ولهذا برزت بعض تعريفات جديدة تؤكد أهمية تكامل الشخصية، ويطلق عليها التعاريف التكاملية والتي توصف بأنها التنظيم المتكامل لجميع الخصائص المعرفية، والعاطفية والنزوعية، والجسمية للفرد، والتي تميزه عن الآخرين.

ورغم تعدد تعريفات علماء النفس للشخصية، فإنه من الممكن جمعها في مجموعات ثلاث:

(أ) تعريفات تعالج الشخصية كمثير:

وهي تنظر إلى الشخصية على إعتبار أنها مثير أو مؤثر إجتماعي في الآخرين وتتفق

---

(1) أنظر، محمد خليفة بركات، **تحليل الشخصية**، ص ٥، ٦.

هذه التعريفات مع الاستخدام العادي لكلمة الشخصية عندما تصف شخصا بأنه قوى الشخصية أو أنه يتمتع بشخصية القائد، أو الزعيم، أو أنه ضعيف الشخصية . . . الخ.

وتعريف الشخصية كمثير ليس قاصرا على التعريفات الدارجة، بل نجده أيضاً لدى بعض علماء النفس. من هذا القبيل ما أورده «جوردون البورت» (G. Allport) تحت إسم «التعريفات الحيوية الاجتماعية» التي تركز على المظهر الخارجي للفرد، وقدرته على التأثير في الآخرين، أو ما يعرف بإسم (قيمة المثير). ومن أمثلة هذا النوع من التعريفات قوله: (الشخصية هي مجموع ما يحدثه الفرد من تأثير في المجتمع) أو هي (تأثيرك في الآخرين). وهذا النوع من التعريفات وثيق الصلة أيضاً بالمعنى الأصلي للقناع أو الغطاء الخادع.

ومن علماء النفس الذين أخذوا بهذا التعريف «ماي» (May) إذ يعرف الشخصية بأنها - وفقا لمعناها الأصلي - (ما يجعل الفرد فعالا أو مؤثرا في الآخرين . وبلغة علم النفس يمكن أن نعتبرها ما للفرد من تأثير اجتماعي. ومن الممكن أن نعتبر أن كل فرد مؤثرا فيمن يتصل به)[1].

وقد ذهب إلى هذا الرأى العالم (فلمنج)، حيث يعتبر أن الشخصية (هي العادات والأعمال التي تؤثر في الآخرين)[2] وهو بهذا التعريف يحذف كما يقول «ألبورت» عوامل الأحباط والقلق والطموح الخاصة التي لا تؤثر في الآخرين. ومن العلماء الذين يذهبون إلى هذا الرأي أيضا، العالم (لنك) الذي يقول أن الشخصية هي مجموعة تأثيرات الفرد في المجتمع وهو بهذا ينكر شخصية من لا أثر اجتماعي له (أمثال الرهبان المنعزلين).

والأخذ بمثل التعريفات السابقة يثير صعوبات كثيرة ومشكلات منها :
١ - أنه يشير إلى أجزاء معينة فقط من نمط حياة الفرد،وعلى وجه الخصوص الى قدرته

---

(1) May, M.A., *Studies in the Organization of Character*, MacMillan, N.Y. 1930.

(2) Fleming, V.V., Persistance and Change in Personality Patterns, *National Research Council*, 1943, Vol. 8, No. 3.

على التعبير، والتأثير في الآخرين.

٢ ـ أنه ينظر الى الشخصية من حيث قدرتها على التأثير في الآخرين، وليس من حيث تنظيمها الداخلي، فنظرته إذن نظرة سطحية خارجية، فمن المهم أن ننظر إلى الفرد كما هو، بصرف النظر عن الأسلوب الذي يدرك به الآخرين سماته، أو يصرف النظر عن تقديرهم هم لهذه السمات.

٣ ـ أن التطبيق الجامد لوجهة نظر الشخصية كمثير، تؤدي إلى موقف غريب كل الغرابة يكون فيه للفرد الواحد عدداً غير محدود من الشخصيات شخصية بالنسبة لكل فرد من الأفراد الذين يتصل بهم، لأن كل واحد منهم سوف يتأثر بشخصيته تأثيراً مختلفا، وسوف تكون لشخصيته قيمة تأثيرية مختلفة. فالشخص الواحد لا يقيم بنفس النظرة من قبل أمه، ومدرسيه، وإخوته، وزوجته، وموظفيه، وزملائه، ومنافسيه، فهل معنى ذلك أنه له عدة شخصيات مختلفة؟ إن تعريف الشخصية على هذا النحو يكون مستحيلا.

٤ ـ إن الأثر الكلي الذي يحدثه الفرد في المجتمع، سيؤدي إلى تمييز خطير بين درجات أعلى أو أقل في الشخصية. فالأفراد المختلفون لهم درجات مختلفة متفاوتة من الفاعلية والتأثير في المجتمع الذي يعيشون فيه. فإحدى نجوم السينما التي تكثر الصحف نشر صورها يكون تأثيرها على هذا الأساس أكبر من تأثير العالم الذي يكرس كل حياته، ووقته لإجراء التجارب في معمله والقيام بالبحوث، بعيداً عن الأضواء، لذلك نجد أن وجهة النظر الحيوية الفيزيقية تعارض فكرة التأثير هذه، وتجعل لكل انسان شخصيته بصرف النظر عما يحدثه من أثر في الآخرين. فالتأثير ليس بحال من الأحوال معيارا لوجود الشخصية[1].

٥ ـ من المحال إنكار أن لكل فرد صفات وخصائص متميزة، وشخصيته ـ المستقلة عن ملاحظات الناس له. صحيح أن الانسان لا يعيش بمعزل ـ في العادة ـ عن الآخرين، بل يعيش في مجتمع. ولكن ليس من الضروري أن يقوم الناس بملاحظة الفرد حتى تصبح له شخصيته، فالشخصية شيء، تسلم بوجوده حقيقة داخل الفرد، بصرف النظر عن تأثر الآخرين، أن حياة شخص ما في جزيرة نائية

---

(١) أنظر، سيد محمد غنيم. سيكلوجية الشخصية. ص ٥٠.

بعيداً عن الناس تحت ظروف خاصة لا تنفي عنه وجود الشخصية.

(ب) تعريفات الشخصية كاستجابة:

تحاول هذه التعريفات تلافي الصعوبات التي واجهت علماء النفس في تعريف الشخصية كمثير، لهذا ظهر - كرد فعل - اتجاه آخر ينظر إلى الشخصية كاستجابة. فنجد «فلويد ألبورت» (F.Allport) مثلا، في كتابه «علم النفس الاجتماعي» يعرف الشخصية بقوله: «أنها استجابات الفرد المميزة، للمثيرات الاجتماعية، وأسلوب توافقه مع المظاهر الاجتماعية في البيئة» فشخصية الفرد إذن هي دالة أو وظيفة لسلوكه واستجاباته للمواقف المختلفة.

والحقيقة إن هذا النوع من التعريفات يعد أكثر موضوعية، وأكثر تقدما من المجموعة الأولى، ذلك أنه من الممكن أن نطبق عليها أساليب البحث العلمي، ذلك أن الشخصية أصبحت ترتبط هنا بمظاهر موضوعية سلوكية يمكن دراستها وقياسها بمختلف وسائل القياس التي يستخدمها علم النفس. فإذا ما اتفقنا على الأنماط السلوكية التي تكون الشخصية، أمكننا البدء في دراستها، وتصنيفها، وتحليلها، وبعد ذلك نأخذ في تحديد شخصيات الأفراد.

وقد أدى هذا إلى أن الكثير من علماء النفس، قد أخذوا بهذا التعريف وجعلوه أساساً للكثير من الدراسات. ومنها الدراسات الخاصة بتعبيرات الوجه، أو الانفعالات أو الاستجابات الحشوية أو غير ذلك.

وقد ظهرت بعض الاعتراضات على هذه التعريفات، أهمها أن نمط السلوك، كثيرا ما ينتج عن أسباب مختلفة، فمثلا في كثير من اختبارات الشخصية نجد هذا السؤ ال «هل يحدث لك أن تنحرف عن طريقك لكي لا تقابل صديقا؟» والإجابة عن هذا السؤ ال قد تكون لأسباب مختلفة، منها أن يكون الشخص خجولا، أو أكثر اهتماماً بعمله، أو غير ذلك من الأسباب.

ومن العلماء الذين أخذوا بهذه التعاريف كل من «وودورث» (Woodworth) و«ماركويس» (Marquis) حيث عرفا الشخصية بأنها «الأسلوب العام لسلوك الفرد

كما يظهر في عاداته التفكيرية» وتعبيراته واتجاهاته، وميوله وطريقته، وسلوكه، وفلسفته الشخصية في الحياة[1].

ومنها أيضاً «روباك» (Roback) الذي وصف الشخصية بأنها مجموعة استعداداتنا المعرفية، والإنفعالية والنوعية. وكلمة مجموع لا تعني مجرد حاصل جمع، ولكنها تعني تكاملا بين هذه الاستعدادات[2].

كما أن تعريف «جاثري» (Guthrie) للشخصية بأنها «العادات ونظام العادات ذات الأهمية الاجتماعية، والتي تكون ثابتة وتقاوم التغير» يشير أيضاً بعض المشكلات. فهو يتحدث عن نظام العادات ذات الأهمية الاجتماعية. فماذا يكون عليه الأمر بالنسبة للعادات التي ليست لها أهمية اجتماعية، فبعض الناس مثلا اعتادوا الوقوف أمام المرآة والضحك لصورهم عندما يكونون على انفراد، وهي عادة من الواضح أن ليس لها قيمة اجتماعية، وإن كانت ذات دلالة بالنسبة لشخصية الفرد.

ثم أن الشخص الواحد حتى عندما يواجه بالمثير نفسه، فإنه لا يستجيب دائما بالاستجابة نفسها، بالمثل أيضا نجد أن شخصين مختلفين يمكن أن يستجيبا بالأسلوب نفسه، ولكن لأسباب مختلفة أشد الاختلاف. فعدم الثبات في استجابات الفرد الواحد أحيانا، وتشابه استجابات الأفراد المختلفين أحيانا أخرى يوحي بضرورة تعديل نظرتنا للشخصية كاستجابة.

(ج) تعريفات تنظر إلى الشخصية كمتغير يتوسط المثيرات والاستجابات:

أدت الصعوبات التي أثيرت حول التعريفات السابقة إلى أخذ معظم علماء النفس بتعريفات تذهب إلى أن الشخصية لا يمكن تحديدها عن طريق ما يقوم به الشخص، ولكن على أساس أنها حالة من الحالات الداخلية يمكن أن نستنتجها، وأنها أساس لسلوك الإنسان وتصرفاته. فالشخص قد يكون خجولا مع الغرباء

(1) Woodworth, R. S., *Esperimental Psychology.* N.Y. Henry Holt and Co. 1938.

(2) Roback, A. A. *Psychology of Character,* N.Y. Harcourt Brace and Co. 1927

يخشى أن ينحين الفرصة وينأى عن مركز الزعامة في المجموعة التي ينتمي إليها، ويرجع هذا إلى شعور قوى بالنقص. هذا الشعور بالنقص يؤثر في عدد كبير من استجاباته. ولا شك أن فهمنا لشخصيته يزداد ازديادا كبيراً إذا ما استطعنا أن نصل إلى هذه المتغيرات المتوسطة والتي تؤثر على سلوكه في عدة مجالات. وقبولنا لهذا الرأي يؤدي بنا إلى أن «الشخصية عبارة عن التنظيم الداخلي للدوافع والانفعالات والإدراك والتذكر التي تحدد أسلوب الشخصية في السلوك».

ومعظم التعريفات التي من هذا النوع تذهب إلى أن هذا المتغير الذي يتوسط المؤثرات والاستجابات ليس عاملا واحداً، ولكنه عبارة عن تنظيم ديناميكي - أي تنظيم متغير متفاعل من مختلف أنواع الاستعدادات التي للفرد ويظهر هذا في تعريف «وارن» و«كارميكل» (Waren & Carmichael) وهو أن الشخصية هي التنظيم الكلي للانسان في أي مرحلة من مراحل نموه[1].

كما يضيفان أيضاً أن هذا التنظيم الديناميكي فريد ومتايز عن غيره. أي أنه لا يوجد فردان يتفقان فيه - ويظهر هذا في تعريف «ماكردي» (McCurdy) الذي يصف الشخصية بأنها «تكامل الأنماط والأساليب الذي يميز الفرد عن غيره»، وكذلك «شون» (Shoen) الذي يذهب إلى أن الشخصية (هي التكوين المنظم أو الكل الفعال، أو وحدة العادات والاستعدادات والعواطف التي تميز أي فرد في المجموع عن غيره من الأفراد».

ويضيفون أيضاً إلى أن هذا التنظيم يتخذ شكلا هرميا متدرجا، أي أنهم يفترضون وجود عامل يسيطر على هذا التنظيم ، ويجعل منه مركز القمة في الهرم، ويتضح هذا في تعريف «مكدوجل» (Mc Dougall) [2] و«بريدجز» (Bridges) [3]

---

(1) Carmichael, L. (ed), *Manual of Child Psychology*, Wiley, 1946.

(2) Mc Dougall, W. *The Energies of Men, A Study of the Fundamentals of Dynamic Psychology*, London, Methuen 1932.

(3) Bridges, K., Emotional Development in Early Infancy, *Child Developement*, 1932, 3, 45, 46.

وهايدر (Heider) [1] وغيرهم.

كما أنهم يضيفون إلى هذا فكرة التكيف باعتبارها أسلوب من أساليب السلوك العامة التي تميز فرداً عن غيره. ويظهر هذا في تعريف «كنف» (Kempf) فهو يعرف الشخصية باعتبار أنها «تكامل العادات الذي يميز تكيف الفرد نحو بيئته» [2]

وقد ذهب «كاتل» (Cattell) إلى أن «الشخصية هي ما يمكننا من أن نتنبأ بما يكون عليه سلوك الفرد في موقف ما» [3]

ويتحدث «كاتل» بعد ذلك عن العناصر التي تتكون منها الشخصية، فيصنفها في ٣ أنواع:

١ - السمات أو العناصر الديناميكية، وهي الدوافع المختلفة للسلوك وأهدافه سواء كانت فطرية أو مكتسبة.

٢ - السمات المزاجية وهي التي تتعلق بالسمات الشاملة غير المتغيرة وهي السمات التي تميز استجابات الفرد بصرف النظر عن المثيرات التي تؤدي إليها مثل سرعة الاستجابة أو قوتها أو مستوى النشاط.

٣ - القدرات والكفايات العقلية، وهي التي تحدد قدرة الفرد على القيام بعمل ما، وتتمثل في الذكاء والقدرات الخاصة، والمهارات.

تعريف ألبورت للشخصية:

من أهم التعريفات التي ظهرت حتى الآن تعريف «ألبورت» (G. Allport)، الذي يقول: «الشخصية هي التنظيم الديناميكي في داخل الفرد لتلك التكوينات أو

---

(1) Heider, F., *The Psychology of Interpersonal Relationships*, Wiley, 1958.

(2) Kempf, E.J. (ed), *Comparative Conditioned Neuroses*, p. 56, N.Y. Acad. Sci., 1953.

(3) Cattel, R.B., *An Introduction to Personality Study*, London, Hutchinson's University Library 1950.

الأجهزة النفسية الجسمية التي تحدد طريقته الخاصة للتكيف مع البيئة[1]».

ومن الواضح أن هذا التعريف يتجنب الكثير من الصعوبات التي واجهتنا في التعريفات السابقة فهو يتميز بأنه:

١ - يوضح فكرة «الديناميكية» في الشخصية، أي التفاعل المستمر بين عناصرها كما أنه يقصد بقوله ان الشخصية هي التنظيم الديناميكي، أنها ثابتة إلى حد ما، ولكنها في الوقت نفسه متغيرة، وقابلة للتغير نتيجة للتفاعل الدائم بين مختلف العوامل الشخصية والاجتماعية والمادية، وهو في الوقت ذاته، لا يستبعد ما قد يطرأ على الشخصية الإنسانية عند فقدان التنظيم من انحلال أو تفكك يظهران في الحالات العقلية والنفسية التي تطلق عليها حالات الإنحراف والشذوذ، ويأخذ في اعتباره التغيرات الديناميكية التي تتم داخل الفرد (الدوافع).

٢ - يؤكد تعريف «ألبورت» للشخصية فكرة التكامل، وكون الشخصية ليست مجرد مجموع الصفات، وإنما وحدة النتائج منها، فهي أكثر من مجرد حاصل الجمع.

٣ - يشير هذا التعريف إلى التكوينات الجزئية الجسمية النفسية الظاهرة، والكامنة، ويقصد بهذا أن الشخصية تكوين عام تندرج تحته تكوينات جزئية هي جميع ما يتميز به الفرد من عادات ، واتجاهات، وانفعالات وعواطف، واستعدادات، وقيم. وهو يشير أيضاً إلى أن هذه التكوينات المختلفة ليست جسمية بحتة، ولا نفسية بحتة، ولكنها مزيج من الاثنين، كما يشير إلى التداخل العضوي، والنفسي (في العادات والإنفعال).

٤ - لم يهمل هذا التعريف أهمية البيئة وأثر عناصر الشخصية في تكيف الفرد وتفاعله معها، ولذا لا يمكن دراسة الفرد منعزلا عن المجموع الذي يحيط به.

ويفهم من ذلك التعريف الذي ساقه «ألبورت» للشخصية، أنها استعداد يحدد

---

(1) The dynamic organization within the individual of those psychophysical systems that determine his unique adjustments to his environment .
Allport, G.W., *Personality: A Psychological Interpretation*, N.Y. Henty Holt and Co. Inc. 1936.

استجابة الفرد لمختلف المثيرات التي تحيط به، بمعنى أن الشخصية موضوع كالموضوعات العلمية يحدد بدقة.

٥ - تظهر من تعريف «البورت» فكرة التميز التي تجعل كل فرد مختلفا عن غيره بحيث لا يوجد اثنان متشابهان تشابها تاماً، وفي ذلك إشارة إلى الفروق الفردية.

وخلاصة ما سبق تتبلور في الفكرتين الآتيتين:

أولا - ان الشخصية وحدة أو كل أو جشتالت Gestalt ، ويجب دراستها كتنظيم كلي عام متكامل.

ثانيا - انه إذا اضطرنا البحث العلمي لتحليل الشخصية إلى عواملها الأولية، لتوضيح الحقائق، وابرازها، فيجب ان نضع نصب أعيننا دائما فكرة اندماج هذه العناصر، وامتزاجها، وتفاعلها المستمر بعضها مع بعض.

ولذلك سنحاول بقدر المستطاع التزام هاتين الفكرتين في الجزء التالي من الكتاب، حين نتكلم عن الشخصية وعناصرها الأولية التي تتكون منها[1].

العناصر الأولية للشخصية

حاول كثير من العلماء تقسيم الشخصية وتحليلها الى وحدات أولية رئيسية ثم تحليل هذه الوحدات بدورها الى فروع وعوامل مفصلة، الى أن وصلوا إلى قوائم طويلة للصفات التي يصح دراستها للحكم على الشخصية حكما شاملا من جميع النواحي. وقد وصل عدد هذه الصفات في قائمة صنفها «كاتل» مثلا الى ١٧١ صفة[2]. وهذا التحليل المسترسل في التفاصيل، الى صفات فرعية متعددة لا يفيد كثيرا في إعطاء صورة سريعة للشخصية كما نهدف من هذا الكتاب، وإن كان التحليل بالصورة المشار إليها يفيد كثيراً بل لا يستغنى عنه في بعض الأبحاث التي تركز جهدها في الناحية الاحصائية بقصد اتخاذها أساسا لأبحاث اخرى ترتكز عليها.

---

(١) أنظر، محمد خليفة بركات، **تحليل الشخصية**، ص ٩، ١٠، ١١.
(٢) أنظر محمد خليفة بركات، المصدر نفسه. ص ١٤.

والواقع أنه مهما اختلفت قوائم العلماء في ظاهرها وتفاصيلها فان أغلبها يتفق على أن العناصر الأولية الرئيسية للشخصية هي:

١ - النواحي الجسمية. (Physical)

٢ - النواحي العقلية المعرفية، (Cognitive)

٣ - النواحي المزاجية .(Temperamental)

٤ - النواحي الخلقية .(Character)

ومن الضروري طبعا أن ننظر إلى هذه العناصر الأربعة في ضوء البيئة الاجتماعية والوسط الثقافي العام الذي تتكون فيه الشخصية وتنمو.

١ - **أما النواحي الجسمية**: فالمقصود بها حالة الجهاز العصبي، وتأثير الغدد الصماء وحالة الجهاز الهضمي والحواس المختلفة من ناحية حدتها أو ضعفها وكذلك شكل الجسم العام وقوة العضلات وتناسب التقاسيم ورنة الصوت وسرعة الحركات أو بطئها. . . الخ.

٢ - **وأما النواحي العقلية المعرفية**: فهي إما فطرية كالذكاء والقدرات التحصيلية، والمواهب الخاصة، وإما مكتسبة كالآراء والأفكار والمعتقدات والمعلومات المختلفة.

٣ - **وأما النواحي المزاجية**: فهي مجموع الصفات الانفعالية المميزة للفرد، وتتضمن تلك الاستعدادات الثابتة نسبيا المبنية على ما عند الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية التي يزود بها والتي تعتبر وراثية في أساسها وهي تعتمد على التكوين الكيميائي والغدى والدموي. وتتصل اتصالا وثيقا بالنواحي الفسيولوجية والعصبية وتظهر في الحالات الوجدانية والطباع والمشاعر والانفعالات من حيث قوتها أو ضعفها، ثباتها أو تقلبها ومدى المثيرات التي تثيرها.

٤ - **وأما النواحي الخلقية**: فتشمل الصفات الخلقية المختلفة كالأمانة والخيانة والتعاون والأنانية والصدق والكذب والاقدام والتهيب والرحمة والغلظة والعدل

والظلم والتسامح والتعصب والمسألة والعدوان والكرم والبخل، الى غير ذلك مما يدخل في نطاق الاتجاهات النفسية المختلفة.

امتزاج عناصر الشخصية وتأثيرها بعضها في بعض

سبق أن أشرنا الى وجوب دراسة الشخصية كوحدة ومعنى ذلك انه لا بد من الاهتمام بابراز ما بين عناصرها من امتزاج وتداخل وتفاعل مستمر. فكل ناحية من نواحي الشخصية تؤثر في باقي النواحي الأخرى كما تتأثر بها. وقد أدرك الناس من قديم الزمان ما بين الناحية الجسمية للشخص من علاقة وثيقة واتصال كبير بالناحية العقلية حيث قالوا: (العقل السليم في الجسم السليم) والواقع ان أثر الناحية الجسمية في الشخصية لا يقتصر على الناحية العقلية، بل يمتد إلى جميع عناصرها. فمن الثابت علميا إن لافرازات الغدد الصماء تاثيرا كبيرا ليس فقط على النمو الجسمي والحركي بل أيضاً على الذكاء واليقظة الفكرية، وعلى الاتزان الانفعالي والنضج الجنسي. وكل هذا يؤثر في الشخصية من حيث اتزانها أو اختلالها.

كذلك العاهات والأمراض خصوصا المزمنة منها ذات أثر بعيد في النواحي العقلية والمزاجية والخلقية. فبعض العاهات لها أثر تعويضى يتضح من المثل القائل: «كل ذي عاهة جبار) وهذا الأثر كثيرا ما يظهر في شحذ قدرات الشخص الجسمية والعقلية كما يظهر بشكل بارز في صفاته واتجاهاته الخلقية وتعامله مع الناس. وهناك عاهات يحدث عنها شذوذ بالغ في الشخصية كالعاهات الناتجة من حوادث الاصابات في المخ مثلا.

أما الأمراض، خاصة المزمنة، فلها أثر لا يقل عن أثر العاهات إذ أنها تؤثر على الجسم كله وتحد من قدرة الشخص على استغلال طاقته العقلية كما تؤثر في الناحية المزاجية والاجتماعية من شخصيته فتجعله خاملا في تفكيره مثلا أو سريع التهيج والغضب في تصرفاته، أو تجعله ساخطا متبرما ينظر الى الدنيا بمنظار أسود.

ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وغنى عن الذكر أن البنية القوية والصحة الموفورة تعينان الشخص على الوقوف

من الحياة على العموم موقف المتحدي مما لا يقدر عليه العليل أو السقيم، فالصحة الجسمية بلا شك أساس الصحة النفسية. ويقول الدكتور عزت راجح: «إن الضعف العارض قد يورط في زلة خلقية عابرة، وعندما تهجر العافية تفتر الشجاعة ويزداد الكسل ويغل الطبع الحاد أو يفور. وقد نكون على حق أحيانا حين ننسب هذه التغيرات الى طعام تناولناه أو أرق بلينا به أو سموم في الدم. يضاف إلى هذا أن بالجسم غددا صماء.. تفرز مواد ذات فاعلية شديدة تسمى «الهورمونات» وهي مواد إن لم تفرز بقدر معلوم اختل ميزان الجسم كله وبدت تغيرات ملحوظة في هيئة الشخص وبنيته ومزاجه وذكائه وغير ذلك من مظاهر شخصيته مما قد يؤثر في عاداته الاجتماعية واتجاهاته النفسية[١].

وأما أثر الناحية العقلية في نواحي الشخصية الأخرى فيمكن ايضاحه اذا قارنا بين الشخص الذكي والشخص الغبي، وضعيف العقل، فالذكاء وهو أهم وأبرز القدرات المعرفية الفطرية العامة - سلاح الشخصية في التصرف والتكيف والتحكم في النزعات والدوافع الفطرية، والتوفيق بينها وبين تقاليد البيئة ومقتضياتها. فالشخص الذكي يستطيع أن يقدر ويفهم معنى وأهمية وكيفية المحافظة على صحته ووقايتها من الأمراض، ويستطيع ان يستفيد من الظروف وأن يستجيب لمن يربيه وينشئه، ويكيف نفسه للوسط الذي يعيش فيه، بأن يتحكم في نزعاته ودوافعه غير الاجتماعية، وينمي ميوله واتجاهاته الاجتماعية، وبذا يسهل امتصاصه للثقافة التي يعيش فيها[٢].

أما الشخص الغبي فإن غباءه يتسبب في صعوبة تنشئته التنشئة الاجتماعية المتكاملة. وتكون شخصيته عرضة للانحراف والشذوذ الاجتماعي والخلقي «وتدل الاحصاءات التي تعمل في محيط الانحراف والاجرام على أن احتمال انسياق الشخصية الى الاجرام يتناسب تناسباً طردياً مع درجة الغباء وعكسيا مع درجة الذكاء»[٣].

---

(١) أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ٤٠١.

(٢) أنظر (أ) Ogburn ! Nimkoff, *Sociology*, pp. 148–150.

(ب) Lunberg, Schrag ! Larsen, *Sociology*, pp. 208.

(٣) محمد خليفة بركات، **المرجع السابق**، ص ٥٣

أما الضعف العقلي وهو المرتبة الدنيا من مراتب الذكاء، فله أثر كبير على جميع نواحي الشخصية إذ يصحبه غالباً ضعف في النمو الجسمي والانفعالي والخلقي، ولهذا نجد أن الضعف العقلي يؤدي الى عدم النجاح وانحلال الشخصية مهما تهيأت ظروف البيئة. ومن الصفات المعروفة عن ضعاف العقول انهم يتأخرون في النمو وفي المشي والكلام وفي سرعة التعلم. وأن فيهم ضعفاً في التوازن الحركي بحيث يبدو ذلك في تعبيرهم بالكتابة او الرسم إذا أريد تعليمهم كما أن افكارهم ضئيلة وآراءهم سطحية، وفهمهم بطيء جداً وليس لديهم القدرة على التحكم في دوافعهم النفسية وانفعالاتهم الغريزية. «وقد ظهر في البحوث التي تناولت الأسرة المنحلة اخلاقيا ان الضعف العقلي ظاهرة شائعة بين أفرادها. وقد أدى هذا الكشف إلى ربط الاجرام بهذه الظاهرة ربطا عليا[1]».

وخلاصة القول إن النواحي العقلية وما يتصل من نواحي معرفية تؤثر في النواحي الأخرى للشخصية. فشخصية ضعيف العقل يتضح فيها الشذوذ الجسمي والانفعالي والخلقي كما أن شخصية الذكي يغلب أن تكون متكاملة. وذلك لأن ذكاءه يسهل عليه استغلال قدراته وتكييف نفسه للبيئة التي يعيش فيها. ولا يتحتم أن يكون الذكي متكامل الشخصية حسن الأخلاق، لأن الذكاء ليس وحده العامل الوحيد في تكوين الشخصية السوية المتكاملة. فالذكاء يزود الشخص بالوسائل لا بالدوافع أي أنه لا يدفع ويحفز، بل يوجه ويرشد، ولكي ندرس سلوك الفرد وشخصيته لا بد أن نعمل حسابا كبيراً للدوافع المختلفة من جهة، وللقدرة على ضبط النفس من جهة أخرى. فالشخص الذكي يستطيع بلا شك أن يميز بين الصواب والخطأ، وبين الخير والشر، وبالرغم من ذلك فقد يسلك سلوكا خاطئا أو منحرفا لأنه يعجز عن ضبط اندفاعاته وبالتالي يعجز عن تكييف نفسه للمواقف التي تقابله.

وأما تأثير الناحية المزاجية في نواحي الشخصية الأخرى فيتضح لنا من ملاحظة ودراسة اثر الانفعالات في سلوك الفرد وما يطرأ عليه بسببها من تغيرات شاملة عقلية

---

(١) حسن الساعاتي، «التحليل الاجتماعي للشخصية»، ص ٥٧.

وجسمية. ومن التجارب التي اجراها (Cannon) [1] لملاحظة ما يصحب الانفعال من تغيرات أنه فحص بأشعة اكس قطة بعد أن تناولت غذائها فرأى أن المعدة تقوم بحركتها المنتظمة في عملية الهضم. ثم أظهر امام القطة كلباً كبير الحجم، فلاحظ (كانون) انه بعد ان أدركت القطة الكلب، ظهرت عليها علامات الخوف المعروفة بكل التغيرات الظاهرية التي نلاحظها على القطط في حالة الخوف، ولاحظ في الوقت نفسه ان عملية الهضم وقفت دفعة واحدة. ووصل بملاحظاته الاكلينيكية الى أن الأوعية الدموية انقبضت في المعدة واتسعت في أطراف الجسم، وأن ضغط الدم قد زاد زيادة كبيرة في هذه الأطراف، وأن تغيرات عدة طرأت على إفرازات الغدد مما أدى الى ازدياد العرق وقلة اللعاب، وزيادة الأدرنالين الذي يساعد على رفع نشاط الجسم كله إلى درجة كبيرة فمن وظائف الأدرنالين مثلا مساعدة الكبد على اخراج السكر المخزون الى الدم وهذا السكر يحترق أثناء نشاط الكائن الحي، فيزوده بالطاقة والقدرة على الاستمرار في نشاطه.

فالانفعال اذن حالة نفسية جسمية ثائرة تتميز من الناحية الجسمية بتغيرات واضطرابات فسيولوجية شتى، في التنفس والدورة الدموية والجهاز الهضمي، وافرازات الغدد وغير ذلك من تغيرات الاحشاء التي تهيء الشخص للهرب أو الصياح في حالة الخوف أو القتال أو الدفاع في حالة الغضب، أو غير ذلك من أنواع السلوك التي تنصرف بها تلك الطاقة الانفعالية المتراكمة في الجسم واجهزته المختلفة. فاذا اعيقت هذه الطاقة الانفعالية عن الانطلاق في سلوك خارجي مناسب كأن امتنع الهرب أو الدقاع مثلا، زاد تراكمها واشتدت وطأتها، وتضخمت اضطرابات الأجهزة الجسمية والأحشاء. وقد يحدث للفرد أعراضاً من عسر الهضم أو الصداع أو القيء أو الامساك أو الاسهال... الى آخره. ومعنى هذا ان كبت الانفعالات لأي سبب من الاسباب يؤدي الى اضطرابات عضوية خطيرة. «ومن المشاهد المعروف أن الحقد أو الغيظ حين يخزن مدة طويلة في النفس، يؤدي الى حالة

---

(١) عبد العزيز القوصي **أسس الصحة النفسية**، ص ٣١، ٣٢.
أنظر كذلك فيما يتعلق بأثر الانفعالات في سلوك الأفراد دراسات في كتاب:
Collins & Drever, Experimental Psychology, pp. 194 - 198.

من ارتفاع ضغط الدم ليس لها أصل عضوي واضح، هي ما تسمى «ضغط الدم الجوهري» أو انفعال القلق المتكرر أو المزمن يخل توازن الكلسيوم في الدم مما قد يؤدي الى تلف الأسنان، وأن مرضى السل الذين يعانون ازمات نفسية يسير المرض فيهم أسرع من سيره فيمن لا يكابدون هذه الازمات. فإذا كانت حالة الغيظ المكظوم الوقتية تؤدي الى ارتفاع عارض في ضغط الدم فليس من الغريب ان يؤدي الغضب أو الكره المزمن الى ارتفاع مستمر في ضغط الدم. وإذا كان القلق الوقتي يصيب الفرد بعسر مؤقت في الهضم، فليس من الغريب أن يحدث القلق أو الخوف المزمن الموصول قرحة في المعدة[1].

ومن الثابت علميا أن هناك بعض أمراض جسمية ترجع في المقام الأول الى عوامل نفسية سببها مواقف انفعالية ترجع الى ظروف اجتماعية وتعرف هذه الأمراض بالأمراض السيكوسوماتية. «ومن اظهر الأمراض السيكوساماتية: الضغط الجوهري، قرحة المعدة، والاثنى عشر والربو وطائفة من امراض القلب والجدرة (Goiter) والتهاب المفاصل الروماتزمي ونوع من الصلع وكثير من حالات السكر والبدانة واللمباجو وعرق النسا وبعض اضطرابات الولادة عند النساء وأغلب امراض الجلد التي لا تنشأ عن تلوث[2].

وكما تؤثر الانفعالات في الناحية الجسمية فانها تؤثر أيضا في الناحية العقلية لأنها تحول بين الفرد وبين التفكير المنطقي وتجعله متهوراً. وقد تدفعه لأن يتصرف تصرفا يضر بنفسه أو بغيره كما أن الانفعال إذا اشتد فربما يشل صاحبه كلية عن التفكير.

ومما سبق يتضح لنا كيف تمتزج عناصر الشخصية وتتفاعل بعضها مع بعض ويؤثر بعضها في بعض. فشدة الانفعال تعطل التفكير، والتهور يفسد الحكم. والغباء او الجهل يؤثر في نفس المرء وكبريائه، وكذلك العاهات الجسمية. والاندماج في المجتمع ينمي بعض ما لدى الفرد من قدرات ومواهب، ونمو هذه المواهب قد يزيد من الروح الاجتماعية للفرد. ونحن نعبر عن هذا التفاعل في كلامنا العادي حين

---

(١) أحمد عزت راجح، اصول علم النفس. ص ٤٥٦.
(٢) المصدر نفسه. ص ٤٥٢.

نقول: «إن فلانا جريء في ثبات وتؤدة، أو في تهور واندفاع أو أنه سريع التصرف في قوة أو في ضعف أو هو على ثقة كبيرة في نفسه»[1].

وأما تأثير الناحية الخلقية في نواحي الشخصية الأخرى، فهو حصيلة تأثير الثقافة في الشخصية، وهو الباب الثالث من هذا الكتاب. والأخلاق من ابرز عناصر التراث الاجتماعي التي يتركها السلف الى الخلف. تلك العناصر التي يتغير بعضها ليساير روح العصر، فيصبح الناتج النهائي ثقافة المجتمع التي يتطبع النشىء بها.

ولما كان الباب الثالث من هذا الكتاب، يتناول اثر الثقافة في الشخصية فقد آثرنا، تجنبا للتكرار ان نرجىء الحديث، عن تأثير الناحية الخلقية في الشخصية الى الباب الثالث والأخير، الذي سنبين فيه بالتفصيل كيفية تأثر الشخصية بالثقافة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٧٣.

الفصل السادس

نظريات الشخصية

تمهيد :

اهتم الناس منذ القدم بدراسة الشخصية، وانشغل كثير من علماء النفس بوضع النظريات التي تحلل الشخصية، وتفسرها. وعلم نفس الشخصية، هو ذلك العلم الغني بتعدد النظريات التي تحاول تفسير الشخصية عن طريق تحديد بنائها، وديناميتها، ونموها، وارتقائها. ويعكس تنوع نظريات الشخصية، تعقد ظاهرة الشخصية وثرائها من ناحية، وحداثة علم الشخصية من ناحية أخرى. فهو علم حديث لم تكتمل معالمه إلا قبل القرن العشرين بقليل، ذلك على الرغم من أن هناك بعض الفلاسفة الذين تعرضوا لدراسة جوانب الشخصية منذ آلاف السنين.

وتختلف نظريات الشخصية فيما بينها اختلافا قد يكون كبيرا، كما قد يكون طفيفاً، ورغم ذلك فقد بقيت هذه النظريات حتى يومنا هذا، لأن كلا منها يساهم بشيء في فهم تلك الظاهرة المعقدة، وهي الشخصية، وكثيرا ما تعزى الاختلافات بين نظريات الشخصية الى الاختلاف في المفهومات المستخدمة أكثر منه في المعاني التي تتضمنها هذه المفهومات، كما أن علماء النفس قد يلجأون الى وضع مفهومات جديدة، حتى لا يتقيدون بالمفهومات القديمة، فيتعرضون الى ما وجه الى النظريات التي ارتبطت بها من انتقادات.

ويرجع تنوع نظريات الشخصية وتعددها أيضا الى اهتمام علوم كثيرة بالشخصية، فالى جانب علم النفس، نجد أن علوما أخرى مثل علم الاجتماع وعلم

الأنثروبولوجيا، والفلسفة، وعلم الحياة، وعلم الوراثة، وعلم وظائف الأعضاء تهتم أيضا بدراسة الشخصية.

ويلاحظ أنه يجب أن تتكون النظرية بصورة عامة من مجموعة من الفروض المرتبطة والمتعلقة بالظاهرات التجريبية قيد الملاحظة، ومن التعريفات التجريبية التي تسمح لمستخدمها بالانتقال من النظرية المحددة الى الملاحظة التجريبية، وبالتالي يجب أن تتكون نظرية الشخصية من مجموعة من الفروض تتصل بالسلوك الإنساني بالإضافة الى التعريفات التجريبية الضرورية، ويجب كذلك أن تكون نظرية الشخصية شاملة نسبيا، وأن تكون مستعدة لمواجهة أو لاصدار التنبؤات بخصوص نطاق واسع من السلوك الإنساني.

ولا ينطبق هذا التصور المثالي لنظريات الشخصية على نظريات الشخصية المتاحة حتى الآن وهذه هي النتيجة التي توصل إليها العالمان النفسيان «هول» و«لندزى» في مؤلفهما الشهير عن نظريات الشخصية، فبعد مسح شامل، وتحليل دقيق لأهم نظريات الشخصية، تبين لهما أن معظم النظريات ينقصها الوضوح، إذ أن نظريات الشخصية كثيرا ما تغلف في كتلة ضخمة من الصور اللفظية الحية التي تهتم باقناع القارىء المتردد ولكنها لا تعرض بوضوح الافتراضات النوعية التي تكمن وراء النظرية[1].

ولعل أكثر تصنيفات النظريات المتعلقة بالشخصية شيوعا تصنيفها في مجموعتين:

أولا - المجموعة التي تضم نظريات تقسم الشخصية الى انماط أو طرز تقوم على أسس جسمية أو عقلية أو مزاجية متنوعة. وهي بصفة عامة تهدف إلى تقسيم الأفراد إلى فئات يطلق على كل منها إسم، وتتصف كل فئة بعدد من الصفات الجسمية أو العقلية، أو المزاجية كلها مجتمعة.

ثانياً - مجموعة النظريات التي تذهب إلى أن الشخصية تتكون من عدد من العوامل

---

(١) هول ولندزي، **نظريات الشخصية**، ترجمة فرج أحمد فرج وآخرون، ص ٢٩، ٣٠.

أو الصفات أو السمات، وأن كل شخص يحمل من بين كل صفة من هذه الصفات قدرا قد يكون كبيرا أو ضئيلا، فالذكاء مثلا من الصفات الشخصية، وهو يختلف من فرد إلى آخر ومن مجموعة هذه الصفات ودرجة وجودها عند الفرد نستطيع أن نكون التخطيط السيكلوجي أو البروفيل السيكلوجي له[1].

أولا: نظريات الأنماط Types :

تعد النظريات التي تقسم الناس إلى أنماط متباينة يتميز كل نمط منها بمجموعة صفات معينة، من أقدم النظريات التي عرفها الفكر الانساني فيما يتعلق بالشخصية.

وهذه النظريات تحاول أن تحصر ضروب الشخصية في عدد من الأنماط قد يكون أساس تصنيفها هو العوامل الجسمية أو العقلية أو الادراكية أو الخبرات التي مر بها الانسان. ويذهب القائلون بنظريات الأنماط، الى أن الأفراد ينقسمون الى نوعين أو اكثر، وأنه لا وسط بينهما - مما لا يتفق مع ما كشف عنه البحث في علم النفس عن توزيع الصفات النفسية وفق المنحنى التكراري المعتدل، بمعنى أن معظم الناس يتصفون بصفة أو سمة ما بدرجة متوسطة، في حين أن القليل منهم هم الذين يتصفون بها بدرجة عالية أو منخفضة. وتأسيسا على ذلك يمكن تصنيف الناس إلى عدد قليل من الأنماط اذا استطعنا أن نتوصل إلى عدد من السمات الهامة، وأساليب الحياة الأساسية التي تميز بعض الأفراد تمييزاً واضحا.

ولعل أشهر وأول محاولة من هذا النوع، هي محاولة خوض الطبيب اليوناني «هبيوقراط» في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيث قسم الشخصية الى أربعة انماط هي الدموي (المتفائل) Sanguine ، والبلغمي (المتبلد) Phlegmatic ، والصفراوي (حاد المزاج) Choleric والسوداوي (المتشائم) Melancholic على أساس العناصر الأربعة، التي كان المعتقد أن الكون يتركب منها وهي التراب، والهواء، والنار، والماء، ويرى «هبيوقراط» أن الشخصية السوية أو المتزنة هي التي تنشأ من توازن هذه الأمزجة الأربعة، أي إذا اختلطت بنسب متكافئة، وينشأ المرض النفسي عندما

---

(١) عثمان فراج، **الشخصية والصحة النفسية**، ص ١٦.

يتغلب احدهما على الآخر. فإذا كان النمط السائد دمويا، كان الشخص نشطا سهل الاستثارة في غير عمق أو اتساع. وإذا تغلب المزاج السوداوي كان الشخص منطويا مكتئبا متشائما، بطيء التفكير والتأمل، ثابت الاستجابة وإذا كان الشخص صفراويا كان سريع الغضب والانفعال، حاد المزاج يغلب عليه الجانب الجدي، وهو قوي الاستجابة، وإذا كان المزاج بلغميا، كان صاحبه خاملا بليدا، بطيء الاستجابة، صعب الاستثارة.

«وقد تطورت هذه النظرية، واتخذت عدة أشكال حتى انمحت في العصر الحديث فكرة أن الأمزجة عبارة عن مخلوطات كيميائية تؤثر في شخصية الفرد، ولكن ليحل محلها فكرة الهرمونات (إفرازات الغدد الصماء) إذ أن الفكرة السائدة الآن هي أن للغدد تأثيرا مباشرا، ليس فقط في التكوين العضوي للجسم بل ايضاً في الصفات المزاجية للفرد، مثال ذلك، حينما تتوقف الغدة الدرقية عن العمل، يصبح الفرد ثقيلا، بطيئا، ويجف شعره وجلده. اما إذا كان إفرازها كثيرا فان الفرد يصبح سهل الاستثارة والتهيج كما تبرز عيونه اكثر من الوضع الطبيعي وافراز الغدة الثيموسية يعمل على اطالة فترة الطفولة وتأخير النضج»[1].

(ا) نظريات الأنماط التي تقوم على أسس جسمية:

١ ـ أنماط «كرتشمر» (Kretchmer) [2]

وكان هذا العالم طبيبا نفسيا Psychiatrist اهتم بملاحظة مرضاه الذين يعانون من حالات الفصام Schizophernic فوجد أنهم منطوون على انفسهم ويعيشون بمعزل عن الواقع، ويميلون الى الطول والنحافة، ويتميزون بوجوه بيضاوية Oval - faces وأطراف طويلة، اما المصابون بجنون الهوس الدوري Manic - depressivea فهم مندمجون مع البيئة، أمزجتهم سريعة التقلب بين التهيج، والاكتئاب يميلون الى السمنة، وقصر القامة، واستدارة الوجه، بدأ يقارن ملاحظاته على مرضاه، بالأفراد

---

(١) حلمي المليجي، علم النفس المعاصر، ص ٤٣٥.

(2)Cretschmer, E., *Phisique and Characte* (translated from second Edition by W.J.H. Sprott). 1925.

الأسوياء في الخارج، فلاحظ حالات متماثلة، وتبين له ان الـذين يشبهـون مرضى الفصام، او جنون الهوس يتميزون بنفس النمط من انماط الشخصية، ولكن بدرجة أقل حدة، وعلى هذا الاساس قسم الناس إلى نمطين:

(أ) الشخصية ذات النمط الدوري Cyclothyme

وترتبط بالتكوين الجسمي القصير المكتنـزذي الوجـه الممتلىء المستـدير، ويتميز الفرد الذي يدخل ضمن هذا النمط بسرعة التقلب بين الابتهاج والاكتئاب، يفصح عن انفعالاته بلا تحرج اجتماعي، مندفع واقعي، كثير التأمل الذاتي. متسامح. وإذا ساء تكيف الشخص الذي يدخل ضمن هذا النمط فانه يصبح سريع الانفعال لا يقدر المسئولية.

(ب) الشخصية ذات النمط الفصامي Schizothyme

ويكون الفرد ضمن هذا النمط أكثر استقرارا في مزاجه يجد صعوبة في التعبير عن انفعالاته، مثاليا، مكتفيا بذاته، غير متسامح، وإذا ساء تكيفه أصبح متعصبا متزمتا منطويا على ذاته، متبلدا في الظاهر، يعيش في عالم خاص.

وقد صادفت نظرية «كرتشمر» كثيرا من النقد، فذكر «أيزنك» أن الفصام وجنون الهوس لا يعدان صورتين متطرفتين للمزاجين الدوري والفصامي وانما ينطويان على بعد مختلف من أبعاد الشخصية. غير أن البحوث الحديثة أثبتت اجمـالا افتـراض كرتشمر القائل ان البعد الدوري الفصامي الذي يشترك كثيرا مع ذكره «يونج» من تمييز بين المنطوي والمنبسط ـ يعد عاملا اساسيا في الشخصية، ويوازيه البعد المكتنز ـ الضعيف في التكوين الجسمي.

٢ ـ أنماط شلدون Sheldon [1]

قام هذا العالم بتصـوير أربعـة آلاف شاب وهـم عراة من الجوانـب الأمـامية والخلفية والجانبية، ورتـب هذه الصـور في سلاسـل، محـاولا أن يعـوض الأنمـاط المحدودة الواضحة لكنه فشل في ذلك، وبدلا من ان يجد انماط واضحة التحديد،

---

(1) Sheldon, W.H., *Morphologic Types and Mental Ability*, 1927. person Res., 1927.

وجد ثلاثة أبعاد متمايزة (Dimensions of Variation) ، فلاحظ أن الحالات القصوى في كل بعد تماثل انماط كرتشمر: المكتنز، والقوي، والضعيف. فقسم الشخصية بناء على هذا، وعلى أساس المقاييس الجسمية النسبية إلى:

(ا) النمط الحشوي او البطني Endomorphy

ويتميز بكبر الأحشاء ونموها وقوة الجهاز الهضمي؛ وضآلة الهيكل العظمي ويتميز بحب الراحة والشراهة في الأكل والميل الى الاجتماع والحنو.

(ب) النمط العظمي أو العضلي Mesomorphy

ويتميز بقوة الهيكل العظمي وصلابته واعتداله واتساع المنكبين، وقوة العضلات، ويتميز افراد هذا النمط بالنشاط العضلي، والسيطرة والشدة والصراحة وحب المغامرة والمخاطرة.

(جـ) النمط الرخو أو الجلدي Ectu morphy

يتميز بطول الأطراف ونحافتها وضعفها، ويتميز الأشخاص الذين يقعون في هذا النمط بالمحافظة والتزمت والحساسية والقلق والابتعاد عن المجتمعات.

ثم قام شيلدون بعد ذلك، بدراسة عميقة على ٣٣ شابا ليرى ما إذا كان هناك أي ارتباط بين الأنماط الجسمية المختلفة، وبين الخصائص النفسية المتباينة، وفيها أعد ثلاث قوائم تضم عشرين سمة، وتحدد ثلاثة أنماط مختلفة للشخصية هي الحشوية (Viscerotonic) والجسدية (Somatotonic) والدماغية (Cerebrotonic) وهي تقابل انماط الجسم الحشوية، والعضلية، والجلدية على الترتيب، ويعين موضع الفرد على المقياس المتدرج السباعي بالنسبة لكل نمط وتعطى النتيجة مدلول مزاجه Index of temperament الذي يقابل نمطه الجسمي.

وفيما يلي الأنماط الثلاثة التي حددها شيلدون:

١ ـ المزاج البدني Somatotonic : يُميز الشخص بالاندفاع والنزعة العدائية في حركته؛ يميل إلى المجازفة والاثارة، نشط يميل إلى السيطرة على الآخرين وعلى المواقف، لا يشعر باحساسات الآخرين، ولا يهتم بها، صريح مقدام من الناحية

الجسمية؛ يميل إلى التنافس، منبسط موضوعـي، يسـارع بالعمـل عندمـا يقـع في مشكلة.

٢ ـ المزاج الحشوي Viscerotonic : وفيه يكون الشخص متكاسل بطيء الحركة يميل إلى الراحـة الجسـمية، وإلى الاجتماعـات والمشـاركة في الطقـوس والأنشطـة الاجتماعية، ويكره العزلة، متسامح في هدوء، ميال إلى الاحسان والعطف، يفهم طبائع الناس، يعرف من يصادق، ومن يهمل، يفصح عن انفعالاته بسهولة، يطلب مساعدة الغير عند الشدائد.

٣ ـ المزاج الدماغي: متيقظ دائم التنبه، متعقلا في تصرفاتـه، يخفـي مشاعـره ويكبت انفعالاته، يبتعد عن الاتصالات الاجتماعية، وخاصة الجديد منها، تعوزه الثقة في النفس، والاتزان لا يتمسك بالعادات الثابتة او الحياة. ويتميز بالتصلب والتوتر الحركي، يخطيء كثيرا في حق نفسه ويرتبك بسرعة يميل إلى الانفراد بنفسـه عندماتواجهه مشكلة، ولكنه يتميز بالحيوية والتصميم.

وقد قوبلت تجارب «شيلدون» بهجوم من عدد من الباحثين فانتقد البعض الطرق الرياضية التي عولجت بها النتائج ورموها بعدم التحرر.

واعتقد البعض الآخر أن تقـديرات الشـخصية كانـت متميزة، لأن القائمـين بالاستبار الشخصي كانوا أفراد على علم وايمان بنظرية شيلدون[1].

(ب) نظريات الشخصية التي تعتمد على أسس نفسية:

١ ـ نظرية يونج Yung (الأنماط الثنائية).

وهو عالم سويسري قسم الشخصية إلى نمطين رئيسيين وفقا لما يكون عليه الفرد من «اتجاه نفسي عام» اي من حيث «أسلوبهم العام في الحياة» الى منطوى ومنبسط.

النمط المنطوي Introvert

والمنطوي في نظرية يونج هو الشخص الذي يفضـل العزلـة وعـدم الاختـلاط

---

(١) أنظر عثمان لبيب فراج، **المرجع السابق**، ص ١٩ : ٢١.

وتحاشى الصلات الاجتماعية وتؤدي العوامل الذاتية اهم دور في توجيه سلوكه، وهو دائم التفكير في نفسه، يخضع سلوكه لمبادىء مطلقة وقوانين صارمة، دون مراعاة للظروف، وبلا مرونة. تعوزه المقدرة على التكيف السريع او التوافق الاجتماعي، كثير الشك في نيات الناس ودوافعهم، يحقق التوافق عن طريق النكوص والخيال والوهم، مسرف في ملاحظته صحته، وعلاج امراضه، ومظهره الشخصي.

النمط المنبسط Extrovert

وهو الذي يتميز بالنشاط، والميل الى مشاركة الناس في نشاطهم، وأعمالهم، ولا يهتم بصحته او مرضه، قادر على المواءمة بسرعة بينه وبين المواقف الجديدة الطارئة، ويختلف عن النمط الأول بأنه يعتمد على العوامل الخارجية في توجيه سلوكه، ويقبل على الدنيا في حيوية، وصراحة، ويكون صداقات بسرعة، ولا يحفل بالنقد، ولا يكتم ما يجول في نفسه من انفعال.

ولكل نمط رئيسي من هذه الانماط، اربعة أنماط ثانوية هي: التفكيرThinking والوجدانFeeling ، والاحساسSensation والحدسIntuition وذلك وفقا للاتجاه السائد عند الفرد.

«فالمنبسط الوجداني» مثلا هو الذي يتميز بالميول الاجتماعية لكنه مندفع، انفعالي، سهل الاختلاط، اما «المنطوي الوجداني» فهو عميق، وقوي في وجداناته لا يستطيع الافصاح عنها بسهولة.. وهكذا.

وقد أثبتت البحوث الحديثة في دراسة الشخصية، وقياسها بوسائل القياس الموضوعية، والاختبارات السيكلوجية، ان بعض الافراد يتميزون بالانبساط والبعض بالانطواء، وان كان معظم الافراد يكونون انماطا تاتي في مراتب متوسطة بين النمطين الرئيسين او أنهم يتميزون بشخصية متكافئة Ambiverts الا أن الأنماط الثانوية، رغم تمشيها مع الواقع الى حد كبير فهي لم تؤكد تأكيداً تاماً.

ويذهب بعض العلماء الأمريكيين الى أن «يونج» لم يأت بجديد في هذا التصنيف فان مفهوما الانبساط والانطواء كانا مستعملان في اوروبا قبل يونج بمدة لا تقل عن مائتي سنة او قبل ذلك بكثير.

٢ ـ **نظرية رورشاخ** Rorschach :

وهي تقسم الشخصية الى :

(أ) النمط المنبسط، ويتميز بالانفعال المتغير، والشعور الرقيق، والمهارة الحركية والذكاء العادي.

(ب) النمط المنطوي، ويتميز بالابداع والذكاء المتميز، وبالصفات الفردية والانفعال الثابت، وصعوبة الاتصال بالعالم الخارجي المادي والاجتماعي.

وهذه النظرية قريبة الشبه من نظرية يونج، وان أنكر صاحبها انه أخذها عنه وهي تقوم على استجابات الفرد لاختبار بقع الحبر.

٣ ـ **نظرية بافلوف** Pavlov

وهو عالم روسي اشتهر بأبحاثه على الكلاب والتعليم الشرطي، ويقسم الشخصية الى نمطين :

(ا) النمط الاستثاري : يستجيب بسرعة للمثيرات الشرطية، ويستمر محتفظا بهذا الاقتران مدة طويلة رغم وجود ظروف معاكسة لاستمراره.

(ب) النمط الكفي او السوداوي : وتتكون لديه المؤثرات الشرطية الموجبة ببطء ولا تستمر مدة طويلة، وتتكون لديه المؤثرات الشرطية الكيفية بسرعة.

نقد نظريات الأنماط:

واجهت نظريات الأنماط كثيرا من النقد منه :

١ـ انها وسيلة للوصف، ولكنها لا تفسر بناء الشخصية، وعواملها المؤثرة فيها هذا الى جانب انها لا تصف الشخصية بصورة تتفق مع الواقع الذي تتدرج فيه مستويات ودرجات اي ظاهرة من الظواهر. وإنما تقتصر فقط على الحدود القصوى أو الأطراف المتباعدة، كما توحي هذه النظريات بوجود حدود فاصلة بين الأنماط المختلفة، فهذه الأنماط لا تمثل الا الحالات المتطرفة من الشخصية، والحقيقة اننا نجد الناس خليطا من هذه الأنماط، على درجات متفاوتة تتبع في توزيعها المنحنى

التكراري الاعتدالي كاي صفة اخرى يشترك فيها البشر، حيث توجد الاقلية في طرفي المنحنى، بينما الجمع الأكبر في المنطقة الوسطى تماما كتوزيع اطوال الناس لا الى عمالقة، وأقزام فقط، بل الى درجات اغلبهم متوسط الطول.

٢ ـ بالرغم من اختلاف طرق التقسيم عند اصحاب هذه النظريات فهم متفقون على ان وراء كل نمط من الأنماط «تكوين طبيعي» هو المسئول عن الشكل الظاهري. إن النظرية التي تقوم على اساس افتراض مثل هذه التكوينات تعجز عن تحقيق الأهداف المطلوبة منها. فنظرية الأنماط في الحقيقة انما تدور حول مجهول يحتاج الى تفسير بينما هي يجب ان تتطلع الى الفهم والتفسير، والضبط، والتحكم.

٣ـ يؤخذ على هذه النظريات انها تنظر الى الشخصية من جانب واحد، او جوانب محدودة، ولا تمثل لما بين الشخصيات من فوارق اخرى هامة فالمنطوى قد يكون غبيا او ذكيا، طموحا، او بليدا. . الخ.

ثانيا ـ نظريات السمات:

السمة هي تلك الصفة، او الخاصية التي تمكننا من ان نفرق على اساسها بين شخص وآخر، أو هي استعداد عام أو نزعة عامة تطبع سلوك الفرد بطابع خاص وتشكله وتلونه وتعين نوعه، وكيفيته. وهذه الاستعدادات تعد عند اصحاب نظريات السمات اهم مكونات الشخصية، التي تعبر عن ميل الفرد للعمل او عن السلوك بشكل معين.

وقد اتجه علماء النفس الى الاهتمام بدراسة سمات الشخصية واحصاء تلك السمات او الصفات التي تميز شخصا ما عن غيره، وحاولوا تقدير هذه السمات تقديرا عدديا بقدر المستطاع والسمة بالمعنى العام هي اي علامة او صفة فطرية او مكتسبة تميز الفرد عن غيره من الناس. والأفراد يختلفون في سماتهم الجسمية والعقلية والمزاجية، وعلى هذا فان اردنا ان نحكم على شخصية فرد حكما شاملا، فلا بد ان نراعي ما لديه من المقومات والمميزات. وهذا هو الاساس الذي تقوم عليه هذه النظريات، حيث يسعى الباحث لاعداد قائمة من السمات يستطيع ان يستخدمها في وصف الناس.

ويستخدم الباحثون لتحديد ابعاد الشخصية عدداً من الطرق منها طريقة التحليل العاملي التي تحاول فهم الشخصية بالكشف عن أقل عدد من السمات البسيطة او العوامل المستقلة التي تتألف منها شخصية الفرد، تماما كما يفعل عالم الكيمياء عندما يمارس خواص المواد المختلفة عن طريق تحليل المادة الى عناصرها الاولية التي تتألف منها، والنسب التي توجد بها هذه العناصر.. الخ فبالمثل يلجأ الباحث النفسي في تقويمه للشخصية الى تحليلها الى عواملها الاصلية، عن طريق استخدام الاختبارات السيكلوجية وقوائم قياس الشخصية وطرق موضوعية اخرى.

والآراء الحديثة متضاربة حول ما اذا كانت هذه العوامل تمت بصلة ما الى صفات حقيقية اساسية من صفات الشخصية، او أنها مجرد تقسيمات مجردة abstract categories يراد بها تصنيف نتائج اختبارات الشخصية، ولكنا نرى أنه حتى إذا كانت عوامل الشخصية لا تعدو كونها مجرد مكونات رياضية، فهي شأنها شأن المركبات الفيزيائية، ذات قيمة تمكننا من تحديد معالم الشخصية على نحو اكثر موضوعية، فتبين لنا السمات المتآلفة والسمات المختلفة المستقلة على بعضها، وتساعدنا على معرفة تاثير تباين السمات على السلوك.

وقد ظهرت عدة نظريات للسمات، تحاول تفسير السلوك الظاهري للفرد على اساس افتراض وجود هذا الاستعدادات المعينة المسئولة عن سلوكه، وعن الثبات النسبي الذي يتسم به سلوك الفرد.

وقد تعددت نظريات السمات والقوائم التي أعدها الباحثون أمثال «ألبورت» (Allport » «وكاتل» (Cattel) «وجيلفورد» (Guilford) و «أيزنك» (Eysenck) و «بيرت» (Burt) والتي تناولت المقومات الآتية:

١ــ المميزات الجسمية مثال طول القامة، والصحة، والجمال، وتناسب تقاسيم الجسم... الخ.

٢ــ المميزات العقلية: وتشمل القدرة على التعلم، والتذكر، وسلامة الحكم، وما لديه من آراء ومعتقدات.

٣ــ المميزات المزاجية: ويقصد بها قوة الانفعالات، وثباتها او تقلبها ودرجة تغيرها.

٤ ــ المميزات الاجتماعية والخلقية: اي العـواطف والميول، والاتجاهات النفسية من انطواء او انبساط، او شفقة وقسوة، او ذكورة او انوثة، الخ.

٥ــ المميزات الحركية: وتشمل سرعة الحركة ـ الاندفاع او القدرة على الكف ـ المهارة والحذق... الخ.

جميع هذه العوامل تتحد في كل متكامل كما وكيفا لتكون الشخصية.

تكوين الشخصية عند «البورت» G.Allport :

يرى «ألبورت» انه يمكن ترتيب سمات الشخصية في مدرج هرمي تبرز فيه سمة رئيسية واحدة، او عدة سمات مركزية يتبعها سمات متعددة ثانوية.

ويرى ألبورت أن الأشخاص الذين يتميزون بسمة رئيسية تسيطر على سلوكهم، قليلين نسبيا، وأن المهم هو أن نعرف ما بين السمات من ترتيب وتنظيم، وأهمية بعض السمات بالنسبة للبعض الآخر لكي نتمكن من وصف الشخصية. وقد ميز «ألبورت» بين نوعين أساسيين من السمات الوراثية Genotypical والظاهرية Phynotypical . وهو يلفت النظر إلى أن ما قد يظهر على أنه السمة نفسها عند عدد من الأفراد، قد يرجع إلى مصادر مختلفة، فالانطواء مثلا عند شخص معين قد يكون نتيجة لبعض مؤثرات وراثية، وقد يكون عند شخص آخر نتيجة لعوامل بيئية بحتة، ومع هذا يبدو الشخصان متشابهين في هذه السمة[1].

ويعد «ألبورت» Allport من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية، وقد قدم كتابه الشهير «الشخصية: تفسير سيكلوجي» (١٩٣٧) عرضا تاريخيا ممتعا لكلمة «شخصية» يعد مرجعا لمعظم المشتغلين في هذا المجال وقد أرجع «ألبورت» مصدر كلمة شخصية إلى الأصل اليوناني (Persona) وقد أفاد من كتابات ششرون في هذا الصدد حيث أشار إلى وجود معان أربعة لكلمة «برسونا» هي:

---

(1) Allport, G.W., *Personality: a Psychological Interpretation,* N.Y. Holt. 1937.

١ - الشخص كما يبدو للآخرين وليس ما هو عليه في الحقيقة. وهي بهذا المعنى تتصل بالقناع.

٢ - مجموع الصفات الشخصية التي تمثل ما يكون الفرد حقيقة وهي بهذا المعنى تتصل بالممثل.

٣ - الدور الذي يقوم به الفرد في الحياة، سواء كان دورا مهنيا أو إجتماعيا أو سياسيا.

٤ - الصفات التي تشير إلى المكانة والتقدير. وهي بهذا المعنى تشير إلى المركز الذي يحتله الفرد والذي يحقق به الفرد دوره في الحياة.

وقد استخلص «ألبورت» من هذه المعاني الأربعة لشرون خمسين تعريفا لكلمة شخصية، وقد قدم «ألبورت» تعريفه النفسي للشخصية في كتابه (الشخصية: تفسير سيكلوجي ١٩٣٧)[1]. وقد أدخل على هذا التعريف تعديلا طفيفا في كتابه الأخير عن الشخصية (نمط ونمو الشخصية ١٩٦١) ويعد كتابه الأخير في الشخصية بمثابة إعادة صياغة كاملة لأفكاره السابقة التي عرضها في كتبه الثلاثة الأخرى الخاصة بدراسة الشخصية، وإن كان ذلك لا يمنع من أن تعريف الشخصية الذي وضعه «ألبورت» في كتابه الأول ١٩٣٧. لا يزال صالحا للاستعمال ومفيدا، وإن أدخل عليه تعديلا طفيفا فقط.

ويمكن أن نلخص أهم المبادىء التي تقوم عليها نظرية «ألبورت» في الشخصية فيما يلي:

أولا - العمومية والفردية:

أن من أهم الجوانب الهامة التي برزت في كتابات «ألبورت» الأخيرة، رغبته القوية في اتخاذ موقف وسط بين أنصار العمومية، وأنصار الفردية في الشخصية. ولكننا نجده أميل إلى النظرة الفردية. فهو يرى أن الانتقال من الخاص إلى العام، ومن العام إلى الخاص، يفيد الباحث في الشخصية. فما نعرفه عن الإنسان عامة، يساعدنا على تفهم فرد معين بالذات.

---

(١) انظر ما قبل، ص ١٦٥.

ومع ذلك ، يجدد «ألبورت» موقفه من العمومية والفردية هذه صراحة بقوله «وإذا كان هدفنا هو الكشف عن المبادىء العامة لنمو الشخصية، وتنظيمها وتعبيراتها، فإن الخاصة الجوهرية للانسان هي فرديته فهو مخلوق فريد لقوى الطبيعة، ومن المستحيل أن تجد شخصين متشابهين تمام التشابه، أو أن يتكرر الفرد نفسه مرتين، تذكر دائما في هذا الصدد بصمات الأصابع. فهي نموذج فريد في نوعه، ولا يمكن أن نجد بصمتان متشابهتان».

ويذكرنا قول «ألبورت» بأنه لا يوجد شخصان لهما مجموعة السمات نفسها، بموقف الفيلسوف الأغريقي هرقليطس الذي قال: إنك لا تنزل النهر الواحد مرتين، فإن مياها جديدة تجري دائما من حولك.

ورغم وجود تشابهات بين الشخصيات المختلفة، فإن «ألبورت» يرد هذه التشابهات إلى أثر الثقافة ومراحل النمو المختلفة وغير ذلك من عوامل لكن الفردية هي الأساس في نظره. وفردية كل كائن حي إنساني هي حجر الزاوية في الإطار النظري للشخصية عند «ألبورت»

ثانيا ـ **مبدأ الدافعية**:

نقد «ألبورت» النظريات العديدة التي وضعت لتفسير دافع السلوك البشري ومنها نظريات «مكدوجال» و «فرويد» غيرهم وحدد أربعة متطلبات يراها رئيسية لأي نظرية صحيحة في الدافعية وهي:

١ ـ أن نعترف بالطبيعة الحاضرة الراهنة للدوافع. فكل ما يدفع السلوك إنما يدفعه الآن. ومن هنا فإن أي نظرية دافعية يجب أن تنظر إلى الحالة الراهنة للكائن الحي وليس للماضي أهمية، إلا من حيث وجود نشاطه الدينامي في الوقت الحاضر. أي أن الدوافع الماضية لا تفسر شيئا، ما لم تكن هي أيضا دوافع قائمة في الوقت الحاضر.

٢ ـ أن تكون من النوع الذي يسمح بالقول بوجود دوافع من أنواع مختلفة متعددة. فالنظريات التي تذهب إلى القول بنمط واحد كالحوافز أو البحث عن اللذة، أو

الرجوع إلى اللاشعور، أو البحث عن القوة أو تحقيق الذات، إنما هي تمس جانبا واحدا فقط من الحقيقة. أما «ألبورت» فيرى أن دوافع الإنسان تتضمن كل ما يمكن فعله أو عمله، سواء أكان شعوريا، منعكسا، أو إراديا.

٣ ـ يجب أن تكون من النوع الذي يسمح بعزو قوى دينامية للعمليات المعرفية ـ كالتفكير والقصد. فالنظريات القديمة التي فسرت الدوافع بالغرائز (مكدوجل)، أو الطاقات الغريزية للهو (فرويد)، أو الصراع من أجل الحياة (دارون) أو الإرادة العمياء (شوبنهور) قد أضعفت من دور العقل، وجعلت الوظائف العقلية المعرفية مجرد خدم لغيرها من الوظائف.

وقد ظهرت اتجاهات جديدة ردت إلى الوظائف المعرفية أهميتها، فمنذ أكثر من ٤٠ سنة اقترح «جراهام والاس» إضافة غريزة أخرى إلى غرائز مكدوجل سماها «غريزة التفكير» كما أضافت مدرسة الجشطلت إلى العمليات المعرفية قوة دينامية. أما «ألبورت» فهو لا يميل إلى الفصل تماما بين الدوافع المعرفية، وتلك التي يطلق عليها نزوعية أو وجدانية. فالناس في رأيه يحاولون القيام ببعض الأعمال التي تشارك فيها النزعات والافكار، وتتعاون معا في أدائها. وبدلا من النظر إلى العلاقة بينهما كالعلاقة بين سيد ومسود، فإن الرغبة والعقل يمتزجان معا في دافع واحد يسميه ألبورت باسم «القصد»[1].

أبعاد أيزنك Eysenck

يعد أيزنك العالم الإنجليزي أحد الرواد الذين اعتمدوا على التحليل العاملي، فقد طبق هو ومساعدوه من الباحثين اختبارات موضوعية أجروها على عدد كبير من الافراد، وقاموا بتحليل نتائجها إحصائيا، وتوصلوا إلى أن هناك ثلاثة عوامل Factors أو أبعاد Dimensions أساسية في الشخصية هي الانطواء ـ الانبساط ـ Introversion extroversion والعصابية Neuroticism (أو الاستعداد للمرض العصابي Neurosis)، والذهانية Psychoticism (أو الاستعداد للمرض الذهاني Psychosis)

(١) انظر سيد غنيم، المصدر السابق، ص ٧٠٧: ٧٢٣.

ويرى أيزنك أن هذه سمات أصلية من سمات الشخصية، وليست مجرد مكونات رياضية، وأنه ليس هناك أي ارتباط سالب أو موجب يربط بين هذه الأبعاد، وعلى هذا فإن معرفتنا بمرتبة الفرد في أحد الأبعاد لا تتيح لنا معرفة شيء عن مركزه في البعدين الآخرين ووفقا لتقسيم «أيزنك» يعد الفرد موجودا في نقطة معينة على أي بعد من الأبعاد الثلاثة. مثال ذلك أن الأفراد المنحرفين من العصابيين أو الذهانيين، يختلفون عن الأفراد الأسوياء في الدرجة فقط، وليس في النوع، فهم إلى حد ملحوظ على درجة معينة من الصفات التي يكون عليها - إلى حد معين - كل فرد من الأفراد.

وإلى جانب العوامل الأساسية التي توصل اليها «أيزنك» أشارت بحوثه ، إلى وجود عوامل أخرى أقل انتشارا ، ينطوي عليها سلوكنا في بعض المواقف الخاصة منها:

المحافظة - الراديكالية. Conservatism – radicalism.

والبساطة - التعقيد. Simplicity. Complexity.

والصلابة - الليونة «Toughmindedness – Tendermindedeness.»

ويرفض أيزنك ، وأتباعه الأساليب التي لا تتضمن الاختبارات الموضوعية والتحليل الإحصائي في دراسة الشخصية، فهو يعتبر أن جميع الأوصاف، والتقسيمات التي تعتمد على الملاحظات الأكلينكية أو الخبرة، غير المحققة بالتجربة، غير عملية، ولا يجوز الاعتماد عليها. هذا رغم أن غيره من الباحثين يرى في اتجاه «أيزنك» هذا جمودا وتعسفا، ويعتبرون أن الباحث النفسي الذي يعتمد على الاستبصار بدلا من التحليل العاملي انما يسهم اسهاما لا غنى عنه في مجالات العلاج النفسي للشخصية غير السوية، وفي مجالات تطور المعرفة السيكلوجية.[1]

نقد نظريات السمات

١ - يقصر معظم العلماء سمات الشخصية على المميزات المزاجية والخلقية، ولا يدخلون في حسابهم ما يتسم به الشخص من مميزات جسمية وعقلية حين

---

(١) انظر عثمان لبيب فراج، المصدر السابق، ص ٣٠، ٣١.

يحكمون على شخصيته، فإن صاغوا اختبارات لقياس الشخصية كانت اختبارات لقياس ما لدى الفرد من سمات خلقية ومزاجية فحسب، ولكن عذرهم في ذلك أنهم يرون التمييز بين القدرة والسمة،فالقدرة هي ما يتميزون به بين الناس من حيث مقدار ونوع ما يعملون. والسمة هي ما تميز بينهم من

١ - حيث كيفية تصرفاتهم ونوع سلوكهم. بعبارة أخرى فالقدرة استعداد يبين كمية الانتاج والاستجابة، والسمة استعداد يعين كيفية الاستجابة. وهي بهذا المعنى تشمل العواطف، والميول والاتجاهات الخلقية والعقد النفسية، والمميزات المزاجية. وهذا هو المعنى الخاص والشائع لاصطلاح السمة.

١ - يرى بعض النقاد أن تحليل الشخصية إلى سمات، نوع من التجريد يفكك الشخصية ويفقدها وحدتها التي يتميز بها الفرد، فليست الشخصية مجموعة من السمات أو استعدادات منعزلة بعضها عن البعض قائمة بذاتها، أو مصفوفة بجانب بعضها، بل بناء متكامل من السمات يتفاعل مع بعضها البعض، ويؤثر بعضها في بعض على الدوام: فشدة الانفعال تعطل التفكير، والتهور يفسد الحكم، والغباء يؤثر في نفس المرء وكبريائه[1] وكذلك العاهة الجسمية قد تعطل اندماج الشخص في المجتمع، وتدفعه إلى تنمية بعض المواهب الخاصة.

٣ - يذهب بعض الباحثين إلى أن تحليل الشخصية إلى سمات بهذه الصورة، لا يبين لنا كيف تتضافر السمات أو تتنافر، هذا فضلا عن أنه قد يغفل عن بعض السمات فلا يضعها موضع اعتبار - وعادة ما يعبر عن سمات الشخصية بعد تقديرها برسم بياني يسمى الصفحة النفسية. هذه الصفحة تبين لنا نسبة كل سمة إلى الأخرى، ومدى قوة كل سمة بالنسبة للأخرى لكنها لا تعطي فكرة عن الشخصية في جملتها من حيث هي وحدة، ومن حيث هي صيغة لها خصائص تنفرد بها، ولا تنسحب على أي سمة من سماتها مثال ذلك مرونة الشخصية أو جمودها، وهي صفات تصف الأداء الوظيفي الكلي للشخصية.

٤ - إن تحليل الشخصية قد لا يساعدنا على فهم تنظيم السمات في الاطار الكلي

---

(١) انظر ما قبل ص ١٤٣ وما بعدها.

للشخصية، فقد يكون لدى شخصيتين نفس المجموعة من السمات ومع ذلك يختلف تنظيم السمات في كليهما. مثال ذلك، قد يتسم شخصان بالتملك والسيطرة، إلا أنه في الأول قد يكون حب التملك وسيلة للسيطرة على الناس، بينما في الثاني قد تكون السيطرة وسيلة الاستحواذ أو التملك [1]

٥ - يرى بعض النقاد أن السمات صفات غامضة مبهمة يفهمها كل إنسان فهما خاصا ؛ مما يؤدي الى سوء الحكم، هذا إلى جانب أنها متعددة متنوعة كثيرة، لذلك فليس هناك ما يضمن عدم اغفال بعض السمات أو عدم التمييز التام بين السمات التي قد تبدو متداخلة أو مكررة. وهذا الاعتراض هو الذي دعا إلى قيام منهج التحليل العاملي الذي اهتم بتصنيف المتغيرات المتعددة في مجموعات تعد كل منها وحدة تتداخل فيها الجزئيات المكونة لها.

٦ - سمات الفرد هي طرق سلوكه في ظل مثيرات بيئية. ويتوقف وجودها على التفاعل بينها، وبين البيئة. وهناك اعتراض على اعتبار سمات الفرد أشياء يملكها، فهو لا يملك الحياء، أو الانطلاق بل يشعر بالحياء في ظل ظروف معينة، وهو ينطلق في ظروف أخرى مما يؤكد أهمية الظروف الخارجية. [2]

ثالثا ـ نظرية التحليل النفسي:

صاحب هذه النظرية ورائدها هو سيجموند فرويد Sigmund Freud الطبيب النمسوي الذي عاش بين ١٨٥٦، ١٩٣٩ وعانى في طفولته شعورا بالنقص، نتيجة لما كان يلاقيه من اضطهاد بسبب ديانته اليهودية، والتحق بكلية الطب في جامعة فينا، واهتم بدراسة النواحي العقلية، وتعرف أسبابها واشترك مع عالمي التشريح «بروك» Bruk و«ميزت» Meynct في بحوث على الجهاز العصبي. وفي عام ١٨٨٥ تحددت قيمته كطبيب ومحاضر في الباثولوجيا العصبية، فأتيحت له فرصة التعمق في

---

(١) انظر حلمي المليجي، المصدر السابق، ص ٣٣٩.
(٢) انظر عثمان لبيب فراج، المصدر السابق، ص ٣١، ٣٢

بحوثه، وكان اول من ادخل مفهوم اللاشعور في ميدان علم النفس، ووضع نظريته عن التحليل النفسي، وأقام النظرية الجنسية، ووضع تفسيرا جديدا للغرائز ، وتطورها وفتح آفاقا جديدة أمام الباحثين في العلوم الطبية والنفسية والاجتماعية.

ويرى فرويد أن الانسان يولد مزودا بطاقة نفسية سماها «اللبيدو» وأن تلك الطاقة هي التي تكمن وراء السلوك الانساني، وأن موطن هذه الطاقة هو «الذات البدائية» أو «الهو» Id وهي الاساس العقلي للانسان، وأن النزعات التي يحتويها «الهو» نزعات كلها همجية بدائية لا شعورية غير منطقية تتعارض مع مطالب الحياة الاجتماعية، ومن ثم كان من الضروري ان تكبت هذه النزعات في مهدها اي منذ ولادة الانسان بفعل الضغوط الاجتماعية وعوامل التربية، وان احتكاك الانسان بغيره من الناس يظهر جزءا من «الهو وفي هذا الجزء تتكون القيم والأفكار الاجتماعية المتمدنة، ويطلق على هذا الجزء «الأنا» أو الذات Ego ، وهي أداة الانسان للتعامل مع غيره، وهي الجزء العاقل، أي المنطقي في التقسيم العقلي عند فرويد،

ويتعرض «الأنا» أو الذات لضغوط الحياة الاجتماعية الخارجية من ناحية، ولضغوط النزعات الهمجية في «الهو» من ناحية أخرى، إذ يقوم الآباء أو المشرفون على تربية الطفل، من بداية حياته بنهيه عن المحرمات الاجتماعية، وعقابة على السلوك، الذي لا يرضى عنه المجتمع، وتمتص «الأنا» هذه التوجيهات، ويؤدي هذا الامتصاص إلى تكوين جزء ثالث هو الرقيب الذي يقوم في الكبر ، مقام الوالدين والمشرفين في الصغر، والرقيب معظمه لا شعوري، لأنه يتكون في المرحلة الأولى من الحياة بطريق لا شعوري، وهذا الجزء يسمى «الأنا العليا» أو الضمير اللاشعوري Super Ego ومعنى هذا أن مدرسة التحليل النفسي (فرويد) ترى أن النفس الأنسانية تقوم على ثلاثة أجهزة، تعمل في مستويات ثلاثة: اللاشعور، وما قبل الشعور، والشعور. وهذه الأجهزة هي: [1].

١ - الهو أو الذات البدائية: Id

هو المقر الأصلي للبيدو، ومنبع الطاقة البيولوجية النفسية بأسرها. وهي

(1) Freud, S., *The Ego and the Id,* 1927. London: Hogarth Press 1927.

مركز النزوات الغريزية، وموطن الرغبات المكبوتة، ومخزن النزعات الهمجية العدوانية التي ورثها الانسان عن الحيوانات الدنيا، وهي المستودع الذي تكمن فيه الدوافع الفطرية البدائية، أو كما سماها فرويد صبيانية Infantile ولا أخلاقية Amoral وهي لا شعورية كلية، ولو أنها تسمح لما يكمن فيها من دوافع غريزية بدائية Iddish ان تطل من آن لآخر في الشعور اطلالة سريعة، وغالبا ما تكون مخجلة للشخص مفزعة له. وهي تهدف الى الاشباع بأي أسلوب، وتسعى وراء اللذة وتفادي الألم، وتتميز بالاندفاع وعدم التقيد بالقيم الاجتماعية والأخلاقية أو المبادىء المنطقية أو حدود الواقع وقيوده، وهي تسيطر على سلوك الفرد في مراحل طفولته المبكرة وفي بعض حالات المرض النفسي أو العقلي ولدى المنحرفين ذوي النفوس المعتلة. ويمكن اعتبار «الهو» الصورة البدائية الشخصية.

وتذهب مدرسة التحليل النفسي الى أن أهم دوافع «الهو» هي دافع الجنس ودافع العدوان. ولمفهوم الجنس عند فرويد معاني أكثر شمولا من المعنى الشائع عن الجنس في أذهان الناس، فالجنس في نظر «فرويد» يضم كافة الظواهر النفسية التي لها أصلا صلة بالجنس ، وكل ما يشبع حاجات الفرد، ويحقق له اللذة، والرضا، والارتواء، فهو يدخل في معنى الجنس حب الذات، وحب الأم، والأخوة، والأصدقاء، وكافة انواع النشاط التي تحقق للفرد اللذة والاشباع. أما دافع العدوان فهو عند فرويد، يعني القوة التي تعمل على تأكيد الذات، وهي طاقة فطرية تهدف الى الاشباع وتحطيم مصادر الألم، والحرمان وتتوقف شدة دافع العداوة في عوامل بيولوجية، وأخرى متعلقة بالغدد الصماء، كما تتوقف من جهة اخرى على درجات الحرمان وتكرار حدوثه في مرحلة الطفولة.

٢ ـ الذات أو «الأنا» : Ego

عندما تنمو حواس الطفل وأجهزته العصبية، والعضلية وغيرها وتزداد خبرة الفرد بالحياة، وبتفاعله مع الآخرين، يتبلور شعوره بذاته، ويدركها متميزة عن العالم الخارجي، كما يدرك العالم الخارجي متميزا عن ذاته وهذا الشعور بالذات هو بداية تكوين الجهاز الثاني في شخصية الفرد، وهو «الأنا» أو الذات، وهي الجزء الشعوري الواعي أو الجانب المتمدين المعقول من شخصية الفرد، والذي نعرف عنه

الكثير عادة، وهي التي تتعامل مع المجتمع، والواقع الخارجي مباشرة، ونعد حلقه الاتصال بين الواقع، والذات البدائية.

وتنشأ الذات «الأنا» أصلا من الدوافع الفطرية، وتنفصل عنها كنتيجة للخبرة والتدريب، والتعلم أثناء مراحل النمو، وتنمو تدريجيا، وتسهم في تكوينها عوامل أساسية كالذكاء، والتكوين البدني، ودرجة الاتزان الانفعالي، ودرجة ضغط الدوافع الداخلية، كما أن من عوامل تكوين «الأنا» هو معرفة الغير، وتمثيل «الأنا» بالآخرين فالفكرة التي تكونها عن انفسنا تحوي كثيراً من المعاني المستمدة من معرفة الغير، حتى «أنه يمكن القول بأن معرفة الغير سابقة على معرفة الذات، كل هذه عوامل تحدد صورة «الأنا» وهي الاطار الذي يرى الانسان من خلاله نفسه، ويحدد على أساسه انماط سلوكه التي تعتبر - الذات - هي المسئولة عنه، فهي التي تشعر بضغط الدوافع الداخلية والنزعات الغريزية، وتدرك وجودها وحاجتها للاشباع، وهي التي تدرك في نفس الوقت، ظروف البيئة الخارجية وأوضاع، المجتمع، وما تفرضه الاسرة ، والمدرسة والسلطات الدينية والمدنية والأوساط الاجتماعية المختلفة من أنظمة وتشريعات، ومبادىء، وأحكام وقيم، وأوامر، ونواهي، ومعايير مثالية للسلوك ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة بالدوافع الفطرية، فتحد من حرية اشباعها، أو تتصدى لاحباط نشاطها احباطا تاما.

ومسئولية «الأنا» هي محاولة التوفيق بين هذه الدوافع من جهة وبين الواقع الخارجي من جهة أخرى، اي ربط العلاقات؛ وتنسيقها بين الفرد والعالم الخارجي وضبط السلوك على أساس اشباع حاجات الفرد في الحدود التي يرسمها المجتمع، وتجنب ما يخرج عن تلك الحدود، ومالا يتفق مع الواقع، فكأن للأنا وظيفة اخرى هي الاشراف على الجهاز الحركي الارادي، فعن طريقه تتحقق الدوافع بالفعل أو لا تتحقق.

٣ - الذات العليا أو الرقيب الأعلى: Super Ego

وهو ما نسميه بالضمير الأخلاقي الذي يحاسب الذات «الأنا» على تصرفاته وأفعاله، ويقوم بمراقبة النزعات الهمجية، والدوافع الفطرية البدائية غير الاجتماعية

في «الهــو» أو الذات البدائية، فتمنعها من الانطلاق الى الخارج.

والذات العليا أغلبها شعورية تشمل الأفكار والمشاعـر والاتجاهـات، والميول السلوكية التي يمتصها الفرد، ويتمثلها من والديه، والمشرفين على تنشئته، وتربيتـه وتعليمه، من النظم الاجتماعية المختلفة التي ينتمي اليها منذ طفولته خلال مراحل نموه المختلفة، يستوعبها الفرد حتى يصبح، وكأنمـا هي جزء من نفسـه يردعـه من الداخل، ويمثل العادات، والتقاليد والقوانين والقيم الأخلاقية للجماعة في داخـل شخصيتـه. لذلك فإن لعملية التنشئـة الاجتماعية للفـرد، في جو يسـوده التوافـق والاشباع المتزن للدوافع، علاقة مباشرة في تكوين ذات عليا قوية متزنة. ففي تفاعل الطفل مع أبويه تتبلور في نفسه أوامرهما، وتعاليمهما عن الخير، والشر، والصواب، والخطأ، والحق، والباطل، والعدل، والظلـم، تتبلـور جميعهـا على شكل سلطـة داخلية تقوم مقام الوالدين في كل ما يقومان به من توجيه، ونقد، وثواب وعقاب، حتى يحمل من نفسه رقيبا على نفسه يرشده الى ما يجب، وما لا يجب عملـه، ويثيبه، او يؤنبه على كل ما يفعل، هذا الرقيب هو الذات العليا.

فالذات العليا في واقع الأمر، مثلها مثل «الهو» انما هي استمرار لا شعوري يمتد من عهد الطفولة، فهي تنطوي على الأفـكار الأخـلاقية التـي ظلـت تتـراكم منـذ الطفولة، افكار تكونت منذ أن كان الصواب «والخطأ» بالنسبة للطفل مجرد مفاهيم اعتباطية لا عقلية Non - rational ، فالطفل لا يفهم السبب فيما يفرضه عليه الكبار من ممنوعات فهو يتعلم بعض الأعمال المعينة تعد أعمال سيئة غير مقبولـة، بنفس الطريقة التي يتعلم بها أن حيوانا معينا يسمى البقرة. وكما أنه ليس هناك مستويات من مفهوم البقرة فليس هناك كذلك مستويات من السوء. فالشيء في نظره اما سيئا او لا، فمعنى التناسب، والقدرة على التمييز بين المعتـدل، والمتطـرف، من الأعمال السيئة، تطورات تاتي متأخرة في مراحل النمو.

وهكذا تتكون الذات العليا خلال مرحلة الطفولـة المبـكرة السابقـة للمرحلـة العقلية Pre - rational في التطور الاخلاقي. فالذات العليا يمكن أن توصف بانها ضرب من الضمير اللاشعوري Unconcious conseeince الذي غالباً ما تتعـارض مقاييسه القاسية غير المعقولة، مع مطالب الضمير الشعوري المستنيرة المعقولة نسبيا

والتي تكون عواطفنا الأخلاقية، فالذات العليا هي التي تجعلنا نشعر بوخزات الذنب تخزنا حين نسلك سلوكا لا يؤنبنا عليه ضميرنا الشعوري [1].

تلك هي الأجهزة النفسية التي تتكون منها الشخصية في نظر مدرسة التحليل النفسي التي لا بد أن تعمل جميعها - وفي حالة التنشئة الاجتماعية السليمة في تعاون وانسجام مع بعضها ومع بقية اعضاء الجهاز النفسي العام، لتحقيق اكبر قدر من التوازن، والاستقرار النفسي للفرد، فاذا تصورنا بروز نزوة غريزية في «الهو» فانها تتجه إلى «الأنا» لمحاولة اشباعها، ولكن «الأنا» السليمة تتريث، لترى إن كان الموقف الخارجي لا يسمح بذلك أو تشبعها إذا كانت الظروف الخارجية لا تتعارض مع ذلك الاشباع، وفي نفس الوقت تكون «الذات العليا» او الرقيب الأعلى ساهراً يتدخل إذا كان في النزوة شيء يتعارض مع القواعد والاتجاهات التي استقرت فيه، فيضغط على «الأنا» لرد الرغبة، وكبتها.

وهكذا تخضع «الأنا» لقوى ثلاث:

(أ) الدوافع والحاجات، والنزوات، والرغبات التي تكمن في الذات البدائية وما تتطلبه من اشباع على أساس مبدأ اللذة وتجنب الألم دون اعتبار لمبدأ الواقع.

(ب) الأوضاع الاجتماعية والثقافية Cultural الخارجية السائدة والقوانين والسلطات، وما تفرض من أوامر، ونواهي تعترض سبيل الدوافع الفطرية، وتصطدم مع النزوات التي لا تتفق معها.

(جـ) الذات العليا أو الرقيب الأعلى، وما يفرضه عن صد، وتحريم لاشباع تلك الدوافع والنزوات، وتمسك بالقيم الاخلاقية التي امتصها واستوعبها خلال عملية التنشئة الاجتماعية للفرد.

و«الأنا» القوية التي نمت نمواً سليما، هي التي تستطيع التوفيق بين هذه القوى

---

(1) Freud, S., *The Basic Writings of Sigmund Freud,* 1938. N.Y. Modern Library, 1949

الثلاث دون أن تتأثر أو تصاب باضطراب في بعض او كل وظائفها، اما «الأنا» الضعيفة غير الناضجة، فهي التي تتخاذل امام تعارض تلك القوى، فتقع مثلا تحت سيطرة «الهو» بما يحوي من دوافع غريزية، وعندئذ يسود مبدأ اللذة، ويهمل مبدأ الواقع، وقيود المجتمع، والذات العليا، ويصبح السلوك منحرفا، ويأخذ اشكالا عدوانية مختلفة، كالتخريب والاعتداء.

ومن جهة أخرى قد تخضع «الأنا» الضعيفة لتأثير الذات العليا فتصبح «أنا» متزمتة مشلولة غير قادرة على القيام بوظائفها بما يحقق اشباع الحاجات الأساسية. وتوازن الشخصية؛ فتقع فريسة للصراع؛ والتوتر والقلق؛ والتأنيب والشعور بالذنب والحيرة، مما يؤلف في مجموعه قوة ضاغطة تكبت الدافع كبتاً تاماً؛ وتزج به في اعماق اللاشعور منعاً له من الظهور؛ وهذا الكبت في ذاته اكبر خطر على الصحة النفسية للفرد، وعامل هام في ظهور الأعراض المرضية؛ وكثير من الانحرافات السلوكية، والأمراض العصبية والذهانية بانواعها ودرجاتها المختلفة، والتي تعبر اعراضها تعبيراً رمزيا عن الصراع المحتدم بين الدوافع من جهة، وبين الذات العليا؛ والواقع الخارجي من جهة اخرى.

مما سبق يتضح أن للانسان اكثر من نفس واحدة:

١ - «نفس امارة»؛ تتمثل في الهو: في الغريزة والشهوة الجامحة.

٢ - «نفس لوامة». تتمثل في الأنا الاعلى. الذي يلوم الانسان. ويعاقبه حين يخطىء.

٣ - نفس مطمئنة واقعية عاقلة تتمثل في الأنا؛ وهو جانب الحكمة والتعقل في شخصية الانسان. وهو القسم الواعي القادر على ضبط النزعات، وتصريفها حسب الواقع الخارجي الذي يتعامل معه.

وهذا التقسيم مألوف للناس في كل العصور؛ فنحن نقول: «يجب على الانسان ان يحارب نفسه. وأن يقاوم شهواته، وألا يمتثل للاغراء». ونحن نقول: «إن فلانا يستطيع الاضرار بغيره؛ لكن ضميره لا يخلصه» كذلك تصور الاندفاعات العمياء للهو حين يرتكب الفرد ذنبا فيقول: «لا أدري ماذا دفعني الى هذا، لعن الله

الشيطان»؛ وفي هذا القول اشارة إلى ان المذنب يعد الدافع غريباً عن نفسه» لا ينتمي اليه؛ بل إلى كائن أو شيء آخر يسيطر عليه ويتحكم فيه.

بل إن التقسيم السالف الذكر، تقسيم قال به كثير من الفلاسفة الأقدمين فقد قسم أفلاطون النفس ثلاثة أقسام: العقل ومركزه الدماغ، والقوة العصبية ومركزها القلب، والقوة الشهوانية ومركزها البطن.

ثم جاء فرويد فلم يزد كثيرا على أن أقام هذه التقسيمات الدارجة، والفلسفية على أساس علمي مستمد من مشاهدة المرضى والأسوياء من الناس وتحليلهم، ومن ملاحظة أسلوب الأطفال، والانسان البدائي.

وينبغي أن نلفت النظر إلى أن «الهو» و «الأنا» و «الأنا الأعلى» ليست أشياء أو «ملكات» أو أجزاء مستقلة من الشخصية بل ثلاث قوى نشطة تتفاعل، وتتصارع في شخصية واحدة، ومن تفاعلها واصطراعها يتحدد مصير الدافع الذي يستيقظ ويتطلب إشباعا.

بقيت ناحية نريد تأكيدها، لأنها مدعاة إلى اللبس عند من يقرأون تعاليم «فرويد» تلك أن هذه القوى الثلاث يتداخل بعضها في بعض تداخلا كبيراً ففى «الأنا» أجزاء لاشعورية وقبل شعورية، وفي (الأنا الأعلى) جزء شعورى وهو ما يسميه علماء الأخلاق (الضمير الشعورى).

ولا بد لنا من أن نعترف بأن نظرية التحليل النفسى قد أضافت إلى مفهوم الشخصية الانسانية الكثير مما يمكن إجماله فيما يلي:

١ - رسمت لنا مدرسة التحليل النفسى صورة ديناميكية للشخصية الانسانية من حيث هى ميدان لصراع كثير من الدوافع والقوى، وهو ميدان يصطرع بدوره مع ميدان البيئة الاجتماعية والثقافية، وهى صورة لا تقتصر على الوصف فقط، بل تتجاوزه إلى التفسير ومعرفة الأسباب والحق أن هذه الصورة تعد أهم ما أضافته مدرسة التحليل النفسى لا إلى نظرية الشخصية فحسب، بل وإلى علم النفس بوجه عام.

٢ - من هذه الصورة يتبدى لنا أن السلوك انما هو محصلة قوى متدافعة ومتعارضة

لدوافع وعمليات يتم أغلبها خارج نطاق الشعور.

٣ - لم تعد (الذات الشاعرة) هي الموضوع الوحيد لعلم النفس، كما كانت بالأمس، فقد ظهر أن من يريد أن يعرف (نفسه) فعليه أن ينفذ إلى أعماقها، وإلا يأخذه الغرق فيقف عند معرفة ذاته السطحية الشاعرة.

٤ - وجهت نظرية التحليل النفسي إلى حقائق هامة لم تكن معروفة من قبل فقد كان فرويد أول من اكتشف حقيقة العلاقة بين شخصية الراشد وظروف تنشئة الطفل، ومعاملته وأثر الخبرات الانفعالية التي يمر بها على شخصيته. وقد أكد فرويد بنظريته ان الشكل النهائي للشخصية يتحدد نتيجة لتفاعله مع العوامل النفسية الداخلية ذلك التفاعل الذي يتم معظمه على مستوى لا شعوري[1].

نقد نظرية التحليل النفسى:

١ - لم يقم تصور حقائق التكوين النفسى للشخصية أساساً على أسلوب علمى في التفكير، بل قام على أساس التأمل الباطنى الذاتى، ولهذا عجزت النظرية عن التفسير العلمى لتلك الحقائق. فنظرية التحليل النفسى لم تخل من المفاهيم الغيبية التي لا يمكن أن تفسر بعوامل محسوسة بل أنه يمكن القول أن مفهومات فرويد في تفسيره لجوانب الشخصية هى مفهومات أقرب إلى التصورات الخرافية منها إلى المفهومات العلمية. فهو يتحدث مثلا عن (اجهزة) الشخصية ويجعل الشخصية أشبه بمسرح تتصارع فيه قوى مختلفة وكأن لها كيانا خاصاً. فهناك الهو، والأنا والأنا الأعلى والاخير يتصارع مع الأول، والثانى يحاول أن يوفق بينهما. وهناك العقد النفسية الموجودة في اللاشعور، والتي تحاول جاهدة أن تدخل إلى مسرح الشعور لتثير القلق والاضطراب في الأنا، والتي يحاول الرقيب بينها وبين مسرح الشعور، فتلجأ إلى الرمزية والتخفى والقيام بصورة مقنعة لعلها تفلح فيا تريد كل هذا أقرب إلى التشبيهات والصور الخرافية ولا يمكن لمثل

(1) Freud, S., *An Outline of Psychoanalysis,* 1949, (N.Y. Norton. 1949).

هذه التشبيهات أن يستند إليها في بناء نظرية علمية في الشخصية [1].

٢ - لم تعد فكرة التطور النفسي (التي فسرت عن طريقها هذه النظرية سمات الشخصية) مقبولة بين علماء النفس المعاصرين، بعد أن كشفت الدراسات الانثروبولوجية عن الاختلافات بين شخصيات الأطفال في المجتمعات البدائية، وشخصيات أقرانهم في المجتمعات التي تناولها (فرويد) بالوصف، فضلا عن الاختلاف بين أطفال المجتمع الواحد مما يبين أن التعميمات التي وصل إليها فرويد لا تقوم على أساس من الملاحظة الموضوعية.

٣ - لم تقرر المبادىء التي وضعتها هذه النظرية شيئا عن العلاقات الوظيفية بين الظواهر النفسية، وبين العوامل المستقلة التي تؤدى إليها، فمن جهة اعتبر أن الطفل يسعى لاشباع دوافعه البيولوجية تحقيقا لمبدأ «اللذة» ومن جهة أخرى قال «أن هذا السلوك قد يتعدل تبعا لمطالب المجتمع، ومبدأ الواقع، وأخيرا نادى بمبدأ «إجبار التكرار» عندما تحدث عن شذوذ بعض السلوك عن هاتين القاعدتين في حالة اتجاهه اتجاها مضادا لرغبات المجتمع دون تحقيق إشباع الفرد، وبذلك فقد جعل المبادىء هى التي تتبع الظواهر وليس العكس لهذا لا نستطيع أن نقول أن نظرية التحليل النفسى قد وصلت إلى قوانين علمية بالمعنى الصحيح، بل أن ما أسمته مبادىء لا يخرج عن كونه تصنيف للظواهر السلوكية سلوك يحقق اللذة وسلوك يرضى عنه المجتمع، وسلوك يؤدى إلى المرض النفسى.

٤ - تقوم نظرية «فرويد» كما هو الحال في نظرية «مكدوجل» - على أساس الغريزة والفرق بينهما هو أن «مكدوجل» جعل أساس الحياة الفطرية عند الانسان عدة غرائز، في حين أن فرويد جمع تلك الغرائز، وجعل الغريزة الجنسية هى الأساس الوحيد للحياة النفسية، ولو أنه عدل هذه النظرية بعد ذلك، وجعل أساس الحياة غريزتين هما غريزة الحياة وغريزة الموت، وفسر كافة أنماط السلوك الانسانى بهاتين الغريزتين: فالانسان يأكل ليبقي على حياته، لأن عنده

---

(١) هول ولندزي، **نظريات الشخصية**، ص ٠٩٧.

غريزة الحياة. وإذا ألقى الانسان بنفسه إلى البحر لينتحر ـ وهو ما يتعارض مع الاتجاه الأول، لم يؤ د هذا إلى تساؤ ل أو عجب، فالجواب جاهز وهو أن غريزة الموت في هذه الحالة قد تغلبت على غريزة الحياة. وكذلك تصبح الحرب حتمية لوجود غريزة الموت فكأن الانسان إذا أتى عملا يساعده على التكيف في الحياة كان تفسير ذلك أنه يرجع إلى غريزة الحياة، وإذا سألناه ما دليلنا على وجود هذه الغريزة كان الجواب هو أن السلوك ذاته يؤ دى إلى التكيف للحياة، وبالمثل إذا سألنا لماذا يأتى الانسان سلوكا يؤ ذي نفسه أو مجتمعه كان الجواب لأن عنده غريزة الموت، وإذا سألنا ما الدليل على وجود هذه الغريزة عدنا إلى السلوك نفسه الذى هو بحاجة إلى تفسير لنفسر وجود الغريزة والواقع أن هذا الاتجاه لا يفيد في التنبؤ بالظواهر السلوكية لأننا ننتظر حدوث السلوك ثم نرجعه إلى وجود الغريزة المناسبة ومن المعلوم أن التفسيرات التي تأتى بعد حدوث الظاهرة لا تفيد إلا قليلا، ولكن النظرية الجيدة بخلاف هذا هى التى تمكن من يستخدمها بالتنبؤ مقدما بما سوف يحدث.

٥ ـ صور «فرويد» الفرد على أنه بطبيعته، وبما يولد به من نزعات غريزية، معد للحياة الاجتماعية وأن المجتمع يعمل منذ البداية للضغط على الفرد، وكبت نزعاته الطبيعية ويمكن القول بأن الانسان عند فرويد شرير وعدواني بطبعه. وأن المجتمع والضغوط الاجتماعية هى عوامل التأديب والتهذيب. والواقع أنه ليس هناك دليل على أن الانسان يولد بطبيعته خيرا، أو شريرا، بل أن الدراسات الأنثروبولوجية العديدة تشير إلى أن الانسان وسمات شخصيته تتشكل في إطار الثقافة التى ينشأ فيها، والعلاقات الاجتماعية التى يتأثر بها[1].

نظرية أدلر:

درس أدلر علم النفس، والاقتصاد السياسى، والاجتماع، ثم أتم دراسة الطب في جامعة فينا وفي أثناء دراسته للطب كان يحضر محاضرات في الفلسفة وعلم النفس وقد بدا حياته العملية عام ١٨٩٨ طبيبا للعيون ثم اشتغل طبيبا عاما، وتخصص في

---

(١) انظر عثمان لبيب فراج، **المصدر السابق**، ص ٤٣، ٤٤.

دراسة الأعصاب ثم عرف فرويد، وكان من المولعين بآرائه وكان من بين الجماعة التي تجتمع مع فرويد مساء الأربعاء وأصبح أحد الأعضاء المؤسسين لجمعية التحليل النفسي بفينا ولكنه سرعان ما بدأ يكون لنفسه رأيا مستقلا يختلف عن رأي فرويد وانسحب من جماعة فرويد عام ١٩١١ حين طلب فرويد من أتباعه أن يقبلوا نظريته عن الميول الجنسية قبولا مطلقا وكون أدلر مع سبعة آخرين الجماعة الحرة للتحليل النفسي والتي أطلق عليها في عام ١٩١٢ اسم «جماعة علم النفس الفردي» وقد أصبح له أتباع كثيرون في مختلف أنحاء العالم وتوفي في اسكتلندا ١٩٣٧.

وتتميز أفكار «أدلر» بالوضوح والتحديد كما تتميز نظريته بالسهولة والبساطة، وكان على عكس فرويد ويونج اقتصاديا في استخدامه للمفاهيم، فقد استخدم عددا قليلا نسبيا من المفاهيم جيدة التحديد.

وكان أدلر من أصحاب النزعة الانسانية والتي ينتمي إليها بعض المحدثين من علماء النفس، من أمثال «كارل روجرز» و «جوردون ألبورت» وكان متفائلا بالنسبة لمستقبل الانسان إذ يرى أن الانسان لديه الفرصة ليصبح أفضل وأحسن مما هو عليه الآن، وأن يتحرك قدما الى الامام، وأن يقلل من مشكلاته في الحياة، ويصل إلى درجة كبيرة من التوافق مع الحياة. ومن هنا كان اهتمام أدلر بالطريقة التي يتبعها الفرد في تكييف نفسه مع المجتمع فالانسان في نظره كائن اجتماعي في أساسه ويربط نفسه بالآخرين، ويفضل المصلحة الاجتماعية على المصلحة الأنانية ويكتسب أسلوبا خاصا للحياة يغلب عليه الاتجاه الاجتماعي.

ويمكن أن نلخص نظرية أدلر في الشخصية باستعراض بعض المبادىء الهامة التي تقوم عليها هذه النظرية:

١ - القصور:

إن فكرة أن الانسان مخلوق تدفعه مشاعر القصور، وقد تكونت لديه عندما كان يمارس عمله كطبيب في فينا مع مطلع هذا القرن. وفي ذلك الحين لاحظ أدلر أن كثيرا من مرضاه يميلون إلى تركيز شكواهم حول أعضاء معينة من الجسم. وقد أكتشف «أدلر» قبل ظهور الطب النفسي الجسمي - أن الإنسان يتحول إلى المرض لكي يحل

كثيرا من مشكلاته غير الجسمية. وغالبا ما تكون الأعراض التي يشكو منها المرضى غير مرتبطة بالأعضاء التي يشكون منها. وقد توصل «أدلر» من ذلك إلى نظرية القصور العضوى. فالانسان يولد ولديه استعداد لقصور أحد أعضاء جسمه. ويقصد بقصور العضو عدم استكمال نموه أو توقفه، أو عدم كفايته التشريحية أو الوظيفيه، أو عجزه عن العمل بعد المولد. ووجود ميل هذا العضو القاصر يؤثر دائما على حياة الشخص النفسية، لأنه يحقره في نظر نفسه ويزيد شعوره بعدم الأمن، لكن هذا الشعور بعينه هو الذي يدفع الفرد على بذل المزيد من الجهد لتعويض هذا الشعور بالقصور. وأحيانا يتخذ هذا التعويض أشكالا من العنف تبلغ حدا متطرفا لا ننتظره منه، وهو ما يعرف باسم التعويض النفسي الزائد. وتعويض العضو القاصر يحدد عادة أسلوب حياة الفرد والطريقة التي يهدف بها الفرد إلى تحقيق السيطرة، فالشخص ضعيف البنية في الطفولة غالبا ما يعوض هذا القصور البدني بممارسة الرياضة بشكل غير عادي لتقوية بنيته، وقد يصبح فيما بعد من الأبطال المحترفين. وأمثلة التعويض المشهورة كثيرة منها: ديموستين الأغريقي الذي بلغ شأوا عاليا في الخطابة رغم ما كان لديه من عيوب كلامية في طفولته وبتهوفن الذي أخرج أجمل قطعه الموسيقية بعد أن أصيب بالصمم.

ولم يلتزم أدلر حدود القصور البدني وما يتطلبه من تغير في الحياة النفسية بل عمم فكرته حتى شملت القصور المعنوي والاجتماعي. وبالمثل لم يقصر أدلر حديثه على الحالات المرضية، بل وسع فكرته حتى شملت أيضاً على القصور الاجتماعي أو الاقتصادي الذي يثقل كاهل الفرد فيضيق به ذرعا حتى لا يرى في الدنيا إلا خصما لدودا.

وهكذا تطور مفهوم القصور عند أدلر. فمن القصور العضوى إلى النزوع للرجولة إلى المفهوم العام بأن كل إنسان لديه مشاعر القصور منذ الولادة، وأنهم يبدأون صراعهم مع الحياة ليتغلبوا على هذا القصور ويبلغوا مستويات أعلى من مستوياتهم الراهنة.

٢ ـ السيطرة:

ويرتبط مبدأ القصور بمبدأ السيطرة وتطوره في تفكير أدلر. وقد بدأ «أدلر» بقبول فكرة فرويد في الجنس كمحرك أساسي في الحياة، لكنه سرعان ما تحرر من هذه الفكرة، وذهب إلى القول في مرحلة من مراحل تفكيره، إلى أن الإنسان حيوان عدواني، وأنه بسبب هذا السلوك العدواني بقي الإنسان على قيد الحياة، مما دعاه الى استنتاج أن العدوان أكثر أهمية من الجنس، لكنه بعد ذلك انتقل في تفكيره إلى مرحلة تالية، وهو أن الإنسان يهدف فحسب إلى السيطرة، وأن الرغبة في السيطرة تبزغ من الإحساس بالقصور أو العجز أو عدم الكفاية. ومع المفهوم الجديد للسيطرة استمر أدلر يشعر أن الرغبة في أن تكون مسيطرا رغبة عامة، وخاصية من خصائص شخصية الإنسان.

وهكذا سار تفكير «أدلر» في تتابع يسير من الجنسية إلى العدوانية إلى القوة إلى السيطرة، وجدير بالذكر أن السيطرة عند أدلر لا تعني فرض السيطرة على الآخرين أو الامتياز الاجتماعي أو الزعامة أو المنزلة المرموقة في المجتمع، وإنما يعني به السيطرة على الذات.

٣ ـ أسلوب الحياة:

أسلوب الحياة هو المبدأ الأساسي الفردي عند أدلر، فهو الذي يفسر لنا تفرد الشخص. ذلك أن الشخص من أجل أن يبلغ السيطرة على مشاعر القصور عنده، فمن الضروري أن يتخذ أسلوبا محددا في حياته وهذا الأسلوب المحدد المعين للسلوك الذي يترسمه الفرد طول حياته هو ما أطلق عليه أدلر اسم «أسلوب الحياة».

وأسلوب حياة الفرد هو نتاج قوتين: ذات داخلية موجهة، وقوى خارجية بيئية تساعد أو تعوق أو تعيد تشكيل الاتجاه الذي ترغب الذات الداخلية في سلوكه.[1]

٤ ـ الذات الخلاقة:

الذات الخلاقة عند «أدلر» هي صاحبة السيادة في بناء الشخصية. إن الإنسان هو

---

(١) سيد غنيم، **المصدر السابق**، ص ٥٩٢، ٥٩٥.

أكثر من كونه حيوانا لديه استعدادات تخضع لماضيه الغريزي الموروث، كما أنه أيضا أكثر من كونه نتاج البيئة. انه مفسر الحياة ومترجمها، فهو ينمي تراكيب الذات عن ماضيه الموروث، ويترجم انطباعات حياته اليومية، ويبحث عن خبرات جديدة لإشباع رغبته في التفوق والسيطرة، ويصهر هذا كله في خلق ذات تختلف عن كل ذوات الآخرين، ويعبر عن أسلوب حياته الخاص. فالذات الخلاقة هي خطوة إضافية وراء أسلوب الحياة. انها ذات أصلية مبدعة تخلق شيئا فريدا فهي إذن ذات خلاقة.

٥ ـ الأهداف الوهمية:

رغم اعتقاد أدلر أن الماضي له أهمية بالغة في الحياة النفسية للفرد ـ فمنه ينمو أسلوب حياته، وكذلك ذاته الخلاقة، فإن الإنسان تحركه توقعاته للمستقبل أكثر مما تحركه خبرات الماضي، فالمستقبل هو الذي يشكل ما سوف تفعله ذاته الخلاقة في أية لحظة معينة.

وعلى الرغم أن الإنسان تحركه حاجات عضوية ومادية كالمأكل والملبس، والمأوى، إلا أن هذه الحاجات الأساسية قد تتمثل للشخص بصور وهمية أو رمزية. فالسيارة قد تعني للمراهق أو الشاب شيئا أكثر من مجرد وسيلة انتقال، فهي رمز التقدير والمباهاة وغيرها من الرموز التي قد تكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمراهق أو الشاب. بمعنى آخر أن الأهداف التي يتطلع إليها الفرد قد تكون وهمية. وقد اعتقد «أدلر» ـ متأثراً في ذلك بكل من كونت،وشوبنهور، ومل ـ أن كثيرا من الأفكار ليست في الحقيقة إلا نوعا من القصص والأساطير يعمد العقل إلى خلقها ليستعين بها على حل المشكلات التي تعرض له، وأنه يتخذ الرموز، بعد أن كانت طريقة للقول ووسيلة للتعبير، غاية في نفسها يندفع المرء إلى تحقيقها، ويعمل على الوصول إليها.[١] والهدف قد يكون وهما وخيالا لأنه بعيد عن الواقع، كما أنه قد يكون سهل المنال بالنسبة للنفس التي تهدف إلى السيطرة . ومع ذلك فلا يمكن فصل

---

(٢) إسحق رمزي، **علم النفس الفردي**، ص ٩١.

هذه الأهداف الوهمية أو عزلها عن أسلوب حياة الفرد وذاته الخلاقة. فالإنسان يسير إلى الأمام نحو السيطرة تجذبه دائما مثل هذه الأهداف.

٦ ـ الاهتمام الاجتماعي:

وهذا المبدأ الأخير يلقى الضوء على تطور نمو الفكر عند أدلر فبعد أن نظر إلى الإنسان باعتباره كائنا عدوانيا، انتقل إلى النظر إليه باعتباره متعطشا للقوة، ثم في ضوء فكرته عن القصور طور نظريته إليه ككائن حي يسعى إلى التفوق والسيطرة بما يكشف عنه من أسلوب حياة ثابت وذات خلاقة. وفي آخر المطاف وسع أدلر من نظرته إلى الانسان باعتباره كائنا حيا له اهتمامات اجتماعية وبذلك يتجه البحث إلى أثر الجماعة في السلوك. وفي ذلك يقول أدلر: «ان الشعور الاجتماعي، كما يتضح الميل إلى الظهور في ميول الطفل الأولى، وخاصة في شغفه بتوثيق صلاته مع غيره، وفي المتعة بما يبدونه نحوه من عطف وحنان»[1]. وهذا الميل الاجتماعي في نظره يتصف بانه فطري عام بين أفراد الجنس شأنه في ذلك شأن الغريزة وهو يحتاج للتعبير عن نفسه، إلى الاتصال بالآخرين في الجماعة التي يعيش الفرد وسطها. ويقول أدلر: «إن دراسة الحياة الواقعية للفرد، لا تدفعنا إلى تقدير أهمية العنصر الاجتماعي فيها، إذ أن الفرد لا يصير فردا إلا في مجتمع. وإذا كانت مدارس علم النفس الأخرى تفرق بين ما يسمى سيكلوجية فردية وسيكلوجية اجتماعية، فنحن لا نؤمن بهذه التفرقة على أي وجه من الوجوه»[2].

وقد اهتم أدلر أهمية كبير بالميل الاجتماعي حتى أنه نسب إليه نشوء التفكير، والعقل، والمنطق والأخلاق، والجماليات، وقال أنها جميعا أمور لا تنشأ إلا في المجتمع. وأنها في نفس الوقت روابط بين الأفراد، فهي تحفظ الثقافة من التحلل «ذلك أن كل الكفايات الإنسانية لا يمكن أن تنمو وتنضج إلا من خلال اهتمامنا

---

(1) A. Adler, *Understanding Human Nature,* Fawcett Publications Inc. Greenwich, Inc 1954.

(٢) أدلر، نقلا عن سيد غنيم، **سيكلوجية الشخصية**، ص ٦٠٦، ٦٠٧.

برفاقنا في المجتمع، وليست اللغة أو القراءة أو الكتابة سوى جسر للوصول إلى غيرنا من الناس. كما أن التفكير من الأمور المشتركة بينهم جميعا؛ وليست وظيفة مستقلة في كل واحد منهم، لأن فهم الأمر هو فهمه على الوجه الذي يخيل إلينا أن الناس جميعا يفهمونه عليه»[1].

الشخصية في نظريات التحليل النفسي الحديثة:

هناك عدد من نظريات الشخصية ترتبط برباط وثيق بمدرسة التحليل النفسي ولكنها مع ذلك ليست متماثلة ، ويبرر تشابه أصلها معالجتها تحت موضوع واحد.

وقد ظهر ميل ملحوظ لدى بعض أنصار مدرسة التحليل النفسي الحديثة إلى الإقلال من دور الغرائز، وإبراز دور المتغيرات السيكلوجية والاجتماعية التي يعتقد أنها تشكل الشخصية، أي قل الحديث عن الغرائز وتقلباتها أو نظرية الليبيدو على حين زاد الحديث عن اكتسابات سمات الشخصية عن طريق الخبرة ونتيجة الظروف الاجتماعية. وتعد كارين هورني، إريك فروم وهاري ستاك سوليفان، من أهم أنصار هذا الاتجاه الذي يركز الاهتمام حول العوامل الاجتماعية، وبشكل يتفق أساسا مع نظرية أدلر. فقد شرعت هورني كما شرع فروم، في محاربة الاتجاه الغريزى القوى في التحليل النفسي والاصرار على أهمية المتغيرات النفسية الاجتماعية للشخصية، كما دعم «سوليفان» في نظريته عن العلاقات الشخصية المتبادلة مكانة نظرية الشخصية القائمة على العمليات الاجتماعية.

ويمكن في النهاية أن نطلق على نظريات كل من «أدلر» و «فروم» و «هورنى» و «سوليفان». **النظريات النفسية الاجتماعية** لأنها رغم جذورها النفسية الأصلية فإنها لا تهمل الجانب الاجتماعي والثقافي في تفسير الشخصية. وسوف نشير إلى أهم هذه النظريات الاجتماعية النفسية بعد «أدلر» ذلك أننا سبق لنا أن استعرضنا نظرية أدلر النفسية الاجتماعية بالتفصيل.

---

(١) اسحق رمزي، **المصدر السابق**، ص ١١٤.

أولا - نظرية كارين هورنى:

عرضت هورنى نظريتها في الشخصية في كتبها التي أهمها:

The Neurotic Personality of Our Time (1937)
Self Analysis (1942)
New Ways in Psycho analysis (1939).
Our Inner Conflicts (1945)
Neurosis and Human Growth (1945).

كانت هورنى تعتقد اعتقاداً أكيداً في قابلية الطبيعة البشرية للتغير نحو الأحسن. فقد كانت متفائلة بالنسبة لتطور الكائن الحي، وشجعها على ذلك الصفات الإيجابية في الجنس البشري. ومن هنا كانت تعتبر نظريتها نظرية بناءة لأنها قد تؤدي حقيقة إلى حل العصاب. وإذا كان السلوك العصابي هو محور تفكير (هورنى) فإن حل هذا السلوك العصابي يمكن أن يؤدي إلى خلق مجتمع أكثر صحة وسعادة. وتنعكس هذه النظرة المتفائلة البناءة في كتابها «صراعاتنا الداخلية» حين قالت: «أعتقد أن الإنسان لديه القدرة والرغبة في تنمية إمكانياته في أن يصبح انساناً وديعاً، هذه الإمكانيات، تذبل إذا استمرت علاقاته مع الآخرين - وبالتالي مع نفسه في حالة اضطراب. وإنى أعتقد أن الإنسان يمكنه أن يغير ويظل يغير، طالما كان على قيد الحياة».

وتذهب هورنى إلى أن الثقافة الحاضرة (وتعنى بها على وجه الخصوص الثقافة الغربية التي عاشت فيها) من شأنها أن تخلق قدراً كبيراً من القلق في الفرد الذي يعيش في هذه الثقافة. وهي ترى أن المرض النفسي أو العصاب هو المصاحب الطبيعي للانسان الذي يعيش في مثل هذا المجتمع الصناعي اليوم. وقد خصصت الموضوع الأساسي لكتابها «الشخصية العصابية في زماننا» لموضوع الصراع في الثقافة، والأساليب المختلفة التي يقوم بها الفرد في توافقه مع ظروف الحياة. وليس أدل على تأثير الاتجاه الثقافي في تفكيرها من قولها: «أن العصاب مع أنه مصطلح طبي نفسه في أساسه، إلا أنه لا يمكن إستخدامه الآن دون الإشارة إلى مضموناته الثقافية». وكذلك قولها: «إن مفهوم ما هو عادي يتغير ليس فقط بتغير الثقافات، ولكن أيضا داخل الثقافة الواحدة بتغير الأزمنة».

وقد أظهرت النظرية الاجتماعية لهورنى مفهوماً أوليا عندها، ونعنى به مفهوم (القلق الأساسي). وقد أوضحت هذا المفهوم في كتابها عن الشخصية العصابية في زماننا حين ذكرت أن استثارة هذا القلق ـ وليس الدوافع الجنسية والعدوانية التي قال بها فرويد ـ هي الأساس لفهم شخصية الفرد. وقد عرفت هورنى هذا القلق الأساسي بقولها: (إنه الإحساس الذي ينتاب الطفل بعزلته وقلة حيلته في عالم يحفل بامكانيات العداوة). وهناك مجموعة من العوامل المعاكسة في البيئة يمكن أن تؤدي إلى هذا الشعور بإنعدام الأمن لدى الطفل: التحكم، والسيطرة المباشرة وغير المباشرة، واللامبالاة والإهمال، الاتجاهات المتضاربة، والإسراف في الإعجاب أو عدم وجوده إطلاقا، الإسراف في الحماية وما إلى ذلك.

فالبيئة المنزلية والتركيب الاجتماعي داخل الأسرة له على هذا الأساس أهمية كبيرة في نظرية هورنى، ففي هذا التركيب الاجتماعي للأسرة، وفي إستجابة الطفل له يكمن مفتاح نمو شخصية الفرد.

والطفل القلق يحاول أن يستجيب لمشاعر القلق عنده باتخاذ أساليب مختلفة توافقية. وإلى درجة كبيرة غير عقلية إذا كان القلق شديداً ومستمراً.

وهذه الأساليب التوافقية تتبلور في أنماط واقعية مستمرة في صورة حاجات عصابية. وتذهب هورنى إلى أنه من الممكن تجنب الصراعات، أو حلها إذا ربى الطفل في أسرة يتوفر فيها الأمن والطمأنينة، والثقة المتبادلة، والمحبة والاحترام والتسامح، والدفء العاطفي. وبهذه الصورة ترجع «هورنى» الصراع إلى العوامل والظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد أكثر مما تجعله جزءاً من طبيعة الإنسان، وأنه لا مفر من ظهوره. فنظريتها هنا أقرب إلى أدلر منها إلى فرويد.

نظرية هاري ستاك سوليفان:

يعد «سوليفان» صاحب مدرسة جديدة في الطب النفسي وتعرف نظريته باسم (نظرية العلاقات الإنسانية المتبادلة في الطب النفسي)، وترتبط هذه النظرية بفكرته عن الشخصية. ورغم أن سوليفان يعترف أنه يدين عقليا لفرويد، إلا أن نظريته تحمل شبها كبيراً بنظرية أدلر.

ويرى «سوليفان» أن الشخصية توجد فقط حيث توجد العلاقات المتبادلة بين الأفراد، أي أن وحدة الدراسة في نظره هي الموقف الشخصي المتبادل وليس الشخص. فالحديث عن الشخص كموضوع للدراسة حديث أجوف في نظره، لأن الفرد لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد بمعزل عن الآخرين. فالشخصية إذن لا يمكن دراستها ما لم يكن هناك تفاعل متبادل على الأقل مع شخص آخر، رغم أن هذا الشخص الآخر ليس من الضروري أن يكون موجوداً وجوداً مادياً. فتفاعلات الشخص قد تكون مع صورة أو حلم أو شخصية وهمية أو ما أشبه ذلك.

ولم ينكر سوليفان أهمية التأثيرات الوراثية، وعوامل النضج، بل إعترف بأهميتها خلال مراحل الطفولة والمراهقة، واقترح وجود تسلسل هرمى في الحاجات الفسيولوجية التي تنشأ عنها توترات يمكن أن تختفي عن طريق إشباع الحاجات، لكنه مع ذلك يرى أن ما هو إنساني بصورة متميزة، هو نتاج التفاعلات الاجتماعية، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الخبرات الشخصية المتبادلة بين الأشخاص يمكن أن تؤثر بطريقة مباشرة في حاجاته الفسيولوجية، وتغير الأداء الفسيولوجي لوظائفه، وتغير الشخص من كائن حي عضوي إلى كائن حي إجتماعي له طرقه ذات الطابع الاجتماعي في التنفس والهضم والإخراج. . . الخ[1].

ومن أهم المبادىء التي أقام عليها سوليفان نظريته في الشخصية مبدأ العلاقات الشخصية المتبادلة، فهو يرى أنه لا جدوى من أن ننظر أو نفكر في شخصية إنسان في ذاتها بإعتبارها شخصية مفردة، وفي عزلة عن شخصيات الآخرين، فلا يمكن أن يوجد لإنسان ما شخصية قائمة بذاتها ومنعزلة عن الآخرين. فالعلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد هي إذن أساس وجود الشخصية. فمنذ اللحظة الأولى التي يوجد فيها الإنسان على ظهر الأرض يدخل في علاقات متبادلة على الأقل مع شخصية شخص آخر يتعهد بالرعاية وهي شخصية الأم. وهذا الاتصال بشخصيات الأخرين يظل مستمراً طول الحياة سواء أخذ صورة اتصال فعلي أو صورة اتصال وهمي.

فالعلاقات المتبادلة بين الناس بعضهم بعضا هي أساس نظرية سوليفان. لكن

---

(١) أنظر، هول ولندزي، **المصدر السابق**، ص ١٨٢.

هؤلاء الناس الذين يتم معهم التبادل لا يتطلب الأمر وجودهم، فقد يتم التفاعل المتبادل بين الشخص وأشخاص خياليين كشخصية «علاء الدين» أو «السندباد»، أو هؤلاء الأبطال الخرافيين الذين نقرأ عنهم في الكتب أو الشخصيات التاريخية أو الروائية. وفي مثل هذه الحالات فإن الشخصية الخيالية أو الوهمية أو التاريخية. تقوم على تشخص كائن حي إنساني يقوى الصورة الخيالية. وبذلك يحدث هناك تفاعل متبادل مع هذه الشخصيات. وليست الشخصيات الوهمية والخيالية هي التي يمكن أن يكون لها تأثير متبادل على الفرد. بل وأيضاً صور أحلام الليل يكون لها تأثير متبادل، وذات طابع شخصي متبادل ما دامت تعكس في العادة علاقات الحالم بغيره من الناس

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن العمليات العقلية الأساسية كالإدراك والتذكر والتفكير والتخيل. وجميع العمليات النفسية الأخرى يمكن أن تتضمن في العلاقات الشخصية المتبادلة. فالأنشطة العقلية لهذه العمليات ترتبط بشخصيات أخرى، وليست ديناميات داخلية خالصة للسلوك بعيدة عن تأثير الشخصيات الأخرى: فكل ما نفعله هو في نظر سوليفان نتيجة النظام الاجتماعي والتفاعل بين الأشخاص.

وعملية الإدراك تظهر متضمنة في العلاقات الشخصية المتبادلة: مثال ذلك أن الشخصية التي تربى وتنشأ في ظروف يحوطها الثراء تختلف نظرتها إلى ما تعرضه المحلات التجارية الراقية، عن تلك التي تربى وتنشأ في ظروف يحوطها الفقر والفاقة. فالنظام الإدراكي يختلف عند كليهما. والإدراك يتأثر في هذه الحالة بماضي الفرد وخلفيته وتربيته، وغير ذلك من العوامل التي تكونت خلال حياته مع الشخصيات الأخرى التي يعيش معها.

والحال بالمثل بالنسبة للعمليات العقلية الأخرى. فنحن نتذكر الأشخاص والأشياء التي حدثت كذلك نتيجة التفاعل الاجتماعي المتبادل، وماله اتصال بالأشخاص الآخرين. وتفكيرنا يتشكل أيضا حسب الشخصيات التي نعيش بينها. فالشخصية التي تعيش في ثقافة حضرية يختلف تفكيرها إلى حد ما عن تلك التي تعيش في بيئة بدوية أو ريفية. إن الأجهزة العصبية، والعضوية قد تكون واحدة متماثلة لدى كل منهما، ولكن النتاج النهائي لعملية التفكير مختلف.

وليس معنى ما ذكرناه أن «سوليفان» ينكر اساسا كل فرصة لدراسة الشخصية الإنسانية المفردة، فثمة مبادىء كالديناميات والشخصيات، والعمليات المعرفية هي دراسات لشخصية الفرد. إن مثل هذه الدراسة ضرورية إذا ما أردنا فهم طبيعة الإنسان. لكن من الضروري أيضاً ألا يفقد الباحث اهتمامه بأنظمة التفاعل المتبادل التي تعمل دائما خارج الشخصية الفردية وحولها[1].

تعليق:

نستنتج مما سبق أن جميع نظريات الشخصية (بإستثناء نظريات الأنماط التي تقوم على أسس جسمية كنظريتي كرتشمر وشلدون) لم تهمل الجانب الاجتماعي، أو التأثيرات الاجتماعية على الشخصية، فالفرق بينها إنما هو فرق في الدرجة فقط وليس في النوع وأمثلة ذلك كثيرة ومتعددة.

فما أنماط «يونج» التي قسمها إلى قسمين منطوي ومنبسط، إلا أنماطا مبنية على إتجاه الفرد نحو المجتمع. أما «ألبورت» فنجده قد أكد أن الشخصية كل متحد من النزعات النفسية والجسمية التي توجد في مجال معين وهذا المجال ليس مجالا فيزيائياً طبيعياً، بل هو مجال حيوي إنساني - إجتماعي. وقد ذهب مذهبه كل من «بيرت» و «جيلفورد» من علماء النفس.

أما فرويد رائد مدرسة التحليل النفسي، فقد أعطى وزناً كبيراً للتأثيرات الاجتماعية في تكوين شخصية الفرد، ودورها البالغ في سني حياة الفرد الأولى، ثم في طفولته المتأخرة وشبابه. وكان الفضل الأعظم لهذه المدرسة. والإضافة الكبرى لها، هو أنها رسمت صورة ديناميكية للشخصية الإنسانية من حيث هي ميدان لصراع كثير من الدوافع والقوى، وهو ميدان يصطرع بدوره مع ميدان البيئة الاجتماعية والثقافية بما تحويه من نظم، وتشريعات ومبادىء وأحكام، وقيم، وأوامر، ونواهي، ومعايير مثالية للسلوك، وعادات وتقاليد، وقيم أخلاقية للجماعة.

أما النظريات النفسية الاجتماعية التي يمثلها علماء كثيرون أبرزهم «أدلر» و

(1) أنظر، سيد غنيم، **المصدر السابق**، ص ٦٢٧، ٦٦٨.

«هورني» و «فروم» و «سوليفان» فقد تبلورت عن اتجاه يمثل حركة أكبر تقلل من الدور البيولوجي للتحليل النفسي، وذلك بالتقليل من دور الوراثة، وزيادة الدور الذي يقوم به المجتمع في تشكيل الشخصية أو نقص تكوينها.

ويرجع الفضل إلى هذه المدرسة في تأكيدها الواضح والصريح للأثر البارز للمتغيرات الاجتماعية، في تشكيل الشخصية، وبذلك قل الحديث عن دور الغرائز وتقلباتها أو نظرية الليبيدو، على حين ازداد الحديث عن إكتساب سمات الشخصية عن طريق الخبرة، ونتيجة الظروف الاجتماعية.

وهكذا نرى في النهاية أن أغلب نظريات الشخصية حتى أكثرها إغراقا في الجانب النفسي لم تهمل جانب التأثير المتبادل بين الثقافة والمجتمع من ناحية، وبين الشخصية من ناحية أخرى، مما يؤكد الصلة التي طالما ذكرناها ونذكرها دائما بين الثقافة والشخصية.

الفصل السابع

محددات الشخصية

يرى «كلاكون» و «مري» و «شنيدر» في كتابهم الشهير الشخصية في الطبيعة والمجتمع والثقافة، أن كل انسان، إنما هو في بعض صفاته وسجاياه:

(ا) يشبه كل الناس.

(ب) يشبه بعض الناس.

(ج) لا يشبه أي إنسان.

أولا ـ أما مسألة أنه يشبه كل الناس، فهذا ما نلمسه في نواحي متعددة منها أن بعض محددات الشخصية عام بين الناس جميعا. فهناك مظاهر وسمات مشتركة في الارث البيولوجي لجميع الناس، وفي البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها، وفي المجتمعات والثقافات التي ينتمون إليها. وعلى الرغم من كون هذه الحقيقة بالغة الوضوح، فإن هذا الوضوح نفسه هو الذي يجعلنا نؤ كد أهميتها، لأننا نميل عادة إلى الالتفات إلى كل ما هو غير عادي، وإلى أن نضخم الاختلافات، والفروق بين الأفراد، والمجتمعات بعضها بعضا، ونغفل الميراث المشترك بينهم جميعا. وجدير بالذكر أنه من الممكن أن يتكشف جانب هام من المحددات المعروفة للشخصية، إذا ما وجهنا اهتمامنا إلى دراسة هذا القدر المشترك بين الناس جميعا.

فكل فرد منا له نفس التكوين العضوي والبيولوجي الذي للآخرين، فلديه الأجهزة العضوية نفسها، كالجهاز الهضمي والتنفسي والغددي، إلى آخره. كما أن

كل فرد منا يمر بخبرة الميلاد، ويتعلم أن يتحرك في البيئة التي يعيش فيها، ويكتشف هذه البيئة، ويحمي نفسه من عوامل الطبيعة القاسية، ومن المخاطر التي قد يتعرض لها. هذا بالاضافة إلى أن كل فرد منا يخبر ضغط الحاجات الأولية، ويتعلم طرق خفض هذه الحاجات وهو يقوم بهذا كله ـ منذ ولادته حتى وفاته ـ كعضو في مجتمع[1].

كما أن كل فرد يشبه كل الناس من حيث هو كائن اجتماعي، عليه أن يتكيف مع الجماعة التي يعيش فيها، ويخضع لشروط التفاعل والعلاقات المتبادلة مع الآخرين في المجتمع، كما أنه يتشابه معهم جميعا في أنه يخضع مثلهم لمتطلبات الثقافة. فكل إنسان يولد ضعيفا لا حول له ولا قوة، ويعيش في عالم مليء بالتهديدات التي قد تودي بحياته، وليس من شك من أن النوع الانساني كان من الممكن أن يتعرض للانقراض ما لم تكن هذه الحياة الاجتماعية، فالتكيف الانساني للبيئة الخارجية يتوقف أيضا على ذلك السند المتبادل الذي هو الحياة الاجتماعية، كما يتوقف أيضا على الثقافة التي يمكن أن نعدها مستودعا كبيرا به حلول المشكلات التي قد يجابهها الانسان. لأنها تزخر ليس فقط بما نتعلمه من الأحياء في المجتمع. بل وأيضاً من خبرات السابقين، وخبرات أناس يحيون في مجتمعات وشعوب أخرى.

ثانيا ـ أما أنه يشبه بعض الناس فهذا ما تجده في تشابه بعض سمات شخصيته مع أعضاء الجماعات، أو مع أعضاء معينين من جماعات معينة. فالبحارة على سبيل المثال، بصرف النظر عن المجتمعات التي ينتمون إليها، يميلون إلى أن تكون بينهم صفات مشتركة. والأمر نفسه يصدق على بدو الصحراء كما أن رجال الفكر والرياضة بينهم في الأغلب الأعم سمات مشتركة.

وحينما نتحدث عن الأنماط، فإنما نعني ضمنا أن هذا الفرد يشبه مجموعة معينة من الناس تتصف بصفات خاصة. وذلك على نحو ما نتحدث عن شخص معين بأنه من النمط البدين أو الهزيل، أو الرياضي. أو أنه من النمط المنطوي أو المنبسط. إنما نشير في هذه الحالة إلى تشابهه مع بعض الناس في صفات جسمية أو نفسية معينة.

---

(1) Kluckhohn C., Murray, H., and Schneider, D.M., *Personality in Nature, Society and Culture*.

ثالثا ـ أما أنه لا يشبه أي إنسان، فهذا ما يتضح من أن لكل فرد طريقته وأسلوبه الخاص في الأدراك والشعور والسلوك. والذي يطبعه بطابع مميز لا يتكرر لدى أي فرد آخر بنفس الصورة. ومرد ذلك إلى عوامل كثيرة منها ذلك التجمع الفريدللإرث البيولوجي الذي يرثه الفرد من الأبوين. كما قد يرجع أيضاً إلى التفاعلات العديدة المتتابعة بين الكائن الحي النامي، والمواقف البيئية المختلفة منذ الولادة وما بعدها. ثم أن الخبرات المختلفة التي يتعرض لها كل فرد منا، قد تسهم إلى حد بعيد في هذا الاختلاف الظاهر في شخصية كل فرد. فهناك من يعاني في طفولته آلام الضياع والجوع، وهناك آخر فقد أمه في وقت هو فيه في أمس الحاجة إلى رعايتها وحبها وحنانها، وقامت على رعايته جدته المسنة، وذاك ثالث يتزوج أبوه من امرأة أخرى. ويترك لها أمر رعاية الطفل، وقد تسيء معاملته وتقسو عليه. وعلى الرغم من أن شخصيات الأطفال الذين يمرون بمثل هذه الخبرات والمشكلات قد تتشابه في بعض نواحيها. إلا أن شخصية كل فرد منهم تختلف اختلافا واضحا عن شخصية الآخر. ومرجع ذلك أن الموقف المؤلم يكون له تأثير فريد ومتميز في كل منهم، كما أن استجابة شخصية كل منهم فريدة ومتميزة كذلك. وهكذا يمكن القول بأن كل شخصية هي صورة فريدة لا يمكن أن تتكرر. ولا يمكن أن يكون هناك إنسان يشبه الآخر تمام الشبه [١].

فالفروق الفردية بين الناس سواء في النواحي الحسية أو العقلية أو المزاجية أصبحت حقيقة مسلم بها. ولم تعد هذه الفروق ـ كما كان ينظر اليها البعض قديما ـ شوائب وأخطاء في القياس. بل أصبحت حقائق علمية يسلم بها العلم.

ويرى «كلاكون» و «مري» و«شنيدر» أن تكوين الشخصية يمكن النظر اليه في ضوء محددات أربعة، وما بينها من تفاعلات، وهذه المحددات هي:

(أ) المحددات البنائية أو التكوينية.

(ب) محددات عضوية الجماعة.

---

(١) أنظر، سيد غنيم، **المصدر السابق**، ص ٦٢.

(ج) محددات الدور.

(د) المحددات الموقفية.

ويفيد هذا التصنيف في نظرهم، في معرفة أي النواحي التي يشبه الفرد فيها كل الناس أو بعض الناس، أو لا يشبه أي إنسان على الاطلاق، كما أنه يساعد أيضاً على توضيح المحددات المختلفة للشخصية.

(ا) المحددات البنائية أو التكوينية للشخصية: Constitutional Determinants احتدم النقاش بين علماء الوراثة وعلماء البيئة. وحاول كل منهم أن يدافع عن وجهة نظره ويبين أهميتها، وفي نفس الوقت يقلل من أهمية العوامل الأخرى وقيمتها. وقد كان من نتيجة النجاح الساحق الذي أحرزه علم البيولوجيا وعلم الطب، وتأثرهما بنظرية دارون خلال المائة سنة الأخيرة، أن اتخذ أنصار الوراثة موقفا متطرفا، وأكدوا تأكيدا قاطعا أهمية العوامل الوراثية.

ويمثل هذا الاتجاه تلك العبارة التي يقول فيها «ويجام» (A. E. Wiggam) «إن الوراثة - وليست البيئة - هي الصانع الرئيسي للانسان.. ومن الممكن القول بأن كل ما يطرأ على العالم من تعاسة وهناء لا يرد إلى البيئة. فالفروق التي توجد بين الناس، إنما ترجع إلى الاختلافات في الخلايا الجرثومية التي مزودين بها». فالشخصية على هذا الأساس «معطاة بشكل محدد منذ الولادة فهي تفسر في الأغلب كنتيجة لعملية نضج بيولوجي إلى حد بعيد.

وقد رد أنصار البيئة على هذا الموقف، بموقف متطرف كذلك، يتمثل في عبارة وطسن المشهورة «أعطوني مجموعة من الأطفال الأصحاء سليمي البنية وأنا كفيل أن أخرج منهم الطبيب، والمحامي، والفنان، والتاجر، ورئيس العمل، بل والشحاذ واللص، بصرف النظر عن استعداداتهم، وميولهم، وقدراتهم وأعمال آبائهم، وأصولهم الوراثية، فليس هناك شيء اسمه وراثة القدرات أو المهارات أو المزاج أو التكوين العقلي... الخ [1].

---

(١) انظر المصدر نفسه، ص ٧٥.

والحقيقة ان هناك مجموعة كبيرة من العوامل يمكن الرجوع اليها في تفسير شخصية معينة. وهذه العوامل تجمع بين العوامل الوراثية والبيئية معا. فالعوامل الوراثية يمكن أن تمدنا باحتمالات كثيرة لتفسير كل من التشابهات والاختلافات بين الأفراد داخل الأسرة كما أن البيئة، وما يتصل بها من عمليات تعلم، تمدنا كذلك باحتمالات أخرى لا حصر لها. وطالما أن كل صفة من المحتمل أن تتأثر بالمحددات الأساسية الكامنة في الجهاز التكويني، كما تتأثر في الوقت نفسه بمجرى حياة الفرد في بيئة مليئة بالمثيرات، فمن المستحيل اذن أن نعزو أية سمة مفردة من سمات الشخصية إلى الوراثة وحدها، أو البيئة وحدها، فهما متضامنتان معا منذ بداية الحياة. ومن الممكن أن نقول اذن أن الشخصية هي دالة أو وظيفة للعوامل الوراثية والبيئية معا.

ويقصد «كلاكون» و«مري» و«شنيدر» بالمحددات البنائية أو التكوينية للشخصية الخصائص الجسمية البيولوجية لفردما، وهذه الخصائص من نتاج التفاعل بين التأثيرات النابعة من الجينات (عوامل الوراثة) والتأثيرات النابعة من البيئة. ولذلك يفضل اصطلاح «جبلة» على وراثة لأن السمات الجسمية والبيولوجية في فرد ما في زمن محدد ليست سمات موروثة إذا استخدمنا المعنى الضيق لكلمة وراثة. وإنما هي محصلة سلسلة طويلة من التفاعلات المعقدة بين الامكانيات الموروثة بيولوجيا، وظروف البيئة.

ويضيف الباحثون أن مسألة الفصل بين الوراثة والبيئة لم يعد امرا مقبولا علميا في الوقت الحاضر، ذلك لأن العوامل الوراثية، والعوامل البيئية تعملان معا، ومن تفاعلهما تظهر السمات الجسمية والبيولوجية للشخصية. فالوراثة تقدم امكانيات متعددة، ولا تتحول تلك الامكانيات إلى سمات واقعية إلا إذا توافرت بيئة طبيعية وثقافية معينة. وفي حالات نادرة جدا فقط، ترجع سمات معينة في الشخصية إلى الوراثة فقط مثلما الحال في امراض معينة لا يمكن الافلات منها.

وتوفر الوراثة البيولوجية المادة التي تتكون منها الشخصية، كما تحدد كذلك اتجاهات نمو الجسم، وتوجد بعض الأدلة التي يمكن أن نستنتج منها أن العوامل الموروثة (الجينات) تنقل من الآباء إلى الأبناء سمات أخرى غير الصفات الجسمية

الخارجية مثال ذلك، امكانيات التعلم المتنوعة، ومعدلات النمو - معدل النشاط - الاستعداد للاكتئاب - الاستعداد للاحباط - التعبير الانفعالي - درجة التسامح، مستوى الطاقة، هذا بالاضافة إلى الأمراض الموروثة.

ومن المحددات الجبلية الهامة في تكوين الشخصية، عامل النوع، وعامل العمر، فلا شك أن هناك اختلافا بين شخصية المرأة، وشخصية الرجل في كل المجتمعات، وإن كانت بعض تلك الاختلافات ليست مطلقة ولا ثابتة وإنما تخضع للمحددات الثقافية. كذلك تختلف شخصية الفرد في مراحل العمر (الطفولة - الشباب - والشيخوخة) في كل المجتمعات وأن اختلفت السمات باختلاف المكان والزمان.

وللتكوين الجسمي للفرد أثر على شخصيته، حيث أن هذا التكوين يؤثر في علاقاته مع الآخرين وفي سلوكه بوجه عام، ومن أمثلة ذلك، طول القامة، او قصرها، والقوة والضعف، ولون البشرة في بعض المجتمعات، ومدى توافر الجمال عند المرأة والوسامة عند الرجل. وتقيم هذه الصفات الجسمية بمدى تواؤمها مع الأنماط الثقافية.

ومن خلال ذلك التواؤم أو عدمه، تؤثر الخصائص الجسمية في حاجات الانسان وتوقعاته. إن نوع العالم الذي يجده الانسان حوله يتحدد إلى درجة كبيرة عن طريقة ردود فعل الآخرين لمظهره الخارجي ولقدراته الجسمية، فمن النادر مثلا أن ترى شابا ضعيف البنية يحاول تحقيق انتصارات رياضية كنوع من التعويض (على الرغم من أن هناك أحوالا نادرة لذلك كحالة تيودور روزفلت) فالصورة العادية هي أن يتقبل ذلك الفرد - ولو على مضض - حقيقة ضعفه الجسماني ويبتعد عن الاشتراك في الأنشطة التي تتطلب قوة جسدية.[1]

وقد قام الباحثون بدراسات متعددة على التوائم بحكم اتحاد وراثتهم في العادة وقد أدت نتائج البحوث إلى اتفاق واضح بين التوائم في الصفات العقلية المختلفة.

---

(١) أنظر، كلاكون ومري وشنيدر، المصدر السابق، ص ٥٦ : ٥٨.

غير أن البعض يعترض على الأخذ بهذه النتائج كما هي وذلك نظرا لاتفاق التوائم أيضا في البيئة منذ اللحظة الأولى التي تبدأ فيها الحياة داخل الرحم، بمعنى أن أي تشابه بين التوائم يمكن أن يعزى إلى الوراثة مثلما يمكن أن يعزى إلى البيئة.

وقد ميز الباحثون في دراساتهم بين نوعين من التوائم: توائم متشابهة أو متحـدة وهي حالة فريدة في علم الحياة يكون فيها لشخصين نفس التكوين الوراثي حيث تكون هناك بويضة واحدة انقسمت قسمين. أما التوائم غير المتشابهة أو المختلفة فهي الناشئة عن اخصاب أكثر من بويضة في وقت واحد وتنمو كل منهـا منفصلـة عن الأخرى، وواضح اذن أن نمط الجينات أو حملة الاستعداد الوراثي يكون متفقا تماما في حالة التوائم المتحدة.

ويقول «أيزنك» في كتابه: «الحقيقة والوهم في علم النفس» "اذا ما قدرنا أن هذه السمة مورثة كلية، فلا بد عندئذ من أن تظهرها التوائم المتشابهة بنفس الدرجة من الدقة بينما التوائم غير المتشابهة، وهي تتقاسم السمات المورثة بدرجة أقل بكثير، لابد أن تختلف في كلا التوأمين كثيرا عن بعضهما بالرغم من أن هذا الاختلاف أقل بالطبع من ذلك الموجود بين أناس لا تربطهم ببعض رابطة. أما اذا كانت السمة لا ترجع بأي حال الى الوراثة حيث تكتسب البيئة بالنسبـة لهـذه السمـة كل الأهمية، فإن التوائم المتطابقة ينتظر ألا تبدي أي تشابه يزيد عما لدى التوائم غير المتشابهة. وتثار المشكلة بشكل ظاهر حين تواجه بسمة تتحد جزئيا بالوراثة وجزئيا بالبيئة.

وفي دراسة شاملة قام بها «كاتل» و«بلوت» و«بيلوف» على ٥٢ زوجا من التوائم المتشابهة، ٣٢ زوجا من التوائم غير المتشابهة، ٣١ زوجا من الأخوة العاديين الذين تربوا معا، ٣٦ زوجا من الأطفال الذين لاتربطهم رابطة، ولكنهم تربوا معا في بيئة واحدة، ٤٥٠ طفلا أخذوا من المجموع العام من الناس، أعني لا تربطهم ببعض أية رابطة، كما لم يربوا معا في نفس البيئة. وقد أمكن بهذه العينة أجراء مقارنات عديدة بين المجموعات المختلفة.[١]

(1) Cattel. Raymond, B. Duncan B., Blewett and John R. Beloff, The Inheritance of Personality: a multipe variance determination of approximate nature– ratios for primary personality Factors in Q–data, *Amer, J. Hum. Genet*, 1955, 7. 122–146.

وقد وصل كاتل وزميلاه إلى النتائج التالية:

١ - إن الوراثة أكبر وزنا من البيئة فى تحديد سمات مثل السيكلوثيميا (سهل المعاشرة، عطوف معبر عن نفسه) ضد الشيزوثيميا (عدواني، ناقد).

٢ - إن الوراثة أكبر وزنا من البيئة في تحديد ما أسموه باسم السيكلوثيمي المغامر (الذي يميل إلى مقابلة الناس، ومواجهتهم، المندفع، اللطيف) لزيد الشيز وثيمي المنعزل (الخجول، الجبان، العدواني المكبوت).

٣ - إن الوراثة أكبر وزنا في تحديد الذكاء، وهذه النتيجة الأخيرة لا تثير الدهشة وربما كانت تثير الشك في المنهج إن كانت غير ذلك.

٤ - إن البيئة كانت أكثر تأثيرا وفاعلية في سمات مثل الرقة والعصابية العامة، وقوة الإرادة، والتحكم فيها، والجدية، والتزمت. أما في التوازن النسبي في وزن الوراثة والبيئة فقد اتضح في سمات مثل السيطرة والخلق الاجتماعي، والتطابق النشط.

وقد أشار نيومان الى دراسة قام بها على فتاتين من التوائم المتشابهة وقد تربت كل منها منفصلة عن أختها ابتداء من سن ١٨ شهراً والتقيتا ثانية وهما في سن ١٨ سنة، وقد عاشت الأولى في أسرة من الطبقة الوسطى في احد أحياء لندن المزدحمة بالسكان، وحيث كانت مستويات المعيشة - بسبب الحرب العالمية الثانية - منخفضة نسبيا، على حين نشأت الثانية في بيئة اجتماعية على مستوى اقتصادي عالي حيث عاشت في كندا لدى احدى الأسر من الطبقة العالية، ونالت حظا من التعليم الاكاديمي.

وقد لاحظ نيومان وفريمان وهولزنجر عند دراستهم لهاتين الفتاتين أنهما تتشابهان في المزاج والثبات الانفعالي، ولكن كان الاختلاف واضحا بينهما في النمو التحصيلي والعقلي، وواضح أن الفروق الملحوظة في التربية والبيئة الثقافية كان لها أثر كبير في اختلاف الفتاتين في التحصيل العقلي، وهما في الأصل متشابهتان في ناحية المواهب

الموروثة[1] ومع ذلك فقد أوضح موللر وبيركس أن ليس كل التوائم المتشابهة التي نشأت في بيئات مختلفة يظهر لديها اختلاف واضح ملحوظ في النواحي العقلية. ولكن الحقائق تشير على وجه العموم الى اهمية البيئة في نمو مختلف مظاهر الشخصية[2]

ولإعطاء صورة لأثر العوامل الوراثية في تكوين الشخصيات غير السوية نشير الى الدراسة الأمريكية الخاصة ببحث حالة ٦٩١ من الأقارب الفصاميين ممن كان لهم أخوة وأخوات توائم، أن حالات الفصام كانت كالآتي:

بين الأخوة والأخوات من أحد الوالدين ١,٨ ٪، وبين من تربط بينهم صلة زواج ٢,١ ٪، وبين الأخوة غير الأشقاء ٧ ٪، وبين الأبوين ٩,٢ ٪، وبين الأشقاء ١٤,٣ ٪، وبين التوائم غير المتطابقة (من بويضتين مختلفتين) ١٤,٧ ٪، وبين التوائم المتماثلة (من بويضة واحدة منشطرة) ٥٨,٨ ٪ ولا شك أن وجود هذه الظاهرة بين التوائم المتماثلة أكثر مما هي عليه بين التوائم غير المتماثلة خمسة أضعاف تقريبا لدليل قاطع يؤيد أثر العوامل الوراثية في الإصابة بمرض الفصام[3].

وقد ذهب بعض العلماء إلى حد التحيز للعوامل البيولوجية والوراثية وأعتقد أنها المحددات الوحيدة للشخصية. فالعلامة «بيرمان» Berman على سبيل المثال يرى أن الاختلاف في وظائف الغدد الصماء هو الطريق الموصل لفهم الاختلافات بين الشخصيات، وحدد أنماط الشخصيات، ووضع لها أسماء ترجع لزيادة أو قلة إفرازات الغدد الصماء، فهناك نمط الشخصية فوق الكلية، والشخصية النخامية، والشخصية الدرقية وغيرها من أسماء الغدد الصماء[4].

---

(1) Newman, H.N., Freemon, F.N., and Holzinger K.L., *Twins; A Study of Heredity and Environment,* Chicago, University of Chicago Press 1937.

(2) B.S. Burks and A. Roe; *Studies of Identical Twins Reared Apart,* psychol. Monogr 1949, 63, No. 5.

(٣) عثمان فراج، المصدر السابق، ص ٥٤.

(4) Berman, I., *The Glands Regulating Personality.*

وجدير بالذكر، في النهاية. أن تأثير الوراثة في الشخصية مرتبط بتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية بصورة معينة، ويجب ملاحظة أن الـذي يورث ليس السلوك نفسه، وإنما الذي يورث هو بعض خصائص في الجهاز العصبي أو الثانوي، فإذا ما تفاعلت هذه البناءات العصبية المعينة مع البيئة في ظروف معينة، لعبت دورها في تحديد السلوك. فالإنسان يرث استعدادات للتصرف بشكل معين، فـإذا ما جاءت البيئة. وعوامل استثارة الاستعدادات كانت الاستجابـة أو السلـوك، أو التصرف المعين.

(ب) محددات عضوية الجماعة : Group Membership Determinants

ذكرنا أن التكوينات البيولوجية للفرد تؤثر الى درجة كبـيرة في شخصيتـه، كما وجدنا أن هناك فروقا فردية واضحة في هذه التكوينات بين الأفراد المختلفين، تؤثر بدورها تأثيرا واضحا في نمو شخصية الفرد لكن الشخصية ليست شيئاً ثابتاً عصبياً على التغيير منذ الولادة. فمن الخصائص الأساسية للانسان، قدرته على التغير نتيجة ما يمر به من خبرات وتعلم. واذا كان سلوك الحيوان يتحدد الى درجة كبيرة بغرائزه، بحيث لايحتاج لمعرفة الشيء الكثير عن تاريخ حياة الحيوان من أجل التنبؤ بسلوكه، فإن الأمر يختلف بالنسبة للانسان وحيث نحتاج الى معرفة تفصيلية عن خبـرات الفرد الماضية. وبيئته، وثقافته التي نشأ فيهـا من أجـل الحكم على سلـوكه ونمـو شخصيته. وبغير هذه يتعذر علينا فهم حتى أوضح الخصائص في شخصية الفرد.

وتأسيسا على تقدم يتبدى لنا أنه من المتعذر علينا فهم سلوك الفرد، وتفسير نمو شخصيته، دون أن ندخل في الاعتبار البيئة التي تنشأ فيها. ولسهولة دراسـة هذه المؤثرات في الشخصية قسم لويس ثورب[1]، البيئة الى أقسام ثلاثة هي في حقيقة الأمر وثيقة الترابط. وهذه الأقسام هي البيئة الطبيعية والثقافية والاجتماعية.

---

(1) Thorpe, Louis Pand Schmuller, Allen M.: *Personality: An Interdisciplinary Approach.*

أما البيئة الطبيعية فيتضح أثرها إذا ما نظرنا إلى اختلاف أساليب تكيف الناس ومعيشتهم وطرق مواجهتهم للحياة في بيئات مختلفة، فعلى الرغم من تشابه الناس في حاجاتهم ودوافعهم الأساسية، إلا أننا نلحظ أن هناك اختلافا واضحا بينهم في طرق مواجهتهم وإشباعهم لهذه الحاجات. فالبدو في الصحراء، والاسكيمو في المناطق القطبية، هم إلى حد كبير نتاج هذه البيئات الطبيعية المختلفة، فنمو أجسامهم وطرق معيشتهم، وأساليب حياتهم تأثرت إلى حد بعيد بالبيئة الطبيعية المختلفة بهم. والحرارة والعوامل الجوية يجعلان بعض الناس سمر البشرة، على حين يجعلان البعض الآخر بين البشرة.

أما البيئة الثقافية فلها تأثير بالغ الأهمية في نمو الشخصية. فأثر الثقافة في تكوين الشخصية لا يمكن إنكاره، والبيئة الثقافية يعدها البعض العامل الأساسي في تشكيل الشخصية بالمعنى الدقيق. وقد ورد في ذلك آراء عديدة منها ذلك الرأي الذي يقول: «إنه بدون الحياة الثقافية لا يكون لدينا أفراداً، بل كائنات حية عضوية، أو ذوات سيكوبيولوجية». «إن عامل التطبيع الاجتماعي هو الذي يحول الفرد من كائن حي بيولوجي إلى كائن حي اجتماعي يعيش في بيئة يؤثر فيها، ويتأثر بها»، «إن الشخصية لا يمكن عزلها عن الإطار الحضاري الذي نشأت فيه بنوع من الجراحة التي تفضي على حياة الفرد»[1].

أما البيئة الاجتماعية، فإن المجتمع الإنساني يعرف بعامة بأنه جماعة منظمة تعيش في مكان معين، وتشترك في مجموعة من الاتجاهات والأهداف وأنماط السلوك وتعد الجماعة الاجتماعية بالنسبة للفرد أحد النقاط الهامة في نمو شخصيته فالمجتمع هو البيئة أو الوسط الغذائي الذي تنمو فيه وحدة الفرد وشخصيته بالتدريج، وجوهر كل المجتمع هو الذي يشكل محتوى هذه الوحدة وحين ينمو الفرد، فإنه يصبح في الوقت نفسه وحدة فردية واجتماعية معاً. وهذان المظهران لوحدة الشخصية يتمثلان في المظاهر الأكثر استمراراً والأقل قابلية للتعديل في بناء الشخصية.

---

(١) أنظر سيد غنيم، **المصدر السابق**، ص ١٠٦.

وتختلف الجماعات والمجتمعات الانسانية في الحجم وفي مضمون وشكل الأنماط الثقافية السائدة فيها. وأهم الأشكال الاجتماعية التي ينتمي اليها الانسان من حيث درجة تأثير ذلك الانتماء في تكوين شخصيته هي الجماعات الصغيرة، وهي التي أطلق عليها «كولى» cooley عالم الاجتماع المعروف اصطلاح الجماعات الأولية تأكيداً لدورها الرئيسي في تشكيل الشخصية، وهي الأسرة، وجماعة اللعب، وجماعة الجيرة، والمجتمع المحلي. وهناك اتفاق في الرأي بين علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا على أن الأسرة هي أهمها جميعا في تكوين الشخصية.

ولا يقتصر تأثير عضوية الفرد في جماعة، على الجماعات الصغيرة وحدها، وإنما يمتد ليشمل الجماعات الكبيرة مثل الطبقات الاجتماعية، والنقابات والنوادي والجمعيات، والمجتمعات الكبيرة الحجم التي تعرف باسم الأمم والدول.

فكثيرا ما يتصف الأمريكيون ـ رغم وجود اختلافات بينهم في العنصر والطبقة، والعمر والمهنة بسمات شخصية معينة تميزهم عن الانجليز ـ كما أن العرب يختلفون عن شعوب أوروبا الغربية.. وهكذا، لدرجة أن هناك تعميمات تشمل مواطني الأمة الواحدة. فيعرف العرب بشدة التدين وبقوة العلاقات القرابية، بينما يتميز الأمريكيون بالسرعة، والنزعة العملية، والحرص على المواعيد، والاعتماد على الآلة في كل شؤ ون حياتهم، الى الحد الذي جعل البعض يطلق عليهم «شعب الضغط على الازرار». كما يعرف الاسكتلنديون بالبخل، والانجليز بالتمسك بالتقاليد، والفرنسيون بالاناقة والذوق السليم، والألمان بحب العمل، والنظام والدقة، والجدية.

ويرى كلاكون وزميلاه أنه يمكن عزو بعض سمات الشخصية المنتشرة بين أعضاء جماعة ما، الى عوامل وراثية بيولوجية لأن الأشخاص الذين يعيشون معا، ويتزوجون زواجا داخليا، أي من داخل مجتمعهم يشتركون في جينات متشابهة، فإذا كانت الحيوية الجسمية منخفضة في جماعة ما بمقارنتها بجماعات أخرى، أو إذا انتشرت حالات عدم التوازن في إفرازات الغدد في جماعة أخرى، فإن شخصيات أعضاء الجماعتين ستتميز بسمات خاصة.

لكن معظم الحالات تشير الى أن أكثر العوامل فاعلية في تشابه شخصيات اعضاء جماعة ماهو انتائهم الى ثقافة مشتركة، فالثقافة بلا شك هي من محددات عضوية الجماعة، بل هي أهمها جميعا. وحين نقول أن الثقافة تحدد، فإن هذا بالطبع أسلوب تجريدي في التعبير فالذي نلاحظه بالفعل هو التفاعل بين الأفراد بعضهم وبعض. فنحن لا نرى الثقافة أبدا، مثلما لا نرى أبدا الجاذبية. فالثقافة مكون افتراض يساعدنا على فهم انتظامات معينة في الأحداث الأنسانية، كما أن الجاذبية مكون افتراضي يساعدنا على فهم وتفسير انتظامات معينة في الأحداث الطبيعية.

وقد قدم «جان كلود فيللو» في كتابه «الشخصية» تعريفا للثقافة في قوله أنها «مجموعة المعايير والقيم ومعايير السلوك التي تترجم أسلوب حياة الجماعة»[1]. ولهذه الفكرة أهمية، وفائدة ملحوظة في تحليل التنشئة الاجتماعية للشخصية الفردية، كما أن لها بالإضافة الى ذلك محتوى نفسي اجتماعي في أساسه.

وقد ذكرنا أن «هيرسكوفيتز» herzkovitz أحد الرواد الأوائل لعلم الأنثروبولوجيا الثقافية يعرف الثقافة كما يلي: «الثقافة هي أسلوب حياة الناس، بينما المجتمع هو المجموع المنظم للأفراد الذين يتبعون أسلوبا معينا في الحياة، وببساطة يمكن القول بأن المجتمع يتكون من أفراد، وأن الأسلوب الذي يسلكونه هو الذي يمثل الثقافة.

ولا يقتصر تأثير الثقافة في شخصيات أعضائها - كما يذهب كلاكون وزميلاه - على نماذج الفعل والسلوك، وإنما يمتد ليشمل كذلك أنساق الدوافع. ويتبين ذلك في الحاجات الثانوية المكتسبة، مثل العمل من أجل التفوق، أو من أجل الفوز بسيارة أو مذياع، فهذه الحاجات ليست أمورا متوارثة في الجينات، وكثيرا ما تتمتع الدوافع المكتسبة ثقافيا بأولوية الاشباع قبل الحاجات البيولوجية، فنرى شبابا يؤجلون إشباع الدافع الجنسي - الزواج - إلى حين إتمام تعليمهم أو إدخار بعض النقود، أو إلى حين الفراغ من تجربة دينية تصوفية، بل إن العادات الثقافية تحدد الظروف

(1) Fillo. J.C.: *La Personalite*, Que Sais-je' No. 758, Presses Universitaires de France, 1959.

والأساليب الخاصة بإشباع الحاجات البيولوجية [1] ، فبينما يستطيب الفرنسيون أكل لحوم الضفادع، فإن معظم المصريون يفضلون الجوع على أكلها.

ويمتد نطاق تأثير ثقافة الجماعة في شخصيات أعضاء تلك الجماعة إلى حد أنه يشمل كل سمات الشخصية المكتسبة، وإن تباينت درجات هذا التأثير . فالثقافة تتحدد بصورة كبيرة المهارات التي تكتسب، والمعارف التي تحصل والقيم والأذواق. . الخ، كما أن الثقافة تحدد كذلك الظروف التي تصاحب عملية التعلم.

ومن المهم أن نذكر أن تأثير ثقافة الجماعة في شخصيات أعضائها يتسم بالمرونة والتنوع والاختلاف، وليس بالجمود، والصرامة والتطابق. فالثقافة تتحدد ما يتعلمه الفرد فقط كعضو في مجتمع كبير معين، وليس ما يتعلمه كفرد خاص ـ له سمات بيولوجية جسمية معينة ـ أو كعضو في جماعة صغيرة معينة كالأسرة ، وأسرته هو بالذات.

والانحراف عن المقاييس الثقافية، أمر لا مفر منه، ويحدث دائما، لأن الأفراد الذين تعلموا ثقافة مجتمعهم منذ الصغر، سيصبحون هم أنفسهم المعلمين الذين ينقلون التراث الثقافي للأجيال التالية، وهؤلاء مهما حاولوا المحافظة على التقاليد، فإنهم سوف يصبغون الأنماط الثقافية بصبغة شخصية خاصة بهم، تتفق مع صفاتهم الجبلية وتجاربهم الفريدة في الحياة.

وجدير بالذكر أن المجتمعات المتمدينة تجمع بين حدودها الكثير من الثقافات الفرعية على درجة كبيرة من التنوع والاختلافات وهذا واضح في الثقافة العربية، إذ نجد أن الثقافة الفرعية لكل شعب عربي تتميز بخصائص مميزة، وفي داخل الشعب العربي الواحد نجد اختلافات ثقافية فرعية، على أساس اختلاف الطبقة الاجتماعية، والمهنة، ومستوى التعليم، يصاحب تلك الاختلافات الثقافية الفرعية في المجتمع الواحد اختلافات في سمات شخصيات اعضاء ذلك المجتمع.
وعند التحدث عن أهمية الثقافة في محددات عضوية الجماعة ، للشخصية وجب أن

(١) أنظر كلاكون ومري وشنيدر، المصدر السابق، ص ٥٨.

تميز القيم بصفتها من أهم الأنماط الثقافية دلالة في هذا الموضوع. والقيمة هي تصور للمعاني الكلية - ينسب لفرد أو لجماعة ما - خاص بالأمور المرغوبة، يورى «كلاكون» أن القيمة مفهوم تجريدي (ظاهر أو ضمني، يميز الفرد أو الجماعة) للمرغوب فيه الذي يؤثر على اختياراتنا من عدة بدائل، لطرق ووسائل وأهداف السلوك» وتعد لفظ «المرغوب فيه» حجر الزاوية في هذا التعريف لذلك يجدر بنا أن نعنى بتوضيحه. فالمرغوب فيه the desirable هو «ما ينبغي أن نرغب فيه» أو ما ينبغي أن يكون بحسب معايير الجماعة التي تتوحد معها. أما الرغبة الشخصية فهي ما نميل اليه شخصيا بصرف النظر عن معايير الجماعة أما ما نرغب فيه شخصيا قد يكون مجرد ميول، وأهواء اندفاعية عارضة تتنافى مع «ما ينبغي أن نرغب فيه» ولذلك فإن المرغوب فيه (لأنه يمثل معايير الجماعة) هو الذي يلجم ويقيد ويرشد الرغبات والميول الشخصية الاندفاعية. فلو فرض أن لاعبا من لاعبي كرة القدم مثلا، وجد من نفسه رغبة اندفاعية قوية في شرب الخمر في فترة الاستراحة بعد اول شوط، والاستعداد للشوط الثاني، فإن رغبته الشخصية هذه لا تلبث أن تظهر حتى تخمد، وتختفي، لانها تتعارض «مع المرغوب فيه» عند زملائه من أعضاء الفريق، وكذلك عند مدربه، بل عند جماعته التي هي أكثر اتساعا سواء أكانت كلية يدرس فيها أم مؤسسة يعمل بها، أم مصنعا يشتغل فيه، أم جمهور فريقه المعجب به. وبعبارة أخرى (فالمرغوب فيه)، هو الذي يوجه السلوك نحو الأفضل أو الأصوب أو الأجمل، وبذلك يمكن النظر إليه كرقيب وضابط للسلوك[1].

القيمة إذن هي المسئولة عن الأحكام التي يصدرها الفرد على أي موضوع، أو موقف ويرى فيها الفرد شيئا من الحق أو الخير، او حكما على قضية معيارية ينبع

---

(١) فوزية دياب. **القيم والعادات الاجتماعية**، ص ٥٣، ٥٤.

وانظر أيضا:

C. Kluckhohn, Value and Value–Orientations in the Theory of Action: An Explotarion in Definition and Classification. in T. Parsons and E. Shills, (eds) *Toward a General Theory of Action.*

أساسا من القيم التي يؤمن بها [1]. وإذا حاولنا أن نبحث عن المصادر التي يكتسب منها الفرد قيمه لوجدنا أن الفرد يكتسب قيمه من عضويته في الجماعة التي يعش فيها، فمن خلال تفاعله في جماعته يمتص القيم السائدة في تلك الجماعة. ويجدر بنا أن نلاحظ أن القيمة ليست مجرد رغبة او تفضيل، وإنما هي مركب يجمع الأمور المرغوبة لدى الفرد، ومقاييس ما ينبغي أن يكون كما تحددها الثقافة.

وإذا ما تساءلنا، لماذا توجد قيم؟ نجيب لأن الحياة الاجتماعية ستصبح مستحيلة بدونها، فبدون قيم لا يستطيع النسق الاجتماعي تأدية وظائفه في تحقيق أهداف الجماعة ، ولا يمكن أن تستمر الحياة الاجتماعية بدون معايير في داخل الفرد، ومعايير يوافق عليها بصورة ما الأفراد الذين يعيشون معا، ويعملون معا في داخل الجماعة. وبدون تلك المعايير أي القيم، لن يكون هناك أمان شخصي بالنسبة للفرد، ولا تنظيم اجتماعي بالنسبة للجماعة، وإنما تعم الفوضى، والاهمال، وعدم تقدير المسؤولية، ويسود السلوك الفطري الخالص. بعبارة أخرى سينهار الفرد، وتتفكك شخصيته، وينهار التنظيم الاجتماعي للجماعة، بدون قيم لا يستطيع الأفراد الحصول على ما يريدون، وما يحتاجون إليه من الأفراد الآخرين فيما يتعلق بالأمور الشخصية والعاطفية وبالتالي لن يشعروا في داخل ذاتهم بأي قدر من النظام، ويختفي الشعور بوجود أهداف موحدة، زيادة على ذلك، تضيف القيم القدرة على التنبؤ عن طريق توقع استجابات معينة في المواقف المعينة، وهكذا بدون القيم يعيش الناس في عالم متقلب الأوضاع يختفي منه النظام في داخل الجماعة وفي داخل الفرد . وقد لا نبالغ إذا استنتجنا من ذلك أنه بدون القيم لا يمكن أن تتكامل شخصية، أو تنتظم جماعة [2].

وإن كنا قد ذكرنا من قبل ان الثقافة من أهم العوامل التي تؤثر في شخصيات أعضاء جماعة ما، إلا أنها ليست العامل الوحيد، فإن «كلاكون» وزميليه يقررون أن

---

(١) عماد الدين سلطان وآخرون، «صراع القيم بين الآباء والأبناء»، **المجلة الاجتماعية القومية**، يناير ١٩٧٢.

(٢) أنظر كلاكون وآخرون، **المصدر السابق**، ص ٦٠.

هناك عوامل أخرى هامة لا نعرف عنها شيئا، مثل عوامل البيئة الطبيعية. فهم يتساءلون : هل المعيشة في مناخ ممطر دواما لها أثر في جعل الناس سلبيين متجهمين؟ وهل المعيشة في بقاع مشمسة لها أثر في جعل الناس مرحين مستبشرين ؟ وما هي الآثار المتباينة للمعيشة في بيئة جبلية، أو في سهل منبسط، أو وادي منخفض، أو هضبة مرتفعة وهم يمضون في القول بأن آثار عوامل المناخ والسطح والطوبوجرافي قد تكون أهم وأبعد مدى مما قد يتصور البعض.

وهناك بعد اجتماعي في محددات عضوية الجماعات لا يحدد ثقافيا، ويتمثل ذلك في عدد أعضاء الجماعة ونوعهم، وأعمارهم. فلا شك أن كثافة الجماعة تؤثر في عدد علاقات الوجه للوجه المتاحة للفرد العضو في تلك الجماعة، وهكذا فإن نماذج السلوك التي تتناسب وجماعة تتكون من خمسمائة لا تكون صالحة بالطريقة نفسها مع مجموعة تتكون من خمسة آلاف لذا فإن حجم المجتمع، وكثافة سكانه، ومعدل السن، والنوع، لا تعد كلها عوامل ثقافية، رغم أنها تحدد إلى درجة كبيرة تفاعل النواحي التكنولوجية من الثقافة، مع مظاهر البيئة الطبيعية.

وينبغي أن ننبه قبل أن نترك البحث في موضوع محددات عضوية الجماعة ان ننبه القارىء، إلى أن هذا المفهوم مفهوم تجريدي يفيد في البحث. أما في الواقع، فإن شخصية الفرد لا تتأثر بالجماعة التي ينتمي لها «ككل» وإنما تتأثر بها عن طريق «وسطاء الجماعة» وهم أعضاء الجماعة الذين يرتبط معهم في اتصال مباشر. ولهم سمات خاصة بهم بالاضافة إلى السمات المشتركة بينهم وبين باقي أفراد الجماعة. ومن أهم «وسطاء الجماعة» وأعظمهم تأثيرا في تكوين شخصية الفرد، الأباء وباقي أفراد الأسرة من الأخوة، والأخوات وكذلك الأقارب. وهم يؤدون أدوارهم كأعضاء في الجماعة الكبيرة ذات الثقافة العامة (المجتمع)، وكممثلين لجماعات أصغر ذات ثقافات فرعية لها خصائصها (جماعة الأسرة ذاتها) وكأفراد لهم سمات نوعية خاصة تتميز بها شخصياتهم [1]

---

(١) أنظر كلاكهون وآخرون. المصدر نفسه، ص ٦١.

٣ ـ محددات الدور: Role Determinants

تعد محددات الدور فئة خاصة متفرعة من محددات العضوية في الجماعات. ومن أهم محددات الدور التي نعنيها تلك المتعلقة بالسن والنوع أو بالعضوية في طائفة، أو طبقة، أو فئة مهنية معينة، والمعروف أن اداء دور معين لفترة طويلة له تأثير بالغ على الشخصية مما يجعلنا نهتم بموضوع محددات الدور، ونعالجه بشيء من الاسهاب.

وهناك العديد من التعريفات لاصطلاح الدور، وهي تعبر عن وجهات نظر مختلفة، أو مذاهب فكرية متعددة، وقد رأينا أن نجمع هذه التعريفات في فئات ثلاث، نرى أنها تلخص وجهات نظر العلماء في هذا الشأن، وهي: الدور من وجهة النظر الثقافية، والدور من وجهة النظر الاجتماعية، والدور من وجهة النظر النفسية الاجتماعية.

وتتبلور وجهة النظر الثقافية للدور في تلك التعريفات التي تحدده بأنه الأنماط المعيارية للثقافة. ومن بين هذه التعريفات، يبرز تعريف «رالف لينتون» R. Linton وقد أسهمت معالجة «لينتون» لمفاهيم المركز والدور، في مؤلفيه دراسة الانسان، والخلفية الثقافية للشخصية في إثارة كثير من الاهتمام حول هذا الموضوع. وقد عرف «لينتون» الدور بأنه «المجموع الكلي للأنماط الثقافية المتصلة بمركز معين» وبهذه المعالجة فإن الدور يعد مظهرا ديناميا للمركز، كما يتضح أن له علاقة واضحة بالمعايير السلوكية. أي أن الدور من وجهة نظر «لينتون» يتكون من الاتجاهات، والقيم والسلوك الذي يعنيه المجتمع لأي فرد من افراده الذين يحتلون مركزا معينا. [1]

أما تعريفات الدور من وجهة النظر الاجتماعية، فتضم تلك التعريفات التي تركز على إبراز الناحية السوسيولوجية، وتعالج الدور على أنه مفهوم الفرد لموقفه في ضوء مركزه الاجتماعي، بالاضافة إلى مراكز الآخرين الاجتماعية. ومن أبرز تلك التعريفات تعريف «بارسونز» Parsons الدور بأنه «قطاع من النسق التوجيهي الكلي

(1) Ralph Linton, *The Cultural Background of Personality*, p. 77.

للفرد الفاعل. وهو ينتظم حول التوقعات في علاقتها بمحتوى تفاعل معين، تلك التوقعات التي تتكامل مع مجموعة بعينها من المعايير القيمية، التي تتحكم في التفاعل مع واحد أو أكثر من المتغيرات في الأدوار التكميلية المناسبة». [1]

وتتضح وجهة النظر النفسية الاجتماعية للدور في تلك التعريفات التي تتناول الدور بوصفه سلوك الفاعلين الذين يحتلون مراكز اجتماعية. وتعريف الدور بهذا الشكل لا يشير إلى الأنماط المعيارية التي تعين للفاعلين ما ينبغي أن يفعلوه، كما أنه لا يشير إلى توجيه الفاعل نحو موقفه، وإنما هو يبين ما يفعله الفاعلون كمحتلين فعلا لمراكز.

ومن التعاريف التي تقع ضمن هذه الفئة، تعريف «كنزلي دافيز» Kingsley Davis ، الذي يقرر أن ما نسميه بالدور، هو كيفية تصرف الشخص فعلا في مركز معين بصرف النظر عما ينبغي عليه أن يفعله.

نخلص من ذلك بأن هناك ثلاثة أفكار رئيسية تبدو في معظم تصورات الباحثين، كما أنها تبدو أيضا في تعريفاتهم للدور نفسه، وتتبلور في أن الأفراد في مراكزهم أو مواقعهم الاجتماعية يسلكون في إطار من التوقعات. وعلى ذلك تتركز تلك الأفكار الثلاثة التي لا يخلو منها تعريف للدور في نقاط ثلاث : هي: المراكز أو المواقع الاجتماعية، والسلوك، والتوقعات.

وقد استخدم معظم الباحثين تقريبا مفهوم الدور، ليضمنوه العنصر المعياري في السلوك الاجتماعي. فالناس لا يسلكون بطريقة عشوائية، بل إن سلوكهم ليتأثر إلى حد كبير بتوقعاتهم، وبتوقعات الآخرين في المجموعة أو المجتمع، الذين هم أعضاء فيه. وقد ضمن بعض الباحثين هذه الفكرة في مفهومي المركز Status والوضع Position ، وضمنها آخرون في مفهوم الدور، ولكنهم جميعا يعبرون عنه بطريقة أو بأخرى.

ويشير بعض الباحثين إلى التوقعات، على أنها محددة أو موضوعة بواسطة

---

(1) Talcott Parsons: *The Social System*, pp 38, 39.

المجتمع، بينما يشير إليها باحثون آخرون، على أنها توقعات أفراد المجموعة التي ينتسب اليها الفاعل، أو يشترك فيها، وبغض النظر عن مصدر تلك التوقعات، فإن معظم المنظرين للدور Role - Theorists يذهبون إلى أنها تكون عنصرا هاما ورئيسيا، في أية صيغة يكون الهدف منها التنبؤ بالسلوك الاجتماعي. فالسلوك الانساني إنما هو جزئيا. دالة أو نتيجة للتوقعات.

ولكن بعض هذه التوقعات تنطبق على أفراد بعينهم، ولا تنطبق على كل الأفراد. ويتوقف ربط توقع معين، بفرد معين، على هويته ونوعيته فقد يعرف الشخص كذكر او كأنثى، كشرطي، أو كمعلم أو كزوج أو كعضو في نسق اجتماعي معين، وهذا يخلق تنوعا، واختلافا في التوقعات التي تنتظر منه بواسطة الأشخاص الآخرين، والتوقعات التي يسندها الشخص إلى نفسه أيضاً.

ومن المهم أن نحدد مركز الشخص أو وضعه في أنساق العلاقات الاجتماعية، لكي نستطيع أن نحدد أنواع التوقعات المنوطة به. وتحتوي معظم تعريفات الدور ومفهوماته، إن لم يكن كلها، على هذا العنصر متضمنا فيها، وهو الذي يؤكد أن التوقعات تناط بالأفراد على أساس من مراكزهم أو أوضاعهم في الأنساق الاجتماعية[1].

ويدين مجال «الدور» ونظريته role theory بالكثير إلى فن المسرح. وليس أدل على ذلك من استعراضنا لقول Shakespeare «الدنيا مسرح كبير. وكل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون، لهم مخارجهم ومداخلهم. والفرد الواحد يلعب أكثر من دور في وقت واحد، وفصول المسرحية تتكون من سبع مراحل. ففي البداية رضيع، بل متململ بين ذراعي مربية، ثم...»[2]

(١) أنظر سامية حسن الساعاتي، الدور الوظيفي للزوجين في الأسرة المصرية، دراسة ميدانية في الريف والحضر، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص ٤٦، ٤٧.

(٢) ترجمة الكاتبة عن:

Shakespeare, *As You Like It*, Act II, Scene 7.

و «شيكسبير» هنا يصور السلوك الإنساني من منظور معين. فالحياة في المجتمع في نظره، تشبه التمثيل على خشبة المسرح بكل ما يحويه من مناظر، وأقنعة وأجواء. كما أن كلا منهما يستخدم لغة خاصة هي لغة المسرح والدراما والواقع أن مجال نظرية الدور لا يدين إلى المسرح بكلمة «الدور» فحسب، بل أنه يدين له بالكثير من لغته، ومنظوره التشخيصي للسلوك الإنساني.

وقد ذكرنا فيما سبق أن كلمة شخصية باللغة الأنجليزية مأخوذة من لفظ يعني القناع Persona أو الوجه المستعار، الذي يلبسه الممثل في المسرحيات، والهدف من هذا القناع تشخيص شخصية أو دور الممثل في المسرحية، وإخفاء شخصيته الحقيقية الذاتية.

ويحدد كل مجتمع من المجتمعات الأدوار الاجتماعية التي يتوقع من أفراده القيام بها في حياتهم العادية، فالأب مثلا يتوقع منه أن يترك منزله في الصباح لكي يذهب إلى عمله ليمد الأسرة بالمال الذي تحتاج إليه. وأن يقوم برعاية الأطفال. وتوجيههم، والإشراف عليهم عندما يكون بالمنزل، ومن الواضح أن للفرد الواحد مجموعة كبيرة من الأدوار في حياته الاجتماعية فالأب مثلا بعد خروجه من المنزل والذهاب إلى عمله يقوم بدوره كموظف، أو كعامل، أو كمهندس أو طبيب؛ أي أنه يقوم بالدور الذي يتوقعه منه المجتمع في مجال العمل. وهو حين يعود الى بيته نجده يمارس دوره كأب من ناحية الاشراف على تربية الأبناء ورعاية الأسرة. ثم بعد ذلك قد يكون عضوا في ناد؛ ويشارك في ألوان النشاط المختلفة لهذا النادي أو قد يكون عضوا في جماعة دينية إلى آخر هذه الأدوار العديدة التي يقوم بها في المجتمع.

وعندما يقوم الفرد بدور الأب تكون الأدوار الأخرى في حالة كمون ولذلك تقسم الأدوار إلى أدوار نشطة، وهي الأدوار التي يقوم بها الشخص في لحظة معينة. وأدوار كامنة، وهي تلك الأدوار التي لا يؤديها الفرد في لحظة معينة لأن الوقت المناسب لها لم يأت بعد، ويؤثر استمرار الفرد في تأدية دور معين لفترات طويلة في تكوين الشخصية ويجعلها تتميز بسمات معينة.

والمركز هو المفهوم الذي يشير إلى مجموعة من العلاقات بين الأعمال وبين

الأشخاص الذين يقومون بتلك الأعمال. والمركز أيضا هو مجموعة من الحقوق والواجبات.

وهناك علاقة وثيقة بين الدور والمركز، حتى أن بعض العلماء الاجتماعيين يطلقونها أحيانا متعاقبين أو مترادفين على مسميات واحدة، أو يستخدمون احدهما للدلالة على الآخر فالدور هو المظهر الدينامي للمركز. وعندما يضع الفرد الحقوق والواجبات التي تكون المركز موضع التنفيذ، فإنه حينئذ يكون مؤديا دورا.

فالدور الاجتماعي هو السلوك المتوقع المرتبط بالمركز الاجتماعي. والمركز ببساطة هو بطاقة التعرف أو وسيلة التعرف على دور اجتماعي معين. وهكذا فإن مركز الطبيب يعين له إطارا من السلوك المتوقع منه كطبيب أي «دور الطبيب».

ولكي نحلل المركز الاجتماعي ينبغي علينا أن نذكر الملامح الجوهرية للسلوك المتوقع الذي يسمى بالدور. وأن التحليل الجيد للمركز، ينحصر في بيان كل مواصفات الدور المرتبط به. وعلى هذا الأساس، فإن مفهوم المركز، ومفهوم الدور مفهومان لا ينفصلان إلا لغرض التحليل فقط. [1]

لذلك نجد من الباحثين من يفضل استخدام مفهومي المركز والدور في وحدة متكاملة، أكثر من استخدامها كمفهومين منفصلين. ومن هؤلاء «هيل» Hill، و «هانسن» Hansen اللذان استخدما المفهومين معا في اصطلاح واحد هو المركز - الدور [2] (status-role).

وقد قدمت الكاتبة - في مؤلف آخر - تحليلا إجرائيا متكاملا للدور من وجهة نظرها اهتمت فيه بعدة اعتبارات. وتوصلت إلى أن الدور ينقسم إلى ثلاثة أشكال رئيسية. [3]

---

(1) G. Duncan Mitchell (ed), *A Dictionary of Sociology*, pp. 148–152.

(2) Reuben Hill, Donald A. Hansen, The Identification of conceptual Frame works Employed in Family Study, *M.F.L.*, 22 (Nov. 1960) pp. 299–311.

(٣) أنظر سامية حسن الساعاتي، **الدور الوظيفي للزوجين في الأسرة المصرية**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٢.

فالدور - في نظرها - هو مجموعة مواصفات تحدد ما ينبغي أن يفعله الشخص كشاغل لمركز معين على مستوى المجموعة الصغيرة، أو المجتمع الكبير. وهذه المواصفات قد يضعها للشخص المجموعة الصغيرة، أو قد يحددها له المجتمع الكبير في شكل معايير وقيم، أو قد يرسمها الشخص نفسه لنفسه، متخذا في هذه الحالة صورة توقعاته هو نفسه عن متطلبات هذا الدور المتصل بمركز معين.

والدور المعياري normative role هو مجموعة المواصفات أو المتطلبات النابعة من الثقافة بعامة، والتي ترسم الأشخاص أدوارهم في حدود مراكزهم المتباينة. والقيم هنا جزء لا يتجزأ من تلك المواصفات أو المتطلبات التي يتطلبها الأنا من الآخر (والعكس صحيح أيضا)، في موقف تفاعل يتأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الفرعية لكل منهما.

أما الدور الوظيفي - في رأي الكاتبة - فهو الدور الفعلي، أو الدور المؤدى بالفعل، ذلك لأنه يؤدي وظيفة التوافق مع الثقافة العامة أو الفرعية المجموعية أو الجماعية group or communal ، فهو إذن سلوك الدور فعلا، أو أداؤه. وقد يتمشى الدور الوظيفي مع الدور المعياري، والدور المتوقع، وقد لا يتمشى مع أحدهما أو كليهما، كما أنه قد يسايرهما بدرجات متفاوتة. ويمكن القول بأن الدور الوظيفي هو المظهر الدينامي للوظيفة، أي أنه الطريقة التي ينفذ بها الشخص فعلا المطالب الوظيفية لمركزه. [1]

ويرتبط الناس معا بسبب الاعتماد الوظيفي المتبادل بين الأدوار التي يؤدونها فدور الزوج معتمد على دور الزوجة، ودور الزوجة معتمد على دور الزوج. ودور عامل المصنع، الذي يجمع آلة ما، يعتمد على دور زميله الذي يمده بأجزاء تلك الآلة ودور زميله معتمد كذلك على دوره.

---

(١) اصطلاح الدور الوظيفي هو اصطلاح وضعناه للدلالة على مفهوم معين للدور من وجهة نظر خاصة. ولم يرد مثل هذا الاستخدام - فيما نعلم - إلا في مؤلف لبارسونز عن البناء الاجتماعي للاسرة في الولايات المتحدة. ولكنه كان يقصد بالدور الوظيفي هنا استخداما ساذجا لمعنى الوظيفة باعتبارها مهنة أو عمل. وهذا يختلف عما نقصده كلية. أنظر: Talcott Parsons, "The Social Structure of the Family", in Anshen, Ruth Nada (ed.) *The Family: Its Function and Desting*.

ومن المعروف أن أشخاصا حقيقيين هم الذين يشغلون الأدوار، وانه ليس هناك شخصان متماثلان تماما في كل الخصائص والصفات. فكل فرد يطبع دوره الوظيفي بطابع منفرد متميز، ينبع من خصائص نمط سلوكه الفعلي. وليس هناك اثنان يؤ ديان دورهما الوظيفي بشكل متماثل بينما يتحركان في إطار دور مشترك.

والثقافة هي التي تحدد المراكز والأدوار، ولهذا تختلف تلك المحددات من مجتمع لآخر تبعا لذلك؛ وتؤثر المراكز والأدوار بصورة مباشرة في تكوين الشخصية. ويحتل الفرد في اي مجتمع مراكز اجتماعية مختلفة تقوم على أساس النوع، والسن؛ والاسرة؛ والطبقة الاجتماعية؛ والمهنة والدين؛ والقومية. ويحتوي كل مركز على مجموعة من الأدوار المحددة له، والتي تمثل أنماط من الثقافات الفرعية التي تشتمل عليها الثقافة الكلية في مجتمع ما كذلك نرى أن الدور يمثل الجانب الدينامي للمركز، وما يحويه من حقوق وواجبات.

وتختلف الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الافراد باختلاف الثقافات التي يعيشون فيها، فبينما ينظر إلى الولد في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة في المجتمعات الحضرية والمتقدمة على انه لا يزال صغيرا يقوم بدور الصغار في مثل سنه. ويحتاج الى قدر من رعاية الاسرة والوالدين نجد أن زميله الذي في مثل سنه في المجتمعات الريفية ينظر اليه على انه قد اصبح رجلا أو على عتبة الرجولة، وأنه قادر على القيام بأدوار الكبار. ولذا يعهد اليه بالكثير من الأعمال التي يقوم بها الكبار في الأسرة من فلاحة للأرض ورعاية للحيوان في الحقل. وكانت بعض الأسر الريفية الى عهد قريب تزوج أبناءها في مثل هذه السن المبكرة، وفي هذا اعتراف واضح منها بأنه قد بلغ مبلغ الرجال والأمر بالمثل بالنسبة للفتاة.

ويفرق البورت بين أربعة معان للدور هي:

١ - توقعات الدور: وتكمن في النظام الاجتماعي وهي تمثل ما تقرره الثقافة أو الثقافات الفرعية من توقعات الفرد، سواء أكان أبا، أو أما، تلميذا أو طبيبا، أو مهندسا، أو ضابطا... الخ. وبعبارة أخرى أنها تقرر ما هو متوقع من كل فرد يشغل مركزا معينا داخل النظام الاجتماعي.

٢ - تصور الدور: وهي الصورة التي يكونها الفرد عن دوره الذي يقوم به طبيبا كان، أم مدرسا، أم أبا. . الخ، وعما إذا كانت هذه الصورة تتفق أو لا تتفق وتوقعات الدور. ويمكن أن نقول بوجه عام أن الأب، أو الطبيب، أو المدرس يعلم تماما ما هو متوقع منه، ولكن المشكلة تكمن في ماذا يتوقع هو من نفسه. فهو يحدد دوره على طريقته الخاصة. فقد يعتقد كأي أب من الاباء أن دوره هو الاشراف الجيد، وفرض الرقابة على ابنه المراهق، بينما يعتقد أب آخر، أن دوره هو التوجيه وترك الحرية للابن كي يعبر عن نفسه، وقد يتصور مدرس من المدرسين أن أداءه لدوره يقتضي منه أن يكون حازما شديدا، يوقع العقاب على التلميذ المخالف داخل الفصل بينما يتصور مدرس آخر ان دوره هو دور الأب المتسامح الـذي يأخذ بيد أبنائه من التلاميذ ويعاونهم على مواجهة الصعوبات التي تواجههم في حياتهم المدرسية. وتصور كل فرد منا للدور الذي يقوم به، يتوقف على عوامل عديدة كاتجاهات الفرد، واستعداداته، ودوافعه، وقيمه وغيرها.

٣ - تقبل الدور: بعض الناس يتقبل احيانا الدور الذي يقوم به (سـواء حدد هذا الدور في ضوء توقعات الآخرين، أو في ضوء فكرتهم عن انفسهم) والبعض الآخر لا يشغل نفسه كثيرا بهذا الدور الذي يقوم به بينما البعض الثالث قد يكره احيانـا الـدور الـذي يقـوم به في الحياة. فبعض السيدات يرحبـن بدورهـن كأمهات، ويحببن هذا الدور، بينما تكره البعض الآخر هذا الدور، وتسخطن عليه. وبعض الناس يرحب بالوظيفة التي يقوم بها، وينظر اليها نظرة تقبل بينما البعض الآخر كاره لها وللدور الذي يقوم به.

٤ - أداء الدور: أداء الفرد لدوره الذي يتوقع منه، أو اختاره في ضوء فكرتـه عن نفسه، يتوقف على عوامل كثيرة منها مدى تحمسه له، أو عدم تحمسه، ومدى تعاونه مع الآخرين على أدائه، وأداء الدور وحده لا يكفي، ولهذا فإن أداء الدور يتوقف على العوامل السابقة المختلفة من توقعات الدور، وتصور الدور، وتقبل الدور، وما يصحب ذلك كله من سمات شخصية الفرد التي تساعده في أداء دوره[1].

---

(١) أنظر Allport, G., *Pattern and Growth of Personality*, Chapter 8.

ويمكن القول بوجه عام، أن هؤلاء الذين يدركون أدوارهم على نحو ما يدركها المجتمع، والذين يتقبلون ادوارهم في الحياة، هم أناس يميلون الى تقبل النظام الاجتماعي القائم. أما الذين يبغون إعادة تحديد دورهم، أو يكرهون القيام بهذه الأدوار - سواء من حيث مفهومه الشخصي أو الاجتماعي، فهم أناس ثائرون على دورهم في الحياة ومتمردون عليه، وغير متقبلين للنظام الاجتماعي الذين يعيشون فيه بوجه عام. ولكن ليس معنى ذلك أن كل شخص راض عن دوره. ومتقبل له يعد من النوع المحافظ وأن كل شخص ثائر على دوره غير راض عنه، يعد من النوع المتحرر، بل تبدو هذه كنزعة عامة تسير في هذا الاتجاه فحسب[1].

رابعا: محددات الموقف Situational Determinants

محددات الموقف هي رابع محددات الشخصية، التي وضعها كلاكون، ومرى، وشنيدر، والمعروف أن الانسان يمر في حياته بعدد من المواقف التي تؤثر في شخصيته. وبالطبع لا يمكن النظر الى الشخصية كما لو كانت مستقلة عن المواقف التي تمر بها أو توجد فيها. فنحن لو أخذنا العمليات البيولوجية أو الفسيولوجية في الاعتبار، فإننا نجد أنها تتطلب وجود اجهزة داخلية، أو عوامل بيئية، ومواقف تتحقق فيها، فعملية الهضم مثلا تتطلب وجود الاحساس الداخلي بالجوع، وفي الوقت نفسه تتطلب وجود الطعام اللازم لاشباع هذا الدافع. ويرى «جون ديوي» أن الأمانة والمحبة والشجاعة، والبخل ،والمكر، وعدم المسئولية، او تحملها ليست ممتلكات خاصة بالفرد، بل هي توافقات او تكيفات فعلية لقدرات الفرد من قوى البيئة. فليس ثمة شيء يمكن أن يعد ذاتيا او شخصيا دون أن يكون في الوقت نفسه انعكاسا للبيئة المادية، والاجتماعية والثقافية والمواقف التي يمر بها الفرد.

ولعل هذا القول يذكرنا بما قاله «وليم جيمس» في حديثه عن تنوع الذوات بأن لكل فرد منا ذوات متعددة بقدر ما هناك من جماعات متعددة من الناس نهتم بمعرفة رأيهم فنيا او بعبارة اخرى، بقدر ما هنالك من مواقف متعددة نتعامل معها.

ويمكن لنا أن نتعرف على أثر المواقف في تحديد بعض سمات الشخصية وذلك

---

(١) انظر سيد غنيم، المصدر السابق، ص ١٤٧.

بالرجوع الى الأسرة. فقد اتفق العلماء على أهمية الأسرة التي ينشأ فيها الشخص وكيف أنها تعد من أهم محددات الشخصية، كما أن تأثيرها في تشكيل شخصية الطفل مشروط بتحديدات ثقافية للأدوار الخاصة بالأباء والأطفال،ولكن قد تحدث أحيانا للاسرة مواقف عابرة، أو أحداث عارضة لم تكن متوقعة، تجري تغييرات في الأسرة، وبالتالي تنعكس تلك التغيرات في شخصية الأطفال، فان الثقافة تحدد بصورة عامة أدوار الآباء، والأمهات والابناء، والاخوة في الظروف العادية. ولكن قد تحدث مواقف تغير الصورة العادية للأسرة. كطلاق الأب والأم. أو انفصالهما وقد يؤ دي ذلك إلى ان يعيش الطفل مع أبيه فقط، أو والدته فقط. وفي بعض الأحيان قد يكون هناك فارق كبير في السن بين الأم والأب مما يغير الأدوار المحددة ثقافيا لهما. أو قد يكون عمل الأب من ذلك النوع الذي يضطره إلى التغيب عن المنزل معظم الوقت أو الى العمل ليلا، والنوم نهارا، وفي مواقف اخرى يحدث أن يكون الطفل هو الطفل الأول، او الطفل الاخير، او الطفل الأوسط، وكل موقف من هذه المواقف يصاحبه كثير من الخبرات التي تؤ ثر في شخصية الفرد[1].

وهناك العديد من الأمثلة على اختلاف السلوك باختلاف المواقف. وهناك نزعة ملحوظة لدى الباحثين النظريين الى القول بان ليس ثمة «ثبات داخلي في الشخصية» وأن كل شيء يتحدد بالموقف الذي يوجد فيه الفرد.

وهناك عدة حقائق قد أشار اليها «البورت» عند النظر في محددات الموقف اهمها ما يلي:

الحقيقة الأولى:

إن معظم الناس عندما يواجهون بمواقف جديدة غريبة عليهم؛ يميلون الى التحفظ في السلوك، أو الانسحاب اما في المواقف المألوفة فانهم يكونون عادة اكثر فاعلية ونشاطا وتعبيرا عن أنفسهم. وفي ضوء هذه الحقيقة فاننا نميل إلى تحقيق ذواتنا، وإذا عجزنا عن ذلك - على نحو ما قد يحدث في المواقف القريبة - فإننا نميل الى الانسحاب.

---

(١) كلاكون ومرى وشنيدر، المصدر السابق، ص ٦٢.

الحقيقة الثانية:

إن صغار الأطفال «موقفيون» اكثر من الكبار فهم يعيشون الموقف المباشر الذي يمرون به، فهم في حالة مرحهم، يمرحون بصخب وفي حالة خوفهم يخافون بشدة كل ذلك حسب المواقف المباشرة. وكأنهم يقتهرون الى «الشخصية الداخلية» حتى يمرون بمثل هذه المواقف، ومن الواضح أن الكبار عامة أقل خضوعا للموقف من الأطفال.

الحقيقة الثالثة:

إن معظم الناس يقومون بدور كبير في خلق المواقف التي يستجيبون اليها. فالشخص الذي يحب الحفلات، والاجتماعات يسعى إلى عقد هذه الحفلات والاجتماعات، وقد يفسر مرحه وسروره بأنه نتيجة للموقف، ولكنا إذا تدبرنا الأمر لوجدنا أن الموقف نفسه نتيجة عوامل تتصل بشخصيته هو أيضا[1]. ويمكن في النهاية أن نقول أنه يجب أن تتوفر لدينا معرفة بمحددات الموقف، الى جانب معرفتنا بسمات شخصية الفرد، من أجل أن يكون التنبؤ بالسلوك اكثر دقة.

اعتماد المحددات بعضها على بعض: Interdepdence of the Determinats

لا تعمل المحددات الأربعة للشخصية كما وضعها كلاكون، ومرى، وشنيدر مستقلة احداها عن الأخرى بل أنها تعمل كوحدة تتوقف كل منها في هذه الوحدة على الأخرى. فهناك ارتباط واضح بين المحددات التكوينية ومحددات الدور ومحددات الموقف، وهناك امثلة عديدة لما نقول. فالعلاقة بين المحددات الثقافية، والدور، والمحددات التكوينية على سبيل المثال يمكن اتضاحها حين نلاحظ أن الطفل في كل مجتمع يتطبع اجتماعيا بصورة مختلفة حسب جنسه إذا ما كان ذكرا او انثى، وكذلك حسب سنه. ومن هنا نجد تمايزات بين شخصيات الرجال والنساء من ناحية، وبين شخصيات الكبار والصغار من ناحية أخرى.

والعلاقة ظاهرة وواضحة بين المحددات التكوينية، والمحددات البيئية والثقافية

---

(١) انظر: البورت، المصدر السابق، ص ١٧٩.

والاجتماعية. فكون الانسان حيوان ثدي له القدرة على انتاج الجنسين. يخلق لديه الاستعداد الأساسي لارساء مبادىء الحياة الاجتماعية كما أن طفولة الانسان، وما هي عليه من ضعف وما تحتاج اليه من رعاية طويلة الأمد، لعلها أطول مدة طفولة بين الكائنات الحية جميعها، تدفع الانسان الى تكوين الجماعات الاسرية. ومن خلال هذه الجماعات الأسرية تحدث عملية اجتماعية مختلفة كالتوافق، والتنافس، والميل إلى المشاركة وغيرها، وجميعها تتم داخل الاطار الثقافي للأسرة التي يعيش فيها الطفل.

والارتباط واضح أيضا بين المحددات التكوينية وكل من عضوية الجماعة ومحددات الموقف. ورغم أن القوائم المتشابهة قد تختلف بدرجة قليلة جدا من الناحية التكوينية والبيولوجية وأنها تشارك في انشطة الجماعة التي تبدو متشابهة في الظاهر، فان العامل الموقفي قد يحدث آثاراً مختلفة في خبرات كل منهما، وفي تفاعله الاجتماعي مع الجماعة، فلو أن أحد التوأمين فصل عن اخيه لسبب أو لآخر، ونشأ في بيئة تختلف كثير عن بيئة اخيه، ولقى تعليما مدرسيا عاليا، بينما حرم الآخر من هذا القدر من التعليم، فان الاحتمال كبير أن نجد اختلافا واضحا بينهما في خبراتهما رغم تقاربهما في النواحي التكوينية والذكاء.

ويظهر ترابط العوامل الفسيولوجية والثقافية المحددة للشخصية في الأمراض الهستيرية، والأمراض النفسية الجسمية وفي نمو مفهوم «الذات» اذ تتكون صورة الذات عند الفرد. بصورة جزئية، عن طريق مجموعة من العوامل الفسيولوجية، والثقافية وهي شعور الفرد بجسمه، وادراكه لمظهره والخبرات التي يكتسبها الفرد في علاقاته بالآخرين، واتجاهات الفرد وميوله نحو ذاته[1].

وقد تصنف بعض العوامل المحددة للشخصية ببساطة كعوامل بيولوجية ولكن الفحص الدقيق يبين أنها ليست كذلك وانما هي نتاج عوامل متعددة معقدة، فمثلا المرض وما يحتويه من آثار على تكوين الشخصية هو ظاهرة بيولوجية من حيث تعرض الجسم لجرثومة معينة، وما يصاحب ذلك من اعراض جسمية مرضية، وما يترتب على ذلك المرض من آثار في تكوين شخصية المريض ولكن عندما يحدث مرض معين

---

(١) انظر كلاكون ومرى وشنيدر، **المصدر السابق**، ص ٦٤

لشخص بالذات نجد أن هنـاك عددا من العوامـل المتشابـكة التـي تؤثـر في هذا المواقف، منها العوامل البيولوجية الخاصة باستعداد الجسم لمقاومة ذلك المرض، او التاثر به مباشرة، هذا بالاضافة الى عوامل ثقافية تتمثل في المستوى الصحي والعلمي الذي وصل اليه المجتمع الذي يسمي ،بيه الفرد، وما يترتب على ذلك من عوامل تؤثر في شفاء المريض او عدم شفائه وفي تحديد مدة الشفاء، وتحديد مدى معاناة المريض لأعراض المرض، ولا يمكن اغفال عوامل العضوية في الجماعة والمستوى الاجتماعي والاقتصادي لأسرة المريض وما يترتب على ذلك من تاثير في شفـاء المريض ومـدة الشفاء. وكذلك لا يمكن إغفال الأنماط الثقـافية المحـددة لدور المريض في ذلك المجتمع، والأدوار التي يؤديهـا المقربـون له في ذلك الموقف ومـا يستخدمونـه من وصفات بلدية أو أساليب علمية في ذلك الموقف، وما يصاحب ذلك من تاثيرات في حالة المريض. وفي امكانية شفائه السريع، او حدوث الوفاة، او حدوث مضاعفات قد تؤثر في شخصيته مدى الحياة.

وإذا ما أردنا أن ندرس التوافق بين العوامل البيئية الطبيعية، والثقافية، في تحديد سمات الشخصية، تنبغي الاشارة الى ما تقوم به الثقافة من تأثير في توجيه، وأحيانا في تشويه الادراك الحسي بالعالم الخارجي فقد اثبتت التجارب ان الايحاء الاجتماعـي يلعب دورا هاما في تكوين الاطارات المرجعية للإحساس، إذ يمكن اعتبار الثقافة عدسة يرى الانسان من خلالها بيئته الاجتماعية.

ومن الدراسات التـي عنيت ببيان التداخـل بـين محـددات الشـخصية، تلك الدراسة التي قام بها كـل من «سبتز» Spitz ' وولف Wolf ' والتي اظهرت بعض الاختلافات في السلوك الجنسي الذاتي بـين الأطفـال الخاضعـين لتـربية صارمـة. والأطفال المتمتعين بعناية كبيرة من الأمهات، فقد بينت الدراسة كثرة حالات الاثارة الذاتية للاعضاء التناسلية في المجموعة الاولى من الأطفال في حين تقل تلك الحالات نسبياً في المجموعة الثانية[1].

ويظهـر تضافـر المحـددات الاجتماعية والثقـافية، مع المحــددات الموقفية، في

---

(١) انظر عاطف وصفي، الثقافة والشخصية، الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية، ص. ١١.

التفاعل الاجتماعي الذي يؤثر في تكوين الشخصية. فكل الأطفال (عدا التوائم) يولدون في فترات مختلفة من حياة والديهم وبالتالي في ظروف مختلفة. بحيث يمكن القول - من الناحية النفسية - أن لهم آباء مختلفين هذا بالاضافة الى أهمية كون الطفل مرغوباً فيه أم لا، كما أن لجنس الطفل نفسه أثر في تقبله وفي معاملة الأهل له.

وهكذا نتبين في النهاية أن الشخصية هي نتاج ترابط العوامل الفسيولوجية، والثقافية، والاجتماعية، والموقفية. وأن العوامل الثقافية وحدها لا تفسر كل سمات لشخصية وجوانبها.

البَاب الثالث

العلاقة الجدلية
بَين الثقافة والشخصيَة

الفصل الثامن

الثقافة والشخصية
(حوار جدلي)

أ ـ أثر الثقافة في الشخصية:

نتناول في هذا الفصل حوار التأثير والتأثر بين الثقافة والشخصية.

ويمثل هذا الجزء الطرف الأول من الحوار الجدلي بين الثقافة والشخصية. أي أننا سنتناول هنا أثر الثقافة في الشخصية. ولما كنا قد حللنا الشخصية إلى النواحي المختلفة التي تتكون منها؛ وذلك بقصد التفصيل والايضاح وإبراز الحقائق، فإننا في هذا الجزء سنتبع الطريقة نفسها ونبين أثر: الثقافة في هذه النواحي كل منها على حدة.

أولا: أثر الثقافة في الناحية الجسمية:

إن الثقافة السائدة في شعب من الشعوب كثيرا ما تجبر الفرد بما لها من قوة جبرية والزام وسيطرة مستمدة من العادات والتقاليد والقيم ـ على أعمال أو ممارسات Practices قد تضر بالناحية الجسيمة ضرراً كبيراً. «فمثلا كانت العادة في الصين في بعض الطبقات المرفهة، أن تثنى أصابع الطفلة الأنثى وتطوى تحت القدم وتلبس حذاء يساعد على إيقاف نمو قدميها ويجعلها تمشي مشية خاصة. وكانت هذه المشية الخاصة في نظرهم هي وصغر القدم من علامات الجمال كما كانتا دليلا على رفاهية صاحبتها وأنوثتها»[1]

---

(1) Ogburn & Nimkoff, *Sociology*, p. 58.

ومعنى ذلك أن الجماعة التي يعيش الفرد بينها والثقافة التي يترعرع فيها هما اللتان تحددان معايير الجمال وتقرران ما إذا كانت هذه الصفة الجسمية أو تلك ذات قيمة جمالية أم لا... وتختلف المجتمعات اختلافا واسعا في الصفات الجسمية المحتمل اعتبارها من صفات الجمال والجاذبية. فمعظم القبائل البدائية تعتبر السمنة من صفات الجمال والجاذبية. وكانت السمنة إلى عهد قريب جداً - وما زالت في الريف وفي كثير من الأوساط الشعبية في المدن - ينظر إليها كعلامة من علامات الجمال. ولذلك كانت السيدات يحاولن بكل الطرق أن يصلن إلى السمنة المطلوبة (ومن هذه الطرق أكل الدهنيات والسكريات بكثرة وكذلك نوع خاص من المربى يحضر من مركبات خاصة بطريقة خاصة يعرف «بالمفتقة». ومن الثابت علميا أن السمنة المبالغ فيها تضر بالجسم وتجعله عرضة للأمراض. أما الآن فإن معايير جمال الجسم - عند بعض الأوساط، كالمتفرنجات، والسيدات الموظفات وبنات المدارس قد تغيرت وأصبحت ترى الجمال في الرشاقة فقد شاعت مسألة الامتناع عن بعض المأكولات أو السير في نظام في الأكل ونوعه régime وممارسة الرياضة البدنية. وكل هذا للحصول على «القالب» أو «الكسم» اللائق الذي تقدره الجماعة وتغرم به.

وثقافة القوم هي التي تحدد في كثير من الأحيان ميول الأفراد لبعض أنواع الأكل والشرب حتى ما كان منها ضارا بالجسم أو لا يفيده الفائدة المرجوة، وأكبر دليل على ذلك حب الناس للقهوة والشاي والمشروبات الروحية والدخان والحشيش. فهذه كلها ميول مكتسبة من البيئة ومن الثقافة. أي أنها ليست مقررة بالفطرة وحاجة الجسم الفسيولوجية بل ترجع في الغالب إلى السلوك الانسياقي الذي يجرف الفرد في تيار الجماعة ويجعله يجاريها ويتوافق معها، وما يثبت ذلك أن كثيراً من هذه الميول يختلف بإختلاف المجتمعات. ففي مصر نشرب الماء، وفي فرنسا وسويسرا يشربون النبيذ، وفي ألمانيا يشربون البيرة وفي فنلندة يشربون اللبن إلى آخره... كذلك حب الناس في المدن عندنا للرغيف الأبيض يرجع إلى الثقافة أكثر مما يرجع إلى حاجة الجسم نفسها، فالرغيف الأبيض أقل فائدة - لنقصه في فيتامين (B) من الرغيف الأسمر الغنى بالردة وفيتامين (B) ومع ذلك يفضل الناس أكله. هذا وأثر الثقافة لا يقتصر على خلق ميول لأنواع خاصة من المشروبات والمأكولات «كحب السمن

البلدي عندنا والنفور من السمن الصناعي، بل كثيراً ما تملي الثقافة على القوم طريقة الطهو نفسه. ففي إنجلترا مثلا نجد الطريقة الشائعة في الطهو هي السلق بينما في مصر يغرمون «بالتسبيك» بالسمن والطماطم.

ومما يبين أثر الثقافة في الناحية الجسمية أيضا ما يشيع عند بعض الشعوب البدائية من ممارسات مؤلمة ضارة بالجسم كالتجويع والتعطيش والتعذيب الذي يجب أن يوقع على الأفراد في حفلات البلوغ أو الزواج. وكذلك ما تقوم به بعض الشعوب البدائية من مط الشفة أو تشريط الوجه... الخ.

ومن المجتمعات ما تحتم ثقافته نوعا من التربية يستهدف إعداد الشباب لفنون الحرب، مثل المجتمع الأسبرطي القديم، فيعتني بالجسم بشتى الوسائل.

ثانيا: **أثر الثقافة في الناحية العقلية:**

لا جدال في أن الثقافة تؤثر في الناحية العقلية للشخصية خاصة الناحية المعرفية الفكرية. فالفرد الذي يعيش في جماعة تسود في ثقافتها العقائد الدينية أو الأفكار السحرية تنشأ عقليته وأفكاره متأثرة بذلك. وكذلك فكرة الله وصلته بالمخلوقات، وما يترتب عليها من مذاهب دينية؛ تتباين أشد التباين في الجماعات المختلفة. فالمعتقدات التي تسود في مجتمع هندي أو صيني غير تلك التي تعتنقها الجماعة الأمريكية أو المصرية - فمثلاً «يعتقد أهل قبيلة Navaho من قبائل الاريزونا الأمريكية أن وسط العالم في جبال «نافاهو»، وهي منطقة بركانية، وأن الآلهة تسكن هذه البراكين. وهم يعتقدون أن العالم مشبع بقوى خفية يمكن للانسان أن يغير فيها بعض الشيء؛ ولكنه على العموم خاضع لها. وينظر الواحد منهم إلى القرابة على أنها قوة تؤدي إلى تثبيت نظام الكون، لأن القوى الأخرى إذا سببت له الشقاء فإن الأقرباء سيعملون على تخفيفه... الخ[1] وهكذا تتدخل ثقافة القوم في مضمون أفكار الأفراد ومعتقداتهم وآمالهم وقيمهم، بل في طرق تفكيرهم نفسها أيضا.

ويتم غرس الأفكار عند الطفل سواء في المجتمع البدائي أو المجتمع المتحضر عن

(١) حسن شحاته سعفان، **أسس علم الاجتماع**، ص ٢٠٣.

طريق الأسرة. ولذلك يمكن أن يقال بحق أن من أهم وظائف الأسرة مساندة التركيب الاجتماعي وتأييده. وفي المجتمع المتحضر ، تشترك مع الأسرة، في غرس الأفكار وتشكيل العقليات هيئات متعددة كالمدارس والأذاعة ودور الصحافة والتليفزيون. . . الخ، «وقد أنشئت في الشعوب الاشتراكية منظمات خاصة خارج المدرسة لاستثارة الخيال وغرس الأفكار الجديدة في الشبان مثل «الشباب الشيوعي» في روسيا، و«شباب هتلر» في أواخر عهد المانيا النازية، والـ «باليلا» و«افانجارديتي» في أوائل عهد إيطاليا الفاشية. وقد ذهبت هذه «التشكيلات الجديدة» في كل من إيطاليا وألمانيا مع الريح بعد هزيمتها العسكرية، ولكن الرقابة التربوية المحكمة في الماضي القريب أدت إلى النتائج التي كانت مرغوبا فيها بدليل ما يلاحظ اليوم من التشبث بالقيم الفاشية بين الشباب الذين نشأوا في ظل هذه النظم. وكذلك غرست روسيا في شبابها لمدة ثلاثين عاماً تقريباً مبادىء الحزب الاشتراكي هناك، حتى انتهى الأمر بأن تحظى جميع القيم الحكومية بالقبول العام وأن تنعم البلاد باستقرار نسبي في تركيبها الاجتماعي باسره»[1].

ثالثا: أثر الثقافة في الناحية المزاجية:

التكوين المزاجي كالتكوين الجسمي وكالقدرات العقلية المعرفية يعتبر المواد الخام التي يتكون على أساسها الخلق وأساليب السلوك. وتتضمن الناحية المزاجية Temperamental تلك الاستعدادات الثابتة نسبيا المبنية على مالدى الشخص من الطاقة الانفعالية والدوافع الغريزية التي يزود بها من بداية طفولته والتي تعتمد على التكوين الكيميائي والغدي والدموي، وتتصل إتصالا وثيقاً بالنواحي الفسيولوجية والعصبية، وينبئنا علم النفس، بأن بعض الناس يولدون بكمية كبيرة من الطاقة الانفعالية وبعضهم يرثون كمية قليلة من هذه الطاقة. فالشخص ذو الطاقة الانفعالية، الكبيرة يتميز بقوة انفعالاته وعنفها ـ بصفة عامة ـ ولذلك يصعب عليه كبح جماحها لشدتها، وتقل قدرته على السيطرة عليها فتظهر عليه علامات القلق

(١) على أحمد عيسى، **المجتمع**، ترجمة عن الانجليزية للمؤلفين ر. م. ماكيفر، وتشارلز بيج، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

وعدم الثبات وعدم الاستقرار المزاجي. أما الشخص ذو الطاقة الانفعالية المحدودة فيتصف بالخمول والبرود والبلادة المزاجية ونجد انفعالاته بطيئة الاستثارة مشوبة بالوهن والضعف وهناك بين هذين النقيضين درجات كبيرة متفاوتة في الاعتدال والشدة. وقد يفهم من هذا أن قوة الانفعال أو ضعفه تتوقف كلية على الناحية البيولوجية الموروثة. ولكن الدراسات الأنثروبولوجية والثقافية أثبتت لنا أن العوامل الوراثية، وإن كانت تلعب دوراً كبيراً في مزاج الشخص وانفعالاته لا تقوم وحدها بالدور الحاسم. فالثقافة أيضا لها دور كبير في التأثير على الجانب الانفعالي العاطفي للفرد فكثيراً ما تتفاعل عوامل المحيط الاجتماعي والثقافة مع هذا الجانب الانفعالي فتجعله يتشكل ويتنوع تبعا لها. فكثيراً ما نجد شخصاً قد ورث في تكوينه البيولوجي عوامل تدعوه إلى الغضب وسرعة الاعتداء والمقاتلة؛ ولكنه ولد في ثقافة لا تحبذ هذه الصفة في أفرادها. ولذا نرى أن طريقة تنشئته الاجتماعية تجعله يعدل ميوله العدواني ويحوله من مجرى الأذى إلى مجرى آخر، ويصبح مسالما وديعا ينفر من النزاع ولا يميل إلى المقاتلة كأفراد قبيلة أرابش Arapesh التي عنيت بدراستها العالمة الأنثروبولوجية مارجريت ميد Margaret Mead [1].

ولا بد أن نوضح أن الثقافة لا تغير نوع أو طبيعة الانفعالات نفسها بل هي تؤثر في كيفية التعبير عنها أي في تحديد وتعيين الظروف والمواقف التي تثيرها، وفي اتجاهها ودرجتها ومداها وقيمتها. . الخ، أي أن الثقافة تلعب دوراً جبرياً إلزامياً في تنميط العلاقات (تكوين أنماط خاصة بها Cultural Patterning of emotions) وما علينا إلا أن ندرس تعبير الأفراد عن انفعالاتهم في مختلف الثقافات لنقتنع ونعترف بهذه الحقيقة، وهي أن للثقافة أثراً كبيراً في الصفات المزاجية التي كان يظن أنها طبيعة وفطرية محضة. «فالقبائل البدائية، سكان جزر أندامان Andaman Islanders والماوري في زيلندة الجديدة. Maori of New Zealand يذرفون الدموع مدرارا عندما يتقابل الأصدقاء بعد الغياب، أو عندما يتصالح فريقان متحاربان. ويرد الياباني على تعنيف رئيسه له بابتسامة[2].

---

(1) Margaret Mead, *Sex and Temperament*, pp 19 - 22. ch IV.

(٢) أوجبرن ونيمكوف، **المصدر السابق**، ص ١٤٤.

وتختلف ثقافات المجتمعات في التعبير عن الانفعالات عند موت شخص عزيز. فالانجليز مثلا يعبرون عن حزنهم في ثبات وصبر كبيرين. أما العرب في الجاهلية فكانوا يبالغون جداً في إظهار الحزن في مثل هذه الاحوال بلطم الخدود وشق الجيوب... الخ، كذلك المصريون يخضعون لثقافة عامة واحدة إلا أن الثقافات الفرعية - المحلية أو الأقليمية - (Sub Cultures) التي يخضع لها كل فرد حسب إقليمه، ترسم له نمط سلوكه في إظهار حزنه في هذه الحالة. ففي بعض جهات المدن وفي الريف تنشأ المرأة على التعبير عن حزنها بلطم الخدود، وشق الجيوب، وصبغ الوجه والأطراف بالنيلة والعويل والصراخ. الخ، بينما المرأة المتعلمة تنشأ على الا تتصرف هذه التصرفات في نفس الموقف المحزن.

«ومن الشعوب التي تبالغ جداً في إظهار الحزن في مثل هذه المواقف الشعب الصيني. ولهم مؤلفات كثيرة تحتوي على مجموعات مطولة من القواعد والنصوص التي تنص على كيفية التعبير اللائق عن الحزن. ومن هذه مؤلف يسمى «دراسات لازمة للسيدات» نجد به هذه التعليمات: «إذا مرض والدك أو والدتك فلا تبتعدى عن سريره أو سريرها، ذوقي كل الأدوية بنفسك، تضرعى إلى الله لشفائه أو شفائها. وإذا حدثت مصيبة فابكى بكاء مراً»[1].

ومرة أخرى نرى أن الخبرة والوسط الثقافي والتربية، وليست الطبيعة الفطرية وحدها هي المسئولة إلى حد كبير عن نمط التعبير الانفعالي.

كذلك في الاتجاه العدواني التعصبي مثلا، فإن بعض علماء النفس ومنهم «فرويد» يرجعه إلى أسباب غريزية فطرية. ويقول إن هذا الاتجاه نابع من غريزة الموت التي تهدف إلى الحاق الضرر بأي شيء. وإرجاع التعصب لأسباب غريزية فطرية، يتنافى مع نتائج الابحاث التجريبية التي قام بها «مورينو» (J. L. Moreno)[2] والتي تدل على أن الطفل الأمريكي لا يجد غضاضة في مصاحبة الزنجي واللعب

---

(١) أوجبرن وينكوف: المصدر السابق، ص ١٤٥.

(2) J.L. Moreno, *Who Shall Survive?* 1934

معه، لكن الرجل الأمريكي يتعصب ضد الزنجي ويأنف عنه. فالطفل الصغير يختلف إذن عن الرجل في أنه لم يتطبع بعد ولم يمتص بعد، التعصب العنصري الذي هو من معايير الثقافة القائمة.

ومن هذا يتضح أن التربية أو التنشئة هي التي تحقن الصغير حقنا بالتعصب أو غيره من الاتجاهات التي تتبلور في شخصيته، وتتأصل في نفسه بالنمو وبمرور الزمن.

رابعا: **أثر الثقافة في الناحية الخلقية.**

أشرنا قبل ذلك الى أن هناك صلة كبيرة، وتداخلا مستمرا بين النواحي الخلقية والنواحي العقلية والمزاجية للشخصية، وأنه من الصعب أن نفصل بينهما. غير أنه من الواضح جدا أن النواحي الخلقية أقرب كثيرا من الناحيتين الأخريين للشخصية، إلى عوامل البيئة، والوسط الاجتماعي، والثقافة المهيمنة على الفرد. فالنواحي المزاجية والعقلية المواد الخام التي تبنى عليها الصفات الخلقية، ولذا فإن الاخلاق السائدة في المجتمع، هي المحصلة الناتجة من تفاعل القوى المزاجية والعقلية مع عوامل البيئة الاجتماعية والثقافية.

فالثقافة في مجتمع النظام الطبقى تطبع كل شخص بخلق خاص تبع طبقته. فالأشراف مسيطرون متكبرون والعبيد أذلاء خانعون. كما أن الثقافة في مجتمع اشتراكى تؤثر في أخلاق الفرد وتجعله متعاونا بعيدا عن الأنانية والغطرسة يشترك في أمور غيره ويشرك غيره في أموره.

ومعنى ذلك أن كل ثقافة يسرى فيها تيار اخلاقى خاص ينساق فيه الفرد متأثرا بالمعايير الأخلاقية السائدة من ناحية الخير والشر والصواب والخطأ وما يجوز وما لا يجوز والمعايير أمور نسبية تختلف في معناها وحدودها من مجتمع إلى آخر. ولذلك فالجنوح عن صراط تلك المعايير أمر نسبى والسلوك الشاذ في ثقافة ماقد يكون سلوكا عاديا بالنسبة لمعايير وقيم ثقافة أخرى.

فالسرقة مثلا، تعتبر من الجرائم في المجتمعات الحديثة ولكنها كانت مباحة في

كثير من الشعوب البدائية والقديمة حيث كانت تعتبر نوعا من أنواع البطولة فثقافة الاسبرطيين مثلا كانت عسكرية ولذلك كانوا يمرنون النشىء على أعمال العنف، وكانوا لا ينظرون إلى السرقة كجريمة بل يعدونها نوعا من البطولة. وكذلك أكل اللحوم البشرية فإننا ننظر إليه على أنه سلوك حيواني بشع، ولكنه أمر مقبول وعادي عند بعض القبائل فمثلا قبائل «الشيمس» في الصين (The Chames of Cochin china يأكلون أكباد الأعداء بعد قتلهم لأنهم يعتقدون أن الكبد (مركز الشجاعة) وبذلك تسرى إليهم هذه الصفة كذلك مثلا موقف الناس من القتل ووأد البنات والأطفال، كل هذا يتوقف على الثقافة السائدة، فعند الغالة سكان فرنسا الاصليين كان القتل مباحا في بعض الأحوال، فالمريض مثلا، كان يقتل وكذلك الفقير بقصد تنظيف المدينة - كما أن ثقافة الاسكيمو تبيح لهم قتل المسنين من اهلهم[1] ومن ناحية وأد البنات مخافة العار والفقر كان هذا مباحا عند العرب في الجاهلية وكذلك وأد الأطفال في اسبرطة القديمة كان مباحا أيضا. والأخذ بالثأر يعتبر جراة وعزة في بعض الثقافات بينما يعد جريمة يعاقب عليها القانون في البعض الآخر. والمسارعة لنجدة الغير من الصفات في خلق الريفيين، والجماعات المبسطة والجماعات المقفلة على العموم في حين أنه في المدن الحديثة الواسعة المعقدة يعتبرها الفرد تدخلا فيما لا يعنيه.

وخلاصة القول أنه ثبت بالأدلة الانثروبولوجية أن كثيرا من الصفات الخلقية التي كان علماء النفس يعزونها إلى الفطرة والوراثة ترجع إلى حد كبير إلى فوارق الثقافة وعلى ذلك لم يعد صحيحا، القول بأن المرأة بطبيعتها طيعة وديعة خانعة سلبية، وأن الرجل بطبيعته خشن عدواني مسيطر ففي قبيلة «تشامبولي» (Tchambuli) في غينيا الجديدة يقوم الرجل بدور المرأة وتقوم المرأة بدور الرجل، ولذلك تتصف النساء بالخشونة والسيطرة - بينما يتصف الرجل بالتخنث. وإذا ظهر بينهم رجل يميل إلى التسلط وعدم الخضوع للمرأة فإنه يعتبر شاذا[2] وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه من أن الصفات الخلقية يجب تفسيرها في إطار الثقافة التي تخضع

---

(١) أوجبرن ونيمكوف، **المصدر السابق**، ص ٥٩.
(٢) ماجريت ميد، **المصدر السابق**، المكان نفسه.

لها.

شخصية الفرد نتيجة لتفاعل العوامل الوراثية والبيئة:

والآن، بعد توضيح أثر الثقافة في كل ناحية من نواحى الشخصية لم يعد هناك معنى لتفسير الفروق بين الشخصيات على أساس الغدد الصماء وحدها، أو الذكاء وحده... الخ. كما لم يعد هناك معنى للتساؤ ل أى ناحية من نواحى الشخصية فطرية صرفة، وأى ناحية مكتسبة صرفة، فيكاد يكون هناك اتفاق تام بين العلماء المعاصرين على أن شخصية الفرد بجميع نواحيها بكلياتها وجزئياتها نتيجة تفاعل مستمر بين الوراثة والبيئة فليس هناك أى نشاط إنسانى يمكن أن نعتبره نشاطاً فسيولوجيا بحتا أى «فطريا» ومستقلا عن البيئة فحتى العمليات العضوية مثل التنفس والافرازات الداخلية والهضم والدورة الدموية رغم أنها تحدث داخل الجسم لا تسلم من أثر البيئة فهذه العمليات تتأثر بالتهوية ونظام التغذية من حيث نوع الأكل وطريقة طهوه وعدد الأكلات في اليوم ... الخ، كما تتأثر بالظروف والمواقف التي يخضع لها الشخص كظروف الامان أو الخطر والاطمئنان أو القلق والأمل أو اليأس والخوف أي أن العمليات الفسيولوجية خاضعة لأسلوب حياة الشخص في البيئة التي يعيش فيها.

المرونة النسبية في مكونات الشخصية:

ومن الضرورى أن نلفت النظر في هذا المقام إلى أن البيئة لا توثر بدرجة واحدة في جميع استعدادات الفرد ومكونات شخصيته من قدرات وصفات فبعض هذه القدرات والصفات ثابت نسبيا أى لا تغيره عوامل البيئة إلا في حدود ضيقة. كالصفات الجسمية والحركية والحسية وتليها الصفات المزاجية والذكاء وتسمى هذه بالصفات أو القدرات العصبية فالبيئة العادية لا تستطيع أن تغير لون الجسم من الأسود إلى الأصفر أو تحيل المزاج الدموى مزاجا سوداويا، كما أنها لا تستطيع أن تزيد من ذكاء شخص أو تنقص منه إلا بمقدار جد طفيف كما ظهر أن بعض الصفات والقدرات مرن نسبيا قد تغيره العوامل الخارجية العادية تغيرا كبيرا، كاللغة وكالصفات الخلقية والاجتماعية ففي وسع البيئة أن تزيل ما لدى الشخص من خصال، كالغش أو الكذب أو الشعور بالنقص، وأن تنمي عاطفة الولاء للوطن

عنده وأن تخلق في نفسه صفات واتجاهات جديدة كالتسامح والشعور بالواجب وتسمى هذه بالصفات الطيعة وبين الاستعصاء والطواعية درجات ومستويات شتى من المرونة النسبية ونحن نميل في العادة إلى اعتبار القدرات والصفات العصبية فطرية وراثية واعتبار الطبيعة المرنة مكتسبة، والحقيقة كما قدمنا أن كل منهما فطري ومكتسب في وقت واحد[1].

والمكونات الوراثية البيولوجية للشخصية لا يمكن أن تقوم لها قائمة أو يتضح أثرها بدون أثر البيئة. كما أن البيئة لا تستطيع أن تخلق شخصية من العدم فالمكونات البيولوجية للشخصية هي الكنوز المدفونة في الأرض هي المواد الخام، هي الاستعدادات والقدرات التي تتفاعل معها البيئة وعوامل المحيط الاجتماعي، فتشكلها بالشكل الذي ينسجم مع الثقافة المطلوبة أى أن ـ الثقافة هي التي تعين ظهور أو عدم ظهور هذه المكونات البيولوجية في قدرات فعلية، كذلك تعين مدى ودرجة وطريقة ظهورها. أى أن الثقافة هي صائغ الشخصية الذي يحورها ويشكلها ويخرجها في النموذج المطلوب.

لا شخصية بدون مجتمع:

إن الشخصية الانسانية لا تنمو وتتطور في الفراغ مستقلة عما حولها، والفرد لا يصبح شخصا إلا عن طريق الحياة الاجتماعية. ولو أننا عزلنا طفلا رضيعا بعد ولادته مباشرة عن جميع العلاقات الانسانية الاجتماعية لما تكونت له شخصية ولبقي مجرد كائن حي (Organism) [2].

وليس من السهل طبعا إجراء تجارب لعزل الأطفال عن المجتمع عزلا تاما، فهذه عملية غير إنسانية ومن أصعب وأقسى الأمور، ولكن من حظ العلم أن الصدف والاحداث الطارئة زودتنا بحالات شبه معملية قدمت لنا الدليل القاطع

---

(١) أحمد عزت راجح: أصول علم النفس، ص ٢٥٣، ٣٥٤.

(٢) إن الكائن الانساني معطى خام، يظهر ويصير، كلما ازداد اتجاهه نحو التشخصن، ونحو الاندماج. محمد عزيز الحبابي، من الكائن إلى الشخص، ص ١١.

الذي لا يقبل الشك على أن المكونات الوراثية البيولوجية التي يولد بها الانسان لا يمكن لها وحدها أن تكون منه إنسانا اجتماعيا له شخصية إنسانية. ومن هذه الحالات ما يلي:

١ - الطفلة الهندية «كمالا» «الطفلة الذئبية»[١] : (kamala the Wolf Child)

اكتشفت كمالا في سنة ١٩٢٠ في جحر ذئب بالقرب من «ميدنابور» في الهند، ووجدت معها اختها «أمالا» Amala التي تصغرها وكان سن «كمالا» حينئذ ٨ سنوات، وسن «أمالا» ما يقرب من سنتين ونصف وقد ماتت «أمالا» بعد العثور عليها بمدة قصيرة. أما «كمالا» فيقال أنها عاشت حتى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وعندما عثر عليها لم يكن في أحوالها ما يدل على مظاهر السلوك الانساني ولم تكن لديها أي قدرة من القدرات البشرية ولا حتى القدرة على ترديد بعض المقاطع الصوتية. فلم تكن تتحدث بأي لغة. وكان سلوكها العام عنيفا ويشبه سلوك الحيوان فكانت تأكل اللحم النيء وتعوي عواء يشبه عواء الذئب وتمشي على أربع وتخشى الادميين كما يخشاهم أي حيوان غير مستأنس. ويقال أنها بعد أن اكتشفت وانتشلت من عزلتها وأخذت لتعيش في المجتمع أمكن تعليمها الكلام واللعب وأكل الطعام والطهو والمشي على رجليها فقط بدلا من المشي على أربع.

٢ - حالة كاسبار هاوزر[٢] : (The Case of Kaspar Hauser)

وهذه قصة كاسبار هاوزر الذي وضع في سجن منذ طفولته المبكرة وعاش فيه وحرم من الاتصال بغيره من الناس لاسباب سياسية وحينما عثر عليه وأخرج من السجن في سن السابعة عشرة وأخذ ليتجول في مدينة نورمبرج Nuremberg في بافاريا سنة ١٨٢٨، لم يكن يستطيع المشي إلا بصعوبة. وكان يفكر كالأطفال، ولا يستطيع التحدث ولا التمييز بين الجماد والكائنات الحية كل ذلك لأن حرمانه من الحياة حرمه أيضا من أن يستمتع بالقدرات الانسانية نفسها.

---

(1) Kimball Young, *Sociology: A Study of Society and Culture*. pp. 113 - 115.

(٢) انظر كيميل يونج، **المصدر نفسه**، المكان نفسه.

٣ ـ حالة «أنا» [٢] : (the Case of Anna)

وهي قصة طفلة أمريكية غير شرعية خشي جدها من افتضاح أمر إبنته فعزل طفلتها في حجرة مظلمة في أعلى مسكنه، ومنع أي إنسان من أن يراهـا أو يعرف أمرها، ولم يكن اتصاله بها يزيد على امدادها باللبن الذي كان غذاؤها الوحيد. وهكذا ظلت في هذه الحجرة منذ كان سنها ستة أشهر معزولة عن التأثيرات الاجتماعية قابعة في كرسي في احد أركان الحجرة إلى أن اكتشفت بعد ذلك بخمس سنوات سنة ١٩٣٨ . فكانت لا تستطيع الكلام او المشي، وكانت ترقد دائما على ظهرها وترتجف من ملامسة أي انسان كما كانت مجردة من العواطف ولا تكترث بالناس حولها.

من كل هذه الأمثلة يتضح جليا ضعف المكونات البيولوجية والعناصر الوراثية، حينما تترك لشأنها إذ تعجز عن تكوين الشخصية الانسانية الطبيعية، والقدرات البشرية لا تنمو في الانسان إلا حينما يعيش في المجتمع مشاركا غيره من الأفراد ومتفاعلا معهم. كذلك تتضح أهمية التنشئة الاجتماعية أو التربية او التطبيع الاجتماعي في تنمية وتشكيل الاستعدادات الطبيعية عند الفرد.

والثقافة هي رأس مال الفرد يبدأ به حياته والذي يصل إليه عن طريق التنشئة الاجتماعية فإذا عزل عن التنشئة الاجتماعية وحرم منها فإنه يحرم من رأسماله كله، من الثقافة، ومن مقومات البشرية، ويفقد كثيرا من مميزاته الانسانية، فلا يستطيع القدرة على الكلام أو التمييز لما حوله من الأشياء أو الاستجابة العاطفية، ويبقى مجرد كائن حي (Organism) .

ولكن ليس معنى هذا أن العوامل البيولوجية الفطرية أو الوراثية ليست بذات أثر كبير بالنسبة لتشكيل الحياة الاجتماعية. إذ هي بجانب العوامل الطبيعية والمناخية تكون الاطار العام والمسرح الذي تعمل فيه الحياة الاجتماعية والثقافة السائدة. فلولا وجود العوامل البيولوجية المعرفية للانسان ـ واخصها الذكاء الذي يميزه عن الحيوان ـ لما تكون المجتمع الانساني كما نعرفه فما يبين اهمية هذه العوامل بالنسبة للحياة الاجتماعية، واكتساب التراث الثقافي أن ضعاف العقول لا يستجيبون للوسط

(١) المرجع نفسه.

الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ولا يمكن تنشئتهم تنشئة اجتماعية تجعلهم يستوعبون الثقافة التي يعيشون فيها.

الثقافة «صانع الشخصية»:

يمكننا أن نرى بوضوح الآن، الصلة الوثيقة بين الثقافة والشخصية. فكما أن الفرد يولد داخل مجتمع ما، فهو يولد أيضاً داخل ثقافة خاصة تشكل شخصيته فالثقافة هي الاطار الأساسي والوسط الذي تنمو فيه الشخصية وتترعرع، فهي التي تؤثر في أفكاره ومعتقداته ومعلوماته ومهاراته وخبراته ودوافعه، وطرق تعبيره عن انفعالاته، ورغباته، كما تحدد له القيم والمعايير التي يسترشد بها وتفرض عليه التقاليد التي يتمسك بها. وتدل الملاحظات وأبحاث الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع على أن طابع الشخصية ذو علاقة وثيقة بنمط الثقافة الذي تخضع له هذه الشخصية. أي أن الشخصية مرآة تعكس صورة الثقافة أو كما يقول «دوسن» (Dawson) وجيتيز (Gettys) أن الشخصية ممثلة للثقافة التي نشأت بها» [1].

لهذا نجد أن الأفراد الذين ينشأون في مجتمع معين وثقافة معينة، يتشابهون في بعض الخصائص التي تميز شخصيتهم عن شخصية غيرهم من أبناء المجتمعات والثقافات الأخرى، وأننا رغم ما نلاحظه بين أفراد المجتمع الواحد من تباين وتفاوت وفروق فردية تجعل لكل فرد شخصيته الخاصة به، نرى أنهم يتشابهون في طابع الشخصية العام الذي تتميز به ثقافتهم.

فالمصريون مثلا يختلفون في الطابع العام للشخصية عن الانجليز، وعن الامريكيين، وكل من هذه الشعوب الثلاثة يختلف عن الاسكيمو أو قبائل «الارايش» في غينيا الجديدة. وذلك لأن لكل شعب في الارض ثقافته الخاصة به وأسلوب حياته الذي يميزه.

هذا وتختلف شخصيات الأفراد في الثقافة الواحدة المنبثقة من «رحم ثقافي» واحد (Socio – Cultural Matrix) تبعاً لأنواع أو نماذج الثقافات الفرعية (Sub

---

(1) Dawson & Gettys, *Introduction to Sociology*, p. 16.

(Cultures التي يضمها هذا الرحم أي الثقافات المحلية والمذهبية إلى آخره فمصر تعد رحما ثقافيا واحد، له ثقافة عامة تميز المصريين عن غيرهم، هي الثقافة المصرية. ومع أن شخصية المصريين ذات طابع خاص، فنجد أن شخصية أهل الصعيد تختلف عن شخصية أهل الوجه البحري، وأن شخصية أهل الريف تختلف عن شخصية أهل المدن. كما أن لرجال الدين طابعاً يختلف عن طابع رجال السياسة مثلا. ومعنى ذلك أن أنواع ونماذج الشخصية تتبع أنواع ونماذج الثقافة، لأن الثقافة هي التي تصوغ الشخصية وتشكلها.

الثقافة والتنشئة الاجتماعية:

لا يمكن للثقافة أن تشكل الشخصية وتصوغها وتتبلور فيها إلا عن طريق عملية الصياغة الاجتماعية أو التنشئة الاجتماعية (Socialization) وهي عملية إدماج الطفل في الاطار الثقافي العام عن طريق إدخال(internalization) التراث الثقافي في تكوينه وتوريثه إياه توريثا متعمدا بتعليمه نماذج السلوك المختلفة في المجتمع الذي ينتسب إليه وتدريبه على طرق التفكير السائدة فيه، وغرس المعتقدات الشائعة في نفسه، فينشأ منذ طفولته في جو مليء بهذه الأفكار والمعتقدات والأساليب فلا يستطيع التخلص منها لأنه لا يعرف غيرها ولأنه يكون قد شب عليها وتكون بدورها قد تغلغلت في نفسه وأصبحت طبيعة ثانية له، أي أصبحت من مكونات شخصيته.

فالتنشئة الاجتماعية إذن عملية تربية وتعليم، ترتكز على ضبط سلوك الفرد، بالثواب والعقاب، وكفه عن الأعمال التي لا يقبلها المجتمع وتشجيعه على ما يرتضاه منه، حتى يكون متوافقا مع الثقافة التي يعيش فيها[1]. وفي هذا يقول «دوركايم» إن جميع أنواع التربية تنحصر في ذلك المجهود المتواصل الذي نرمي به إلى أخذ الطفل بألوان من الفكر والعاطفة والسلوك التي ما كان يستطيع الوصول إليها لو ترك وشأنه وبيان هذا أننا نضطره منذ حداثة سنه إلى الأكل والشرب والنوم في ساعات معينة ونوجب عليه النظافة والهدوء والطاعة ثم نجبره على التعلم وعلى مراعاة حقوق

---

(١) انظر حسن الساعاتي، **علم الاجتماع القانوني**، ص ٩٢، ١٢٢، ١٢٣.

الغير وعلى احترام العادات والتقاليد كذلك نوجب عليه العمل وغير ذلك من الأمور. وإذا لم يشعر الطفل بهذا القهر كلما تقدم به العمر فإن السبب في ذلك يرجع إلى أن القهر يخلق لديه شيئاً فشيئاً بعض العادات والميول الداخلية التي تجعل القهر عديم الفائدة [1].

وعملية التنشئة الاجتماعية هذه تبدأ من المهد ويقوم بها الآباء والمربون كممثلين للثقافة وكوسطاء لها. وهي تهدف دائما لمساعدة الفرد على أن يستدمج الثقافة ويتمثلها في شخصيته. وبذلك نستطيع أن نقول أن التنشئة الاجتماعية هي وسيلة الثقافة في تشكيل الشخصية الانسانية وصياغتها.

وتعرف «مارجريت ميد» (Margaret Mead) التنشئة الاجتماعية بأنها العملية الثقافية، والطريقة التي يتحول بها كل طفل حديث الولادة الى عضوكامل في مجتمع بشري معين[2] ويرى «والاس» (Wallace) أن التنشئة الاجتماعية هي همزة الوصل بين الثقافة والشخصية. فبدون عملية نقل الثقافة الى الأفراد عن طريق هذه العملية لا يمكن أن نتوقع منهم انصياعا لمعايير مجتمعهم، ولا لقيمه ونظمه[3].

وعملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي، هي نقطة التقاء البيولوجيا، وعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي. وهي بؤ رة اهتمام الآباء والمربين والقادة الدينيين. ففي عملية التنشئة الاجتماعية يكتسب الفرد العادات والأفكار والاتجاهات المتفق عليها ثقافياً. وهو ينسج في مجموعته الاجتماعية عندما يتعلم حقوق وواجبات مركزه ودوره. أما دوافعه فتوجه الى منافذ معينة معترف بها. ويستدمج الفرد هذه القواعد والقيود الثقافية، لدرجة انها تصبح جزءا من

---

(١) محمود قاسم، **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، ترجمة عن الفرنسية لكتاب اميل دوركايم، ص ٣٦، ٣٧.

انظر كذلك: كلاكون ومرى وشنيدر، **الشخصية في الطبيعة، والمجتمع والثقافة**، المصدر السابق: عن الضبط الاجتماعي، ص ٤٣، ٤٤ و عن التنشئة الاجتماعية، ص ٤٥، ٤٩.

(2) Margaret Mead, *Our Educational Emphasis in primitive perspective*, A.J.S. Vol 48, (1943) p 633.

(3) Antony F.C. Wallace, *Culture and Personality*, p 3

شخصيته. وربما حاول الكثير من الناس مقاومة عملية التنشئة بعض الشيء، لأنها تتدخل في الاشباع المباشر لدوافعهم، ولكن نود أن نشير هنا الى أنه ليست هناك الا هوة جد ضيقة بين ما يريده معظم الناس، وما يريده المجتمع. أما أولئك الذين لا يستطيعون أن يتمشوا أو يتكيفوا مع المجتمع دون كثير من الاستياء والامتعاض والاحباط فيعدون سيئي التوافق.

ونظرا للأهمية البالغة لعملية التنشئة الاجتماعية، فان كل مجتمع ينظمها Institutionalize it أي يجعلها تنشط ويصير لها فعالية في إطارها المحدد باعتبارها نظاما اجتماعيا. وهناك مجريان رئيسيان نسير فيهما عملية التنشئة الاجتماعية، الأول عن طريق السلطة على الفرد، والثاني عن طريق المساواة مع الفرد.

أما المجرى الأول لعملية التنشئة الاجتماعية، فيتمثل في الأسرة، والمدرسة، والمؤسسة الدينية. وتمارس كل منها سلطة على سلوك الطفل وتعد مسئولة عن تهذيبه وانضباطه.

وأما المجرى الثاني لعملية التنشئة الاجتماعية فيتمثل في ثلة الأقران (Peers) التي تعلم الطفل ثقافة الأطفال (Child Culture) ومن خلال تفاعله مع هؤلاء الأقران يتعلم الطفل كيف يتوافق معهم. وتظل عملية التوافق مع شلة الاقران هذه مستمرة طوال حياته[1].

ويذهب «فردريك الكن» (Fredric Elkin) إلى أن التنشئة الاجتماعية هي تلك العملية التي يتعلم بها الفرد كيف يصبح عضوا وظيفيا (Functioning Member) في المجتمع. ويتعلم الوظائف التي تفرضها عليه ثقافته من التفاعل مع الآخرين. فعن طريق هذا التفاعل يتحدد دور الفرد، ويتبلور مركزه، ويؤدي وظائفه التي تعين له في كل مرحلة من مراحل حياته، وفق كل مجموعة ينتمي اليها ويصبح عضوا فيها.

ويرى «جورج هربرت ميد» G. H. Mead ، أن الكلمة المنطوقة هي وسيلة

---

(1) Beisanz, John & Beisanz Mavis, *Modern Society: An Introduction to Social Sciences*, pp. 333-334.

الاشارة الفعالة. وأنها عندما تثير كلا من المتكلم والسامع موقظة فيهما الاستجابة نفسها، أو الشعور نفسه، تكون عندئذ رمزا ذا دلالة (Significant Symbol) والمجموعة الشائعة من الرموز ذات الدلالة التي يشترك فيها أعضاء مجتمع ما، هي ثقافته. وما المجتمع الا نسق من العلاقات بين الأشخاص وتكون هذه العلاقات مؤسسة على ثقافته. والفرد الذي يستدمج مجموعة من الرموز المنظمة ذات الدلالة يكون قد اكتسب ذاتا.

وتنمو الذات في عملية التنشئة الاجتماعية او التطبيع. فالطفل حديث الولادة، ليس لديه تصور عن نفسه كجهاز فردي بمعزل عن الآخرين لكنه عن طريق تفاعله بوالدته والآخرين، يستطيع ادراك شخصيته المنفصلة وهكذا تنمو ذاته، وتتطور بالتدريج، وهذا ما يعرف بعملية «التشخصن»، ويبدأ الطفل، في سن السنتين تقريبا، في استخدام كلمات مثل أنا، وأنت، وهي تشير إلى أنه اصبح واعياً بذاته وبالآخرين كأفراد مثله.

وقد أوضحت دراسة «مارجريت ميد» عن الشخصية في ثقافات مختلفة[1]، أن الحقائق البيولوجية المتعلقة بالجنسين، ليس لها شأن يذكر في تحديد دوريهما، وأن الأهمية كل الأهمية، كانت لتعريفات الثقافة، وتحديدها لتلك الفروق بين الجنسين اي أن المجتمع هو الذي يخلق أو يغرس السمات الذكرية والانثوية في الأفراد. وبمقارنة ثلاثة قبائل في غينيا الجديدة New Guinea وهي قبائل «الأرابش» «والموندوجومور» «والتشامبولي»لاحظت «مارجريت ميد» أن قبيلتين منهما لا تجعلان أبدا أية فروق شخصية حادة بين الذكور والأناث، فعند الأرابش Arapesh سكان الجبال الذين يعيشون ليحققوا هدفين، هما زراعة اليام[2] وتربية الأطفال، نجد أن كلا من الرجال والنساء يسلكون بطريقة يمكن أن نسميها - في ثقافتنا - انثوية. ذلك لأنهم جميعا رقيقو الطباع هادئون مدللون يتمتعون بصفات الأمومة والحنان والوداعة.

---

(١) انظر Margaret Mead, *Sex and Temperament*

(٢) اليام ضرب من البطاطس بعضه حلو. انظر منير بعلبكي، **المورد**، مادة ص ٢٠٨١.

وتعيش قريبا من هؤلاء قبيلة «المـوندوجومور (Mundugumur) أكلة لحوم البشر. ويسلك كل من الرجل والمرأة في هذه القبيلة بطريقة نعدها نحن في ثقافتنا «ذكرية» (Masculine) إذ يتوقع من كل منهما أن يكـون عنيفاً منافسا، ذا جاذبيـة جنسية عدوانية (aggrssively sexed) ، غيورا ومستعداً لتمييـز الاهانة والرد عليها سعيداً مبتهجا باستعراض اعماله وعضلاته في القتال. فالأشياء التي تجلب أكبر قدر من اللذة والاشباع عندهم هي: القتال والتنافس على كسب النساء. وكل رجل في قبيلة الموندوجومور يعمل ضد الرجال الآخرين وكـذلك ضد أبيـه وأخوته. أما الأطفال فغير مرغوبين يشبون في عالم الكراهية. لذلك فالعالم كله في نظرهم مشبع بالعدوانية والصراع.

وعلى العكس من القبيلتين السالفتي الذكر واللتين لا تقيمان وزنا للفروق بين الجنسين في الشخصيـة فان القبيلة الثالثة وهي «التشامبولي» (Tchambuli) تعرف ادوار الذكـر والأنثى بمفهوم متناقض مع مفهومنا تماما فالنساء في هذه القبيلة هي اللاتي يسيـطرن ويعملن بالصيـد وتبادل التجارة وصنع الحقائب... الخ. اما الرجال فيثرثرون وينهمكـون في القيل والقال، ويـزينون شعورهم ويـذهبون للتسوق. وهم من الناحية العاطفيـة معتمدون كما أنهم اقل تحملا للمسئوليـة من النساء.

ونستطيع ان نستخلص من هذا البحث الرائد ان الخصائص الذكرية والانثوية ليست فطرية ولا هي ذات اساس بنائي، وانما هي من صنع المجتمع فهو الذي يشكل الفرد من حيث تكونه ذكرا او انثى. وهو الذي يصنع اتجاهاته واهتماماته. فإذا ما تساءلنا عن كيفية اكتساب الطفل المفاهيـم الثقافيـة لأدوار الجنسين، في المجموعة والجماعة وعن كيفية تقبله لمركزه كذكر أو كأنثى، لوجدنا الجواب فيما تفصح عن تلك البحوث وأمثالها، التي اثبتت أن التمييز بين الجنسين انما هو عملية تعلم ليس إلا.

ففي البداية يستخدم الأطفال محكات للتفرقة بين الجنسين مثل الملابس وتصفيف الشعر. وعندما يكبرون قليلا. وتزيد حصيلتهم من اللغة يذكرون الأيـدي ولون البشرة والقوة الجسميـة وطريقة المشي. وعندما يشعر الصبي بالفروق الأوليـة

والجوهرية بين الجنسين أكثر من إحساسه بمجرد الفروق الثانوية بينهما، فإنه يبدأ عندئذ في وعي تعريف الثقافة لمعنى كونه صبياً. وهذا الوعي من الأهمية بمكان لفهم تصوره لذاته.

وتدل تلك الحالات التي يحدث فيها خطأ ما في تحديد الصفات الجنسية على مدى حسم التعريفات الثقافية لأدوار الجنسين في تشكيل الشخصية وبنائها ويروي كل من «ليند سميث» و «ستروس» (Lindsmith! Strauss) ما يدل على ذلك. فقد ذكرا في كتابهما: علم النفس الاجتماعي، تاريخ الصبي «فرانكي» الذي نشأ كصبي نظرا لعدم وضوح بنائه التناسلي وفي سن الخامسة اكتشف أن «فرانكي» فتاة. وقد وجدت الممرضات وهيئة المستشفى صعوبة كبيرة في معاملته كفتاة. لأنها كانت تعتبر لعب البنات وأوجه نشاطهن تخنثاً. وكانت ترفض أن ترتدي فستانا، كما كانت تشاكس بشدة كل من يحاول أن يعاملها كفتاة[1]. فعملية التنشئة الاجتماعية هنا، قد نظمت سلوكها من خلال منظور ذكري بغض النظر تماماً عن تكوينها البيولوجي الانثوي كفتاة، فالتنشئة الاجتماعية توضح الانحرافات الجنسية (Sexual deviations) والاتجاهات المختلفة نحو الجنس Sex ، كما أنها تحدد هذا الدافع الأولى وتوجهه ثم تنظمه بشكل حاسم بواسطة الثقافة[2].

ويتضح مما تقدم اثر العوامل الثقافية وما تفرضه من فروق في تمييز ادوار الجنسين وحتى عندما تسهم الفروق الفيزيقية في تحديد الفروق الجنسية في السلوك فان هذا الاسهام يكون غير مباشر، وتابع للعوامل الثقافية، وفي هذه الحالة فان التنشئة الاجتماعية هي التي تؤدي اليه الفروق البيولوجية نفسها. وفي ذلك تقول «مارجريت ميد»: إننا نستطيع القول بأن كثير من سمات الشخصية - إن لم تكن جميعها - التي أطلقنا عليها السمات الذكرية والسمات الأنثوية، لا ترتبط بأي من الجنسين الا بمقدار ارتباط الملابس وآداب السلوك وشكل غطاء الرأس الذي يفرضه مجتمع معين، في فترة معينة على أي من الجنسين[3].

---

(1) Lindsmith & Strauss, *Social Psychology*, p. 559.

(٢) انظر: بيزانس، **المصدر السابق، ص ٢٣٤ - ٢٣٦**.

(3) Margaret Mead, *Sex and Temperament*, p. 190.

ويصف Mead ظهور الأنا باصطلاح إتخاذ دور الآخر: (taking the role of the other) فالانسان فقط هو الذي يستطيع أن يلحظ الأدوار وعلاقاتها. وأثناء ملاحظة الطفل لوالدته والآخرين واستجابته لهم، فإنهم عندئذ يصبحون موضوعات ذات دلالة بالنسبة له. موضوعات تجلب له السعادة والأمان أحياناً، والاحباط والتعاسة أحياناً أخرى. ولكي يغنم الطفل الاستجابات المرغوبة من هؤلاء الأشخاص فإن عليه أن يتعلم إتجاهاتهم، وهو يتخذ تدريجياً إستجاباتهم واتجاهاتهم نحوه، بمعنى أنه يتخذ دور الآخرين. وبفعله هذا، أي بإتخاذه لهذا الدور فإنه يصبح موضوعا لذاته. وأثناء استمرار عملية التنشئة، فإن معرفة الشخص بأدوار الآخرين، وإتجاهاتهم تصبح أكثر عمومية وشمولا. فالطفل لا يدرك فقط أن أمه تقول له، أنه ليس من الصواب فعل كذا، بل أنه يعلم أنه ليس من الصواب فعل ذلك. فهناك إذن آخر. أكثر عمومية وشمولا يوجهه وفي هذه الحالة، فإنه يكون مدركا لصوت الجماعة Community ككل. فهو يستدمج أعرافها وقيمها، كما أنه يكتسب ما تسميه «ميد» Mead «الآخر المعمم» the generalized other وعند وصوله إلى هذه المرحلة فإن الهيكل الأساس للذات عنده، يكون قد تكون، وأرسيت دعائمه. وفي ذلك تقول «ميد»: فعندما يستدمج الفرد في داخله نسق الاتجاهات المتبادلة في الجماعة في صلتها بأوجه نشاط المجموعة ككل، فإنه عندئذ يكون قد أصبح ذاتا كاملة ونتاجا إجتماعيا بمعنى الكلمة.[1]

وقد دلت الابحاث العلمية المتوالية في مجال علم الاجتماع والانثروبولوجيا على أن الاعتقاد بأن هناك طبيعة خاصة للمرأة، وطبيعة أخرى للرجل، من حيث السلوك الاجتماعي لكل منهما، لا يخرج في جوهره عن كونه عملية تنشئة إجتماعية أو تطبيع إجتماعي وقد أدت تلك الدراسات وعلى الأخص تلك التي قامت بها «مارجريت ميد» (Margaret Mead)، و«روث بندكت» (Ruth Bendict)، إلى أن يعيد كثير من الباحثين النظر في الخصائص السلوكية لكل من الذكر والأنثى. تلك الخصائص التي كان ينظر إليها فيما مضى على أنها خصائص فطرية تكوينية، وذلك بالنظر إليها من خلال منظور إجتماعي.

---

(1) George H. *Mead, Mind, Self and Society,* p. 135.

فقد كان نشاط اللعب، مثلا موضوعا لكثير من الدراسات وكـان يفترض أن البنات يلعبن بالعرائس، وذلك لدافع أموي فطري، أو سمة انفعاليـة خاصة بجنسهن، كما اعتبر إختفاء هذا النوع من نشاط اللعب بين البنين، دليـلا على إختلاف بيـولوجي أساسي؛ إلا أن دراسات «مارجريـت ميـد» في جزيـرة مانوس Manus بغينيا الجديدة، غيرت من هذه النظرة. فعندما وضعت بعض العرائس الخشبيـة أمام الأطفال هناك، تقبلها الأطفال من البنين دون البنات بشغف زائد، وحنو بالغ، مترنمين لها بألحان جميلة، ونستطيع أن نفهم هذا السلوك إذا ما وضعناه في إطاره الثقافي. فالنساء هناك نتيجة لانشغالهن طوال النهار بالعمل، لا يستطعن المكوث بجوار اطفالهن، في حين أن الأباء يجدون فترات طويلة من الراحة يستطيعون خلالها مرافقة الاطفال أكثر من الامهات. وقد انعكس هذا التمايز بين دوري الأب والأم، على سلوك الأطفال الذكور، والإناث.

أثر الشخصية في الثقافة:

رأينا في مطلع هذا الفصل جزءا من الحوار المستمر بين الثقافة والشخصية، بينا فيه تأثير الثقافة على الشخصية. وفي هذا الجزء يتم الطرف الثاني من الحوار ألا وهو تأثير الشخصية في الثقافة لنرى في النهاية أن الشخصية تلعب في التفاعل الاجتماعي دور **الذات والموضوع** معاً؛ وأنها لذلك تتأثر بالثقافة وتؤثر فيها.

الإنسان هو صانع الثقافة، ومبتكرها، وناقلها، ومغيرها وفي الوقت الذي يحدد فيـه البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع طابع النشاطات الاجتماعيـة البشريـة وجوهرها، فإنه هو ذاته نتاج لهذه النشاطات.

وفي هذا يقول ماركس «إن القوى الإنتاجية نتاج الطاقة البشرية العملية، إلا أن هذه الطاقة ذاتها تتحكم فيها تلك الظروف التي يجد الناس أنفسهم موجودين فيها، كقوى الإنتاج المكتسبة، والأشكال الاجتماعية القائمة قبلهم، والتي لم يخلقوها هم أنفسهم، وإنما هي نتاج لجيل سابق ذلك أن كل جيل لاحق يجد في حوزته القوى الإنتاجية التي تخدمه بوصفها المادة الخام لإنتاج جديد. إن التاريخ الإنساني يتطور بصورة مترابطة. وهكذا يتضح لنا أن تاريخ الإنسانية هو في جوهره تاريخها منذ أن بدأت القوى الإنتاجية للانسان وبالتالي علاقاته الاجتماعية تصبح أكثر نموا وتطورا.

ويترتب على ذلك بالضرورة أن التاريخ الاجتماعي للافراد ليس إلا تاريخ نموهم الفردي، سواء أكانوا على وعي به أو على غير وعي به. إن علاقاتهم المادية تشكل أساس جميع علاقاتهم وهذه العلاقات المادية هي وحدها الأشكال الضرورية التي يتحقق من خلالها نشاطهم المادي والفردي بما في ذلك النشاط الذي يستهدف إعادة وضع هذه الأشكال ويواصل «ماركس» في هذا الصدد قوله: «إن الناس يخلقون تاريخهم بأنفسهم إلا أنهم يفعلون ذلك في بيئة معينة تكون بمثابة الشرط الذي يحدد كيفية حدوث ذلك، وعلى أساس من العلاقات الفعلية القائمة سلفاً، ومن بينها العلاقات الاقتصادية التي مهما كان مدى تأثرها بعلاقات أخرى، اساسية، وايديولوجية، فإنها تشكل الخيط الأساسي الذي يمتد عبرها جميعاً، والذي يؤدي وحده بنا إلى الفهم.

إن الإنسان عبارة عن مجموع علاقات إجتماعية وهو نتاج أشكال إجتماعية معينة. وهو يتغير بفعل تأثير التغير الذي يطرأ على العلاقات الاجتماعية، إلا أن العلاقات الاجتماعية، والأشكال الاجتماعية للتفاعل الاجتماعي تتغير بدورها، بفعل النشاط البشري[1].

ويؤكد لنا «ماركس وانجلز» أن الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم لكن ذلك لا يحدث بعد بإرادة جماعية، أو وفق خطة جماعية، أو حتى في مجتمع محدد معين. إن رغباتهم تتطاحن ولهذا السبب عينه تحكم مثل هذه الصدفة، إن الضرورة التي تؤكد نفسها هنا تستبعد كل صدفة، وهي في نهاية المطاف الضرورة الاقتصادية[2].

إن الإنسان، خلال نشاطه المادي والمعنوي يخلق ظروف حياته الذاتية والحياة الاجتماعية معا. إن الأفعال الاجتماعية للناس تلتحم بنسيج النظام الاجتماعي، كما أنها - معا - **موضوع لهذا التفاعل ومصدر له في أن واحد** وهذا هو السبب في أن دراسة النظام الاجتماعي - والثقافة - يقتضي بحث العوامل الذاتية والموضوعية، وعلاقات الموقف الاجتماعي المعين، والشخصيات الفعلية، وأفكارهم وتصوراتهم لوضعهم وللوضع الموضوعي في كليته.

---

(١) ج أو سيبوف، **قضايا علم الاجتماع**، ترجمة سمير نعيم احمد وفرج احمد فرج، ص ٢٢، ٢٣.
(٢) **المصدر نفسه**، ص ٤٨.

إن الإنسان ليس عنصراً سلبياً في الثقافة، أو النظام الاجتماعي بل أنه ليسهم مساهمة إيجابية فعالة، ويتخذ قرارات معينة، يمكنها، إعتماداً على دوره في المجتمع، وعلى مبلغ مسئوليته، أن تكون ذات أهمية بالغة بالنسبة للاخرين.

ويؤكد «أريك فروم» (Erich Fromm) أن التاريخ الإنساني يتميز «بالصراع والنزاع» لأن «كل خطوة في إتجاه نمو الفردية تهدد الناس بضروب جديدة من انعدام الأمن. إن الروابط الاولية ما أن تتمزق حتى لا يصبح هناك أمل في إصلاحها. وإذا لم تتح الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، الأساس اللازم لتحقيق هذه الفردية، في الوقت الذي يفقد فيه الناس تلك الروابط التي كانت تمنحهم الأمن، فإن ذلك يجعل الحرية، عبئا يصعب تحمله، وينشأ هناك ميل قوي إلى الهرب من هذا النوع من الحرية، إلى الخضوع، أو إلى نوع ما من العلاقة بالعالم وبالإنسان تتيح التخلص من إنعدام اليقين حتى، ولو أدت إلى تجريد الإنسان من حريته.

إن فروم إذن يعتبر الإنسان عنصرا مستقلا في عملية التغير الاجتماعي. وقد كتب «بليخانوف» (Plekhnov) ذات مرة يقول: «إن العادات الجمعية القديمة، والطقوس القديمة، تخالف حين يدخل الناس في علاقات متبادلة جديدة، ويجد الصراع بين المصالح الاجتماعية تعبيرا في الصراع بين العادات الجمعية، والطقوس الجديدة مع القديمة.

وليست هناك عادة جمعية واحدة أو طقسا رمزيا واحداً يمكن في حد ذاته أن يؤثر على ظهور علاقات جديدة، ونموها سواء بالسلب أو بالإيجاب، وإذا دافع حماة العادات الجمعية عنها بحماس فإن ذلك لأن فكرة الاستخدامات الاجتماعية المعتادة بالنسبة لهم والعزيزة عليهم، والتي في صالحهم ترتبط في أذهانهم إرتباطا وثيقا بفكرة هذه العادات الجمعية. وإذا كان المستحدثون يكرهون ويحتقرون هذه العادات الجمعية، فإن ذلك يرجع إلى أن فكرة هذه العادات الجمعية ترتبط في أذهانهم بفكرة العلاقات الاجتماعية التي ليست في صالحهم ومقيدة لهم وغير سارة. ويتبع ذلك أن

الأمر كله عبارة عن ترابط أفكار، وإن ظهور، وتغير، وانهيار الارتباطات بين الأفكار تحت تأثير ظهور وتغير وانهيار، إرتباطات معينة بين القوى الاجتماعية يفسر إلى حد كبير تاريخ الايديولوجيات.[1]

والخاصية الجوهرية لتكوّن الشخصية ليست ببساطة معرفة حقيقة أن الشخصية نتاج علاقات إجتماعية وتعليم وتربية، ولكن معرفة أن الإنسان ذاته هو القوة التي تقيم هذه العلاقات ومختلف أشكال التعليم. وفي مقالة عن فيورباخ (Thesis on Feurbach) يرى ماركس القصور الرئيسي لكل المادية السابقة في فهمها للموضوع والواقع والحسية على أساس شكل الموضوع، أو شكل التأمل فقطوليس على أساس أنها نشاط حسي إنساني «إن المقولة المادية أن الناس نتاجات للظروف والتربية»، وعلى هذا فإن الناس المتغيرين نتاجات لظروف أخرى وتربية متغيرة تنسى أن الناس هم الذين يغيرون الظروف وإن المعلم نفسه يحتاج تعلماً: وهكذا فإن هذه المقولة تصل بالضرورة إلى شطر المجتمع شطرين، أحدهما يكون متعاليا على المجتمع.

ويرى ماركس أن المشكلة الأساسيـة في علم المجتمع هي تفسير كيف يمكن أن تتغير البيئة بواسطة الناس الذين هم أنفسهم من خلقها. وقد أوضح أن علاقات الإنتاج تتشكل بظروف مستقلة عن الإرادة الإنسانية. ولكن العلاقات قد لا تتغير في الاتجاه المرغوب. ولا تعتمد طبيعة «البناء الاقتصادي» والاتجاه الذي تتغير فيه على الإرادة الإنسانية فحسب بل على حالة قوى الإنتاج، وعلى التغيرات في علاقات الإنتاج نتيجة لازدياد نمو هذه القوى.

وقد كتب «بليخانوف» (Plekhanov) يقول: «إن للعلاقات الاجتماعية منطقها الخاص. فطالما كان الناس في علاقات متبادلة معينة فإن من الضروري أن يشعروا ويفكروا ويتصرفوا تماماً كما يفعلون. ولا يستطيع أي شخص في مركز عام أن يحارب هذا المنطق. فالمسار الطبيعي للأحداث (وهو نفس منطق العلاقات الاجتماعيـة) سوف يجعل كل جهوده عديمة الجدوى ولكن إذا عرفت في أي إتجاه تتغير العلاقات

---

(1) انظر أو سيبوف، المصدر السابق، ص ١٣٧.

الاجتماعية، بسبب تغيرات في العملية الاجتماعية والاقتصادية للانتاج، فأنني أعرف حينئذ أيضا في أي إتجاه سوف تتغير السيكلوجيا الاجتماعية وحينئذ أكون في وضع يمكنني من التأثير فيها. والتحكم في السيكلوجيا الاجتماعية هو التحكم في الأحداث الاجتماعية وهذا يعني بشكل معين **أنني ما زلت أستطيع أن أصنع التاريخ وليس علي أن أنتظر حتى يصنع.**[1]

وجدير بالذكر، أنه يمكن القول بوجه عام، أن العلماء الغربيين، وعلى رأسهم الأمريكيين، يؤكدون دائما تأثير الثقافة على الشخصية؛ بينما نجد أن العلماء الماركسيين، والراديكاليين يبرزون تأثير الشخصية على الثقافة، بل إنهم يحملون على علماء الغرب إتجاههم الثقافي، ويتهمونهم، بأن الهدف من وراء هذا الاتجاه هو إبقاء الحال على ما هو عليه.

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

الفصل التاسع

نظريات الثقافة والشخصية

تمهيد:

في هذا الفصل سنحاول إلقاء الضوء على أهم نظريات الثقافة والشخصية، تلك التي تولد عنها مجموعة من الدراسات والأبحاث في ميدان الثقافة والشخصية. وتركز هذه النظريات على التوزيع الثقافي لخصائص الشخصية أو سماتها.

ويظهر هذا الفصل الخاص بنظريات الثقافة والشخصية، ذلك التعاون الحتمي المتبادل بين علماء الاجتماع، وعلماء النفس، الأنثروبولوجيا، في علم الثقافة والشخصية، كما يؤكد ذلك الحوار المستمر بين الثقافة ومعطياتها، والشخصية، ومعطياتها.

أولا: الاتجاهات الرئيسية لنظريات الثقافة والشخصية:

الاتجاه التكراري والاتجاه التنظيمي.

يميز «أنتوني والاس» بين اتجاهين في دراسة الثقافة والشخصية، الأول تكراري يؤكد تكرار الانتظامات replication of uniformities والثاني تنظيمي يركز على تنظيم الاختلاف organization of diversity ويحاول كلا الاتجاهين شرح أنساق التفاعل بين الأشخاص في ثقافة معينة. ويذهب الاتجاه التكراري الى القول بأن كل عضو من أعضاء اي مجتمع؛ إنما يحمل ثقافة ذلك المجتمع؛ وفي رأسه توجد صورة مكررة ومصغرة لتلك الثقافة، وتندمج تلك الصورة في ذات الشخص من خلال التنشئة الاجتماعية وتركز الدراسات التي اتبعت الاتجاه التكراري، على دراسة

الأساليب التي تتحد عن طريقها ثقافة المجتمع في شخصيات اعضائه، سواء من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، او من خلال عملية تكيف المهاجرين للثقافة الجديدة.

أما هؤلاء الذين لا يتوحدون بثقافة مجتمعهم، وينطبعون بها، فهم في نظر أصحاب هذا الاتجاه، منحرفين، أو شاذين (deviamts) وهم لا يلغون ذلك الفرض القائل بوجود شكل واحد للشخصية عند كل من ينتمون الى ثقافة واحدة بعينها، سواء أكانت ثقافة رئيسية عامة أو ثقافة فرعية (sub – culture) ويتضمن الاتجاه التكراري أيضا وجود علاقة تطابق بين نمط الثقافة، ونمط الشخصية وفي ضوء هذا التصور، فإن العلاقة بين الثقافة والشخصية متكاملة، بحيث يمكن استنتاج الثقافة من الشخصية، واستنتاج الشخصية من الثقافة. أما العملية التي يتم بها إدخال الثقافة في الشخصية internalization فهي عملية التنشئة الاجتماعية التي تتم أثناء نمو الطفل وارتقائه[1].

ومن أهم ممثلي الاتجاه التكراري «مارجريت ميد[2]».

وتتبع النظريات التي تمثل الاتجاه التكراري المنهج الثقافي، والاستدلالي وفيها يبحث المتخصصون امثال التاريخيين، والأنثروبولوجيين، والفلولكلوريين موضوعات معينة كالأساطير، والخرافات، والطقوس الدينية، وغالباً ما تخضع أبحاثهم لمنهج التحليل النفسي.

وقد تعرض الاتجاه التكراري لهجوم من النقد الذي يمكن أن نبلوره في النقاط الآتية: -

١ - أن هذا الاتجاه يعقد مقارنة بين الثقافة والشخصية، وينهيها بأن هناك علاقة تطابق بينهما، بينما هذا تطابق زائف لاختلاف مستويات التجريد (القول بان الشخصية تجسيد للثقافة)، مثل القول بان الطفل هو تجسيد لمعدل المواليد.

---

(1) Wallace, A., *Culture and Personality*, pp. 85, 86.

(2) Mead, M. and Metraux R. (eds), *The Study of Culture at a Distance*, p. 648.

٢ ـ أن هذا الاتجاه، يتجه إلى التبسيط الشديد، فالواقع أن هناك تنوعا شديدا في شخصيات أفراد المجتمع، بدرجة لا نستطيع فيها تطبيق صيغة واحدة عليها.

٣ ـ لا يوجد سبب منطقي لافتراض أن التنظيم الاجتماعي يتطلب درجة عالية من المطابقة الفردية للسلوك، للمعايير العالمية. (أن العلاقة بين الذكور والاناث لا تعتمد على مطابقة سلوك كل منهما لدوره، وإنما على التكامل، والتكميل بين الأدوار المختلفة)[1].

وقد رد أصحاب النظريات التي تنتمي الى الاتجاه التكراري، على الاعتراضات السابقة. بأنهم يسلمون فعلا، بوجود الكثير من أوجه الاختلاف والتنوع في سلوكهم. وتصرفاتهم. وذلك نتيجة التفاعل بين العوامل البيولوجية والبيئة. ولكنهم يعودون إلى القول بأن هذا التنوع والاختلاف لا ينفي وخصائص نفسية مشتركة وعلى ذلك فالبرغم من وجود اختلافات فردية بين أعضاء المجتمع الواحد. فإنه توجد كذلك تصرفات تتسم بالعمومية والشمول. وهي الموضوعات التي يرون أنها جديرة بالبحث والدراسة في أبحاث الثقافة والشخصية[2].

وكرد فعل للاتجاه التكراري ظهر **الاتجاه التنظيمي**، وفيه تتجمع مجموعة من النظريات التي تعارض مبدأ التشابه بين الأفراد في الثقافة الواحدة. وينسحب ذلك على أي متغير او نمط داخل الثقافة. (فلا نستطيع ـ على سبيل المثال ـ أن نفترض أن الذكور والاناث في ثقافة ما يشتركون في قيم واحدة. أو في الأدوار نفسها. أو في البناء الانفعالي نفسه).

ويعارض أصحاب الاتجاه التنظيمي، الرأي القائل بأن الشخصية ما هي الا عملية إدخال أو إدماج للثقافة في الذات بحيث تكون الشخصية في النهاية عبارة عن صورة مصغرة من الثقافة وتكون الثقاف بنية دائمة. أو اسقاط دائم (constant projection) لجميع أفراد المجتمع بل يذهبون إلى أن كلا من خصائص الثقافة. وخصائص الشخصية ما هي إلا ضرب من لتجريدات الشكلية التي يستنتجها

---

(١) انظر والاس، المصدر السابق، ص

(٢) نظر والاس، المصدر السابق، ص

الملاحظ او الباحث من ملاحظات محيرة تماماً. ففي حالة الشخصية الفردية. يدرس الباحث فردا واحدا للوصول إلى تعميمات يستنتجها من ملاحظة سلوك هذا الفرد وتغيراته خلال فترة كافية من الوقت أما فيما يختص بالثقافة فهي تعميمات مستنتجة من ملاحظة وتجميع الملاحظات. الخاصة بالسلوك المشترك بين أكبر عدد ممكن من الأفراد الذين يعيشون في ثقافة معينة.

ومن أهم نظريات هذا الاتجاه التنظيمي تبرز نظرية الموضوعات الثقافية (themes) . ونظرية الشخصية المنوالية وهي تمثل تعميمات مستمدة من حقائق ومعطيات خاصة بالثقافة والشخصية وسنعرض فيما يلي بعض النظريات التي تمثل الاتجاه التكراري، وبعض النظريات التي تمثل الجانب التنظيمي، وذلك لإلقاء ضوء أكثر على العلاقة الدينامية بين الثقافة والشخصية، من خلال نظريات هذا العلم.

أولا: النظريات التي تمثل الاتجاه التكراري:

وقد اخترنا من بين نظريات الثقافة والشخصية التي تمثل هذا الاتجاه اربع نظريات هي نظرية روح الثقافة، ونظرية أسلوب النظر إلى الحياة، ونظرية البناء الأساسي للشخصية، ونظرية الشخصية القومية.

١ - نظرية «روح الثقافة»: 'Genius'

تذهب هذه النظرية إلى أن كل ثقافة تتميز «بروح» معينة Genius وتتمثل في مجموعة من الخصائص النفسية المجردة التي يمكن استخلاصها، من تحليل المعطيات الثقافية. وتهيمن تلك الروح على شخصيات حاملي الثقافة.

وقد استعارت هذه النظرية كلمة «روح» من اصطلاح يعني روح الحضارة اليونانية (The genius of Greek civilization) .

وروح الثقافة، بالنسبة لأي شعب من الشعوب، تتمثل في جانبين هما:

(أ) الجانب الاستمراري: الذي يتمثل في وجود منظور محدد، أو إطار مرجعي دائم من القواعد والمقاييس العامة التي تحكم العمليات العقلية. ويشبه هذا

المنظور أو الاطار، البديهيات الهندسة.

(ب) والجانب التطوري: ويتبلور في خطة الثقافة التي تكشف تدريجيا عبر تاريخ الثقافة، حيث يحدث تراكم المادة أو المعطيات الثقافية خلال القرون ومن خلال النظرة العامة لتاريخ ثقافة من الثقافات يمكن الوصول إلى تحديد روحها، وذلك، بالمثل كما هو الحال بالنسبة لدراسة الهندسة من خلال العملية التاريخية لنمو نظرياتها. ومن أهم فلاسفة التاريخ الذين اهتموا بروح الثقافة، وجوانبها التطورية كل من «فيكو» و «سبنسر» و «شبنجلر»، الذين كانت لهم إسهامات في وضع خطوط عامة لتطور الثقافة عبر القرون، وإن اختلفوا في تحديد مراحل التطور الثقافي.

٢ - نظرية أسلوب النظر إلى الحياة World - View :

رغم أن مفهوم «أسلوب النظرة للحياة» مفهوم معرفي بالدرجة الأولى، الا أنه مفهوم واقعي في علاقته بالأشياء التي نلاحظها. وصاحب هذا المفهوم هو «روبرت ريدفيلد» والمفهوم يشير إلى مضمون معرفي مستخلص من الدراسات الوصفية الاثنوجرافية. ويعرفه «ريدفيلد» بأنه النظرة الخارجية على الوجود وهي نظرة عامة تميز شعبا من الشعوب».

وأسلوب النظر الى الحياة يختلف عن الثقافة، وعن روح الجماعة (ethos) كما يختلف عن أسلوب التفكير (mode of thought) وعن الطابع القومي، إنه الصورة التي تكونها أعضاء مجتمع ما عن الأشياء، والأشخاص الذين يلعبون أدواراً هامة على مسرح حياتهم وهو الطريقة التي يرى بها كل عضو في أي مجتمع نفسه بالنسبة لكل شيء آخر. وبينما يشير الطابع القومي إلى الطريقة التي ينظر بها شعب الى الغرباء عنه فإن أسلوب النظرة للحياة، يرتبط بالطريقة التي ينظر بها العالم إلى شعب معين.

ويهتم أسلوب النظر للحياة بجوانب معينة من الثقافة، وبخاصة بالطريقة التي يرى بها كل عضو فيها نفسه بالنسبة لكل شيء آخر. إنه باختصار فكرة الانسان عن العالم، إنه ذلك التنظيم من الأفكار الذي يتضمن الاجابة عن تساؤلات الانسان

الآتية: أين أنا؟ بين ماذا اتحرك؟ ما هي علاقاتي بهذه الأشياء؟[1].

وقد انصب معظم اهتمام «ردفيلد» على دراسة أسلوب النظر إلى الحياة في المجتمعات البدائية، ولاحظ أنه يتميز بثلاثة صفات أساسية:

١ - عدم وجود حدود فاصلة، أو مميزة واضحة بين النفسي واللانفسي، لذلك يميل الشخص البدائي الى رؤية نفسه متحداً مع الطبيعة وليس خارجا عنها.

٢ - يشارك الانسان في الحفاظ على ذلك النسق الموحد، للانسان في الطبيعة (Man - in - nature) أكثر من كونه يحاول تغييره أو السيطرة عليه.

٣ - للعالم دلالة اخلاقية، لذا يجب أن تكون علاقة الانسان بالطبيعة علاقة اخلاقية، مثال ذلك العلاقات الاجتماعية التي تربط الفرد بأفراد عشيرته او قبيلته.

وقد درس هذا المفهوم كثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا مثال ذلك دراسة «مانهايم» للايديولوجيات واليوتوبيات، ودراسة «فيبر» للأخلاق البروتستانية، ودراسة «هالويل» عن الزمان والمكان في قبيلة «أوجيبوا».

٣ - نظرية البناء الأساسي للشخصية Basic Personality Stucture

يرتبط مفهوم البناء الأساسي للشخصية باسم «كاردنير»[2] الذي يذهب بعض الباحثين الى انه كان أول من استخدمه في كتابه المعروف «الفرد ومجتمعه»[3] الذي صدر في نيويورك عام ١٩٣٩.

ويعد هذا المصطلح أداة تفسيرية بنيت على ضوء الملاحظات التي استخلص منها أن الناس في ثقافة معينة يميلون الى أن يتشابهوا في شخصياتهم. وقد اشترك

---

(1) Redfield, R., "The Primitive World View", *Proceedings of the American Philosophical Society*, 96, p. 30.

(٢) أحد علماء النفس، ومن الفرويديين الجدد، المتأثرين بعلم الأنثروبولوجيا، الاجتماعية.

(3) Kardiner, A., *The Individual and His Society*, N.Y. Columbia Univ. Press, 1939.

Kardiner A., with the collaboration of Ralf Linton, Cora Du Bois, and James West: *The Psychological Frontiers of Society*, Columbia University Press., N. Y. 1945.

«كاردينر» مع الأنثروبولوجي الشهير «لينتون» وآخرين من الأنثروبولوجيين هما الانثروبولوجية ديبوا والانثروبولوجي ويست في تأليف كتاب معروف هو «الحدود النفسية للمجتمع» الذي صدر في نيويورك عام ١٩٤٥[1] وفي هذا الكتاب يورد «كاردينر» تعريفا للبناء الأساسي للشخصية، تبناه كل الكتاب الذين يهتمون بهذا الموضوع ويذهب هذا التعريف إلى أن «البناء الأساسي للشخصية» يشير إلى تشكيل الشخصية الذي يشترك فيه غالبية اعضاءالمجتمع، نتيجة للخبرات التي اكتسبوها معا. وهذا المفهوم لا يتطابق مع الشخصية الكلية للفرد، ولكن مع ما يطلق عليه كاردينر الانساق الاسقاطية في الشخصية، او بعبارة اخرى مع انساق القيم والاتجاهات التي تعد أساسية بالنسبة لتشكيل شخصية الفرد. وعلى ذلك يمكن لأنماط الشخصية الأساسية نفسها أن تنعكس في ضروب مختلفة من السلوك.

ويمكن أن نتبع مع كاردينر كيفية التوصل إلى مفهوم البناء الأساسي للشخصية، من خلال تطور التفكير النظري، وعلى ضوء البحوث الأنثروبولوجية الواقعية على السواء. وبذلك نجلو الغموض الذي قد يكون كامنا في التعريف السابق.

يذهب «كاردينر» إلى أن عملية تكيف الانسان مع البيئة الاجتماعية من الموضوعات البالغة الأهمية التي تدرس في البحوث المتعلقة بالثقافة، وأي ثقافة من الثقافات تتكون من مجموعة من النظم الاجتماعية. وقد ثارت مشكلة تتعلق بتحديد العلاقة بين هذه النظم داخل الثقافة نفسها. وقد اعتمدت المحاولات الأولى التي بذلت لتحديد هذه العلاقة على علم النفس المرضي، وظهر مصطلح النموذج الثقافي النفسي[2] Psychological C. pattern

والميزة التي لا تنكر لمصطلح النموذج الثقافي هي أنه اعترف بالحقيقة التي مؤداها أن ثمة علاقة وثيقة بين الشخصية والنظم الاجتماعية، وأن هذه العلاقة تتسم بالدوام. وأيا ما كان الأمر، فإنه يمكن القول أن كل الكسب الذي نجم من تطبيق

---

(1) Bendict, Ruth, p*Patterns of Culture,* Houghton Mifflin 1934.

(٢) انظر السيد ياسين، **الطابع القومي للشخصية**، مجلة الفكر المعاصر، عدد ٥٠، ١٩٦٩، ص ١٩.

مفهوم «النموذج الثقافي» على المجتمعات البدائية هو الاقتناع بأن النظم داخل مجتمع ما تعد - لدرجة كبيرة - متسقة مع بعضها البعض وأن هذا الاتساق يمكن ان يوصف على ضوء مصطلحات المشابهة الموجودة في علم النفس المرضي.

وقد وضع «كاردينر» كل ما سبق عرضه من عوامل، في الاعتبار حين صاغ مفهوم البناء الأساسي للشخصية ومعنى هذا المفهوم كما سبق أن رأينا، أفراد المجتمع الحاملين لثقافة واحدة يشتركون في سمات معينة، وهي الأدوار الفعالة المتكيفة عند الفرد، وهي عامة عند أعضاء المجتمع الواحد.

ويعطي «كاردينر» أهمية كبرى لمرحلة الطفولة المبكرة، وما يتضمنها من أنماط ثقافية في تشكيل البناء الأساس للشخصية، ففي كل مجتمع توجد مجموعة من النظم التربوية يطبقها الآباء في تربية أطفالهم في مرحلة الطفولة وبرغم وجود اختلافات فردية في تطبيق تلك النظم، إلا أن هناك أنماطا عامة تمثل أكثر حالات السلوك تكرارا، مثل النظام الرضاعة، ومدته، ونظام الثواب والعقاب، ونظام تدليل الطفل، وحمله، وما إلى ذلك من نظم خاصة بمرحلة الطفولة سواء كانت ثقافية أم اجتماعية.

وبهذا التصور ينضم «كاردينر» - مع عدد كبير من علماء النفس، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع - إلى تلك المدرسة الفكرية التي تؤكد فعالية النظم الاجتماعية والثقافية، في مرحلة الطفولة، كعوامل حاسمة في تكوين شخصية الفرد.

ومن أهم الأفكار الحديثة في مفهوم «كاردينر» البناء الأساسي للشخصية تحليله للعلاقة الجدلية المستمرة بين الثقافة والشخصية فهو يرى أن خضوع الأطفال في المجتمع الواحد لخبرات ذات طابع واحد يؤدي إلى طبع شخصياتهم بسمات مشتركة. يتكون من مجموعها وتفاعلها البناء الأساسي للشخصية، أو الصيغة العامة الكلية للشخصية في ثقافة معينة، كما أن هذا البناء الأساسي يقوم بدور فعال في التأثير على الثقافة.

ويستخدم «كاردينر» اصطلاحين آخرين وهما: النظم الأولية، والنظم الثانوية، ولكنه يستخدمها بطريقة خاصة معينة، تختلف عن المعنى الاصطلاحي التقليدي

لهما.

فالنظم الأولية عند «كاردينر» تتمثل في النظم الاجتماعية والثقافية التي تتمتع نسبيا بالقدم، والثبات، والتأثر الضعيف بالتغيرات المناخية والاقتصادية مثل نظام الأسرة، والنظم التربوية في مرحلة الطفولة أما النظم الثانوية فهي الآداب الشعبية، والمعتقدات والطقوس.

وتلعب النظم الأولية دوراً رئيسيا في تشكيل البناء الأساسي للشخصية ويقوم هذا البناء بدور فعال في التأثير على الثقافة عن طريق النظم الثانوية.

وقد اهتم «كاردينر» باخضاع نظريته للفحص والدراسة، عن طريق التطبيق الميداني، الذي يعتمد على المادة الثقافية. وهنا نلمح تعاونا مثمرا بين علم النفس من ناحية، والانثروبولوجيا من ناحية أخرى في ميدان الثقافة والشخصية.

غير أن أهم فكرة قدمها «كاردينر» بعد أن شرح مفهومه في البناء الأساسي للشخصية هي الفكرة القائلة، بأن أثر التنظيم الاقتصادي على تشكيل البناء الأساسي للشخصية ـ من واقع الدراسات الأنثروبولوجية ـ أثر حاسم. وقد عنى بالعرض المفصل لحالة مجتمع بدائي، كان يقوم اقتصاده أساسا على زراعة الأرز بطريقة جافة، وكانت ملكية الأرض جماعية، مما أعطى للبناء الأساسي للشخصية في هذا المجتمع طابعا خاصا. ثم أدخلت طريقة جديدة في زراعة الأرز عن طريق ريه بالمياه، وأثر ذلك في شكل الملكية، فتحولت إلى ملكية فردية، مما أدى إلى نشوء عديد من الاضطرابات النفسية وحدث تغير جوهري في طابع البناء الأساسي للشخصية.[1]

٤ ـ نظرية الشخصية القومية.

وهي آخر النظريات التي نوردها، لتمثيل الاتجاه التكراري من اتجاهات نظريات

---

(1) Benedict, Ruth, *Patterns of Culture*, Boston, Houghthon Miflin, 1934.

الثقافة، وتجمع بين بعض المفاهيم، والنظريات السابقة، وهي روح الثقافة، وأسلوب النظر إلى الحياة، والبناء الأساسي للشخصية. كما تتميز بأنها تتضمن ترابط عدد كبير من العناصر وانتظامها في بناء واحد تجمعها علاقات دينامية متداخلة.

وتعنى دراسة الشخصية القومية، دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعاً في أي مجتمع للوصول إلى تقديم صورة تجمع هذه السمات، وقد يكتفي الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة لتفسير نشور هذه السمات، أو بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية في عدد من المجتمعات. ويقتصر استخدام مفهوم الشخصية القومية على مجتمعات الأمم والدول.

ولما كان لنظرية الشخصية القومية أهمية خاصة في نظرنا، لأنها تهتم بدراسة الدول السياسية، والثقافات المتمدينة. فهي تصب اهتمامها مثلا على تحديد شخصية اليابانيين، أو الأمريكيين، أو الروس.. الخ لذلك فهي تصلح لدراسة مجتمعاتنا المعاصرة.

هذا إلى جانب أن هذه النظرية قد جمعت بين كثير من النظريات (كنظرية روح الثقافة، وأسلوب النظر إلى الحياة) لذلك رأينا أن نفرد لها فصلا خاصا، هو آخر فصول هذا الكتاب.

وجدير بالذكر أن النظريات السابقة تتفق في مضمونها، مع مفهوم الصيغة الكلية (configuration)، الذي ظهر في كتاب «روث بيندكت» (نماذج من الثقافة)، وأوضحت فيه كيف أن كل نموذج ثقافي، من النماذج التي درستها يحتوي على صيغة كلية أو محور يؤثر في سلوك الأفراد وشخصياتهم، وأن كل من يخرج في مسلكه على تلك الصيغة الكلية يعد شخصا منحرفا. وتذهب «بيندكت» إلى أن تلك الصيغة تختلف من ثقافة إلى اخرى؛ لذلك فإن النظرة النسبية هي أساس التحليل المستخدم في مقارنة الصيغ الكلية لمختلف الثقافات[1].

---

(1) Benedict, Ruth, Patterns of Culture, Boston, Haughton Mifflin, 1934

ثانيا: **النظريات التي تمثل الاتجاه التنظيمي:**

اخترنا من بين نظريات الثقافة والشخصية التي تمثل هذا الاتجاه نظريتين أساسيتين هما نظرية الجذور او الثيات، ونظرية الشخصية المنوالية.

١ - نظرية الجذور أو الموضوعات الثقافية: (themes) .

ظهرت هذه النظرية كرد فعل لنظريات الاتجاه التكراري التي تذهب إلى أن هناك صيغة كلية واحدة للثقافة، أي أن الثقافة الواحدة يسودها مبدأ تكاملي واحد. وقد عارض «موريس أويلر» ١٩٤٥، تلك النظريات، لاعتقاده بأنه من النادر وجود مثل تلك الثقافة، إذ أن الدراسات الميدانية قد بينت أن كل ثقافة تحتوي على عدد لا نهائي من الجذور، أو الموضوعات ويقصد بها في نظريته القيم والأفكار والاتجاهات - حول مكونات الحياة السعيدة، والأهداف الحقيقية للوجود الانساني. . . الخ من قيم واتجاهات تتميز بها كل ثقافة. ويرى أنها توكيدات دينامية تشكل طبيعة الواقع عند أعضاء الثقافة موضع الدراسة. فمن كل ثقافة توجد مجموعة من القوى التي يؤكد أفراد الجماعة أهميتها، وتسيطر تلك الموضوعات على تفاعل الأفراد وسلوكهم أي على كثير من الأنماط الثقافية.

ومن دراسته لثقافة إحدى قبائل الهنود الحمر الذين يطلق عليهم Chiricahua) Apache)، لاحظ «أوپلر» وجود مجموعة من الجذور الثقافية أو الموضوعات التي تعمل جنبا إلى جنب كقوى فعالة في ثقافتهم فاستنتج من ذلك أن الثقافة الواحدة تسيطر عليها أكثر من ثيمة واحدة أو قيمة أساسية وتتفاعل الموضوعات الثقافية كقوى ديناميكية نشطة وتتوازن مع بعضها البعض[1].

ويستخدم اصطلاح الموضوعات الثقافية «لأوپلر»، في ثقافتنا المعاصرة في دراسة الانتاج الأدبي، المتمثل في المسرحيات، والأفلام السينمائية والقصص والأساطير. كما شاع استخدامه في دراسات الثقافة عن بعد in absentia .

٢ - نظرية الشخصية المنوالية: Modal peronality .

استخدم هذا المصطلح «رالف لينتون» واعتمد فيه على المصطلح الإحصائي

(1) Opler, M., *Themes as Dynamic Forces in Culture*, American Journal of Sociology, Vol. 51, 1945, pp. 198-206.

المعروف بالمنوال أو الشائع، لكي يشير إلى نمط الشخصية الذي يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد.

ويرى «لينتون» أن مصطلح الشخصية المنوالية يختلف عن مصطلح البناء الأساسي للشخصية في كون كل منهما يركز على جوانب معينة من الظاهرة نفسها، فالشخصية المنوالية يمكن أن تصاغ مباشرة وبطريقة موضوعية، عن طريق دراسة تكرارات مختلف تشكيلات الشخصية بين أعضاء مجتمع ما بعبارة أخرى يمكن القول بأن الشخصية المنوالية مصطلح يركز على الجوانب الكمية، في حين أن البناء الأساسي للشخصية يركز على الجوانب الكيفية في الظاهرة نفسها.

ويطبق مفهوم الشخصية المنوالية على أي منهج يحدد الشخصية المميزة لأي جماعة ثقافية عن طريق الميل المركزي لأي توزيع تكراري معين.

ولما كان من غير الممكن استنتاج التوزيعات الاحصائية لسمات الشخصية من المادة الثقافية في التقارير الاثنوجرافية، اتجه البحث عن مادة أخرى لاستنتاج الشخصية المنوالية، وتتمثل تلك المادة في نتائج الاختبارات النفسية لعينة من الجماعة الثقافية قيدالدراسة ويضاف إلى نتائج الاختبارات النفسية ما يجمعه الباحث من مادة عن الأحلام وسير الحياة، ولقد ارتبط مفهوم الشخصية المنوالية بالاختبارات الاسقاطية مثل اختبار «رورشاخ»، واختبار تفهم الموضوع. ويستخدم الباحث نتائج تلك الاختبارات الاسقاطية في استنتاج السمات النفسية الأكثر تكرارا، والتي تكون في مجموعها الشخصية المنوالية.

وثمة اختلاف آخر، بين مفهومي البناء الأساسي للشخصية، والشخصية المنوالية. فبينما يعتمد الأول على المادة الثقافية، يعتمد الثاني على مادة الاختبارات النفسية.

وتبدو أهمية هذه النظرية في اتجاهها الاحصائي الذي أبرز وجود الاختلافات والتنوع في شخصيات أفراد الجماعة الثقافية الواحدة. كما أنه مهد لقيام النظريات التي تشرح كيفية انتظام الشخصيات المختلفة في بناء واحد[1].

---

(١) انظر والاس، **المصدر السابق**، ص ١١٠، ١١١

الفصل العاشر

الشخصية القومية

تمهيد :

موضوع الشخصية القومية هو أحد الموضوعات الأساسية التي تمثل تخصيبا مثمرا بين الثقافة من جهة والشخصية من جهة أخرى، ويمكن تعريفها بوجه عام بأنها ذلك الجانب من الشخصية الذي يرجع إلى عضوية الفرد في قومية معينة، أو هي ذلك النمط من الخصائص السلوكية الذي يميز أبناء قومية من أبناء القوميات الأخرى ويكون هذا النمط على درجة واضحة من الاستقرار. لكنه في الوقت نفسه يرتبط بالخصائص الكبرى للمرحلة التاريخية التي تمر بها الجماعة القومية. ومن ثم فليس له ذلك الثبات الميتافيزيقي الذي يخلعه عليه بعض الباحثين.

وهو يستند في قيامه إلى وجود حد أدنى من التشابه في عمليات التكيف الأساسية التي تتم لدى أبناء القومية الواحدة نتيجة لتوفر درجة من التشابه بين الشروط البيئية التي تواجه الجميع. على أن هذه الدرجة من التشابه في شروط البيئة تتضاءل أحيانا وتتضخم أحيانا أخرى، تبعاً لعدة عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية، وجغرافية وسيكلوجية. وبالتالي يتضاءل أو يتضخم ذلك القدر من التشابه، في عمليات التكيف المترتب عليها. وهكذا يصعب أحيانا تحديد معالم الطابع القومي للشخصية، وأحيانا أخرى يكون ذلك ميسوراً نسبياً [1] .

---

(١) انظر مصطفى سويف، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي، ص ٤٠٦ .

الشخصية القومية ـ أهم التعريفات:

ليس التعريف في النهاية سوى موافقة واتفاق. موافقة لنظر معين لمعنى معين تندرج تحته مجموعة محددة متمايزة من الوقائع. واتفاق المعنيين بالأمر على أن هذا اللفظ يحمل ذلك المعنى الذي تندرج تحته تلك المجموعة المحددة من الوقائع.

ويسهم التعريف في تحديد طبيعة الوقائع التي يمكن دراستها في سياق معين، ويسهم بالتالي في تحديد طبيعة مناهج الدراسة وأدواتها.

ويشير «دويجكر وفريجدا» إلى أن التعريفات في مجال دراسات الشخصية القومية، تكاد أن تتعدد بتعدد الكتابات في الموضوع أي أنها تعد بالمئات. وعدد التعريفات يفوق عدد الذين كتبوا في الموضوع نظراً لما اعتاده غالبية المؤلفين من إدخال تعديلات وتطويرات مستمرة على تعريفاتهم[1] .

وقد تعرض استخدام مفهوم الشخصية القومية لكثير من الميوعة، بل وإلى إساءة الاستعمال أحيانا. وقد كتب أيزنك (H.J.Eysenck) فصلا في هذا الموضوع في كتابه Uses and Abuses of Psychology سنة ١٩٥٣ ويقرر فيه أن البحوث في هذا الموضوع لم تقم بعد على أسس علمية متينة، وخاصة فيما يتعلق بالطابع القومي للشخصية، في المجتمعات المتمدينة الحديثة لتعقدها الشديد. ثم يشير إلى الطرق الاحصائية الدقيقة التي يمكن انتهاجها نحو بحث الموضوع[2].

ونستطيع أن نقول بالاضافة إلى ذلك بأن الآداب الشعبية تعد مصدرا جوهريا ينبغي الرجوع إليه في مثل هذه الدراسة، في بعض مراحل البحث على الأقل، لأنها كفيلة بإمدادنا بالمادة اللازمة لاقامة بعض الفروض.

ويرى «كريتش وكرتشفيلد» أن هذا المفهوم إحصائي، بمعنى أنه يشير إلى توزيع بضع سمات بين أفراد قومية ما. وقد يكون له دلالة أخرى إذ يشير إلى الأنماط الممثلة فعلا للسلوك الاجتماعي الشائع داخل قومية معينة.

---

(١) انظر Duijker, H.C.J & N.H. Frijda, *National Character and national stereotypes*, p. 12

(٢) انظر مصطفى سويف، المصدر السابق، ص ٤٠٧.

ويثير كريتش، وكروتشفيلد بعض الشكوك حول مدى صحة القول بوجود «الشخصية القومية» في المجتمعات المتمدينة الحديثة، لاتساعها وتعقدها الشديد. لكنهما يقرران أنه إذا ثبت بالبحث العلمي القيق مشروعية وجوده، فلن يستمد هذا الوجود من فوارق فطرية بين الشعوب المختلفة بل سيعتمد على مصادر ثلاث:

(ا) مستوى الاحباط لدى شعب ما، وهو يرتبط بنمط السلوك الذي يتبعه أفراد هذا الشعب لخفض التوتر الناتج عن هذا الاحباط.

(ب) نمط الثقافة السائد وهو يرتبط بنمط الشخصية الذي يسمح له بالظهور لدى معظم أفراد الشعب.

(ج) أنماط الاعتقادات والاتجاهات السائدة لدى معظم أفراد الشعب، والقائمة على دعائم من العرف الثقافي، والتنشئة، والخبرات القومية السابقة ... الخ [١] .

ويذهب «براون» (J.F. Brown) إلى أن هذا المفهوم يشير إلى درجة من التشابه بين الأنماط السلوكية الصادرة عن جميع أبناء القومية ما دام البناء الاجتماعي الدينامي مستقرا. فإذا تغير هذا البناء تغيرت أنماط السلوك الصادرة عن الأفراد وبالتالي لزمت إعادة النظر في مضمون المفهوم كما سبق تحديده. والمفهوم بهذا المعنى نوع من التصنيف، لكنه لا يقوم بمهمة التفسير[٢] .

ويرى سوروكين (Sorokin) كذلك أن من أبرز العيوب التي تعاني منها غالبية دراسات الشخصية القومية أنها لا تتضمن تعريفا لما تعنيه بالقومية[٣] وأنها إذا ما تضمنت مثل ذلك التعريف فانه غالباً ما يكون تعريفاً غامضاً.

ويرى «مصطفى سويف» أن دراسة الشخصية القومية تعني «دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعا في أي مجتمع للوصول الى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفي الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة تفسير نشوء هذه السمات، أو

---

(1) d. Krech & R.S. Crutchfield, *Theory and Problems of Social Psychology*, p. 591 – 593.

(2) Brown, J.F. *Psychology and the Social Order*. p. 124,

(3) P.A. Sorokin. "The essential characteristics of the Russian nation in the twentieth century", *The Annals of the American academy of political and social science*, 370, 1967, 99

بدراسة مقارنة بين الشخصية القومية في عدد من المجتمعات[1].

ويضع قدرى حفنى تعريفاً للشخصية القومية يذهب فيها إلى أنها مجمل تلك الخصائص المستمرة نسبياً الذي يكفل فهما تفسيريا، وتنبؤيا للنشاطات الظاهرة لأعضاء جماعة معينة، في فترة تاريخية محددة، يتسم بالاتساق داخلياً وخارجياً[2].

وهناك تعريفات للشخصية القومية تستند إلى بعض نظريات الثقافة والشخصية التي أسلفنا الحديث عنها، فنجد أن تعريف «كاردنر» و«لينتون» مستمد من نظريتهما في البناء الأساسي للشخصية، وهما يذهبان إلى أن «البناء الأساسي للشخصية يشير إلى تشكيل الشخصية الذي يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع نتيجة للخبرات التي اكتسبوها معاً[3].

أما نظرية الطابع الاجتماعي لصاحبها عالم النفس والفيلسوف الأمريكي «إريك فروم» (Erich Fromm)، والتي تتلخص في أن الطابع الاجتماعي هو النواة التي ينهض على أساسها بناء الطابع الذي يشترك فيه غالبية الأفراد الذين ينتمون الى ثقافة ما، وذلك بالمقابلة مع الطابع الفردي الذي يختلف بصدده الأفراد - الذين ينتمون الى الثقافة نفسها - عن بعضهم البعض. وأهم ما يميز تعريف فروم للشخصية القومية هو تركيزه عن فهم الظروف الاجتماعية للشخصية وكيفية تشكلها من خلال التاريخ كما أن فروم يلتقي مع «ماركس» في أن طابع الانسان يتوقف على وضعه في نظام الانتاج والتوزيع[4].

فيقول «فروم» في تعريفه للطابع القومى للشخصية أنها «الصورة النوعية التي تشكل فيها الطاقة الانسانية بواسطة التكيف الدينامیكی للحاجات الانسانية بالطريقة الخاصة للوجود في مجتمع معين «ويرى في موضع آخر» أن طريقة الحياة كما

---

(1) مصطفى سويف، **مقدمة لعلم النفس الاجتماعي**، ص ٧٨

(2) قدرى حفنى، **دراسة في الشخصية الاسرائيلية، الاشكينازيم**، ص ٤٦

(3) A. Kardiner, With the collaboration of Ralph Linton, Cora Du Bois and James West: *The Psychological Frontiers of Society*.

(4) J.H. Shaar, *Escape From Authority The Perepective of Erich Fromm*, p. 85 – 98.

هى محددة للفرد بواسطة نوعية النظام الاقتصادى، تصبح هى العامل الأساسى في تشكيل جماع بناء طبعه، لأن الحاجة الغلابة لحفظ التراث تجبر على قبول الشروط التي ينبغى أن يعيش وفقا لها.

أما ثالث التعريفات المستمدة من نظريات الثقافة والشخصية، فهو ذلك التعريف المستمد من نظرية «الشخصية المنوالية» Modal Personality والذي يذهب فيه «لنتون» الى أن الشخصية القومية تشير الى «نمط الشخصية الذي يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد»(١)

وهناك نقاط عديدة وطريفة بالنسبة لتعريفات ومفاهيم الشخصية القومية تستحق أن نتوقف عندها ونعرضها لكنا نكتفي بهذا القدر حتى يتاح لنا أن نوفي باقي الموضوعات الهامة التي تثيرها فكرة الشخصية القومية حقها.

ونستطيع القول في نهاية حديثنا عن تعريفات الشخصية القومية، أن ذلك التعدد والتضارب والغموض الذي واكب هذه التعريفات إنما يمكن أن نعزوه إلى عوامل كثيرة منها اعتياد المؤلفين إدخال تطويرات على تعريفاتهم، ومنها كذلك طبيعة الموضوع ذاته الذي يفرض تضافر علوم إنسانية كثيرة للبحث فيه، ونظراً لتباين المناهج المستخدمة والمدارس الفكرية التي تنتمي إليها تلك العلوم، ووجهات النظر بين كل من هذه العلوم وبعضها البعض، فقد كان أمراً حتمياً أن تتباين التعريفات، وتتنوع المصطلحات، وتتعدد التفسيرات التي يقدمها المتخصصون كل في مجاله.

والخلاصة إن علم الثقافة والشخصية هو أصلح تربة لنماء الأفكار الحديثة المعبرة عن الشخصية القومية لان طبيعة موضوعاته تسمح بتضافر جهود المتخصصين وتفاعل أفكارهم، اللازمة لنمو هذا المجال الجديد من المعرفة الإنسانية.

---

(١) انظر ما بعد، ص ٣٠٧.

الشخصية القومية ـ تاريخ البحث:

أولا ـ التاريخ القديم والصورة العامة:

يذهب بعض الباحثين إلى أن البحث في الشخصية القومية جد حديث، وأنه ارتبط فقط بالحرب العالمية الثانية، وهناك من هو أكثر إنصافا، فيذهب إلى القول بأن ذلك يرجع إلى «مونتسكيو»، في كتابه «روح الشرائع» و «دي توكفيل» صاحب المؤلفات المعروفة عن النظام القديم والثورة[1].

والحقيقة أن الناس منذ القدم مولعون بتصنيف سلوك إخوانهم وأصدقائهم وأعدائهم على السواء. فمنذ كان للانسان تاريخ، ومشكلة شخصية الجماعة، التي تطورت إلى الشخصية القومية موضوع يلح على عقله. ويفيد تصنيف الناس للتعامل معهم كتجمعات بشرية كبيرة لها خصائصها السلوكية المميزة في اختصار الوقت والجهد لفهم الأفراد والتعامل معهم، والتنبؤ بسلوكهم.

ويزخر سلوك البشر في حياتهم اليومية بعديد من هذه الأحكام، والتصنيفات، وضروب الاختزال. وأننا لا نستطيع أن نتصور إنسانا لا يمارس هذا النشاط التصنيفي بدرجة أو بأخرى في حياته اليومية أيا كانت صفاته العقلية أو العلمية، أو الأخلاقية أو حظه من التعليم والاطلاع.. الخ. وإذا كان البشر يشتركون جميعا وبدرجات متفاوتة ـ في إصدار مثل هذه الأحكام، فانهم من ناحية أخرى لا يختصون بها جماعة دون غيرها، بل انهم يعممونها بالنسبة لكل الجماعات على السواء. فلكل منها صفاته السلوكية المميز لدى أفراد غيرها من الجماعات، بل وصفاتها التي تميزها في نظر أعضائها أنفسهم أيضا.

وتفيض الكتب والأدبيات القديمة بما لا حصر له من الصفات والنعوت السلوكية المنسوبة إلى الجماعات البشرية بمختلف تصنيفاتها، فقديما قيل في الأمثال العربية: «الناس إخوان وشتى في الشيم»[2] كما عبر عن الفكرة نفسها بشكل آخر الشاعر

---

(١) انظر ما بعد، ص ٢٥٩.

(٢) الميداني، **مجمع الأمثال**، ص ٢٦١.

الإنجليزية المعـروف «كبلنج» Kipling حـين قال في أوج الإمبراطورية الإنجليزية: الشرق شرق والغرب غرب وهما لا يلتقيان، أي أن هناك اختلافا بينهما في الشيم والمعتقدات وأسلوب الحياة... الخ.

West is West and East is East
And never the twain will meat

وتراثنا المصري مليء بما لا عد له من هذه التصنيفات، فأبناء كل منطقة جغرافية لهم خصائصهم السلوكية المميزة لدى غيرهم: أبناء دمياط ليسـوا كأبنـاء المنـوفية، وليس هؤلاء كأبناء الشرقية. وليس الحلاقون كالجزارين، ولا الصغار كالكبار، ولا النساء كالرجال، ولا الفلاحون كالمثقفين، بل ولا حتى القصـار كالطـوال، فكل جماعة عمرية كانت أو طبقية أو دينية أو ثقـافية، لهـا خصـائصهـا السلـوكية المميزة لافرادها في عيون غيرهم، وتلك الميزة لافرادها من وجهة نظرهم أنفسهم.

ولا يعنينا أن نتصدى لبيان مدى صدق أو زيف هذه الأوصاف والتصورات أو مدى مطابقتها لما هو قائم بالفعل، أو مدى تأثيرها فيه، وتأثرها به بل يكفي أن نؤ كد أن لتلك التصنيفات صفتين: القدم والشمول فهي قديمة قدم الإنسانية نفسها، وهي شاملة للبشر أجمعين، يمارسونها وتمارس حيالهم بلا استثناء. (١)

وقد سبق أن ذكرنا أن لعملية التصنيف القـديم قدم البشرية، والشمـولية أي المنطبقة على البشر في كل زمان ومكان، وظيفة توافقية وتكيفية معينة لأنهـا تسعـى لتحقيق أهداف هامة هي:

١ - احتزال الوقت والجهد، لأنها تقدم للفرد أطرا عامة جاهزة للتعامل مع الآخرين والتنبؤ بسلوكهم.

٢ - الاستفادة من تلك التعميمات في علم جديد هو السيبرنطيقا القائم على إحداث أفعال تعرف ردودها مسبقا من الدراسات السابقة في مجال الشخصية القـومية والفردية.

---

(١) انظر قدرى حفنى، المصدر السابق، ص ١٦.

٣ - إمكان التغيير التدريجي للشخصية في ضوء تغيير تدريجي في المكونات الثقافية المؤثرة فيها.

٤ - تفيد تلك التصنيفات - بصرف النظر عن مدى صحتها - في العلاقات الدولية والدبلوماسية.

٥ - إن عملية التصنيف بعامة، بما تتضمنه من تعميم واختزال، وتجريد وتنبؤ وتغيير، إنما تحقق هدفا أساسيا من الأهداف التوافقية للعلم. وموضوع الشخصية القومية كأحد موضوعات علم الثقافة والشخصية، إنما يجعل لدراسة الثقافة والشخصية قيمة وذلك لإمكانية التطبيق الكبيرة المتاحة فيه وإلا كانت من قبيل الترف العلمي.

ورغم ذلك الولع القديم بتصنيف البشر، فإن تسلل موضوع الشخصية القومية إلى طائفة الموضوعات التي يمكن إخضاعها للدراسة العلمية لم يتم إلا مؤخرا. ولقد مارس البشر عملية التصنيف هذه وأصدار الأحكام، قبل أن يخضعها العلماء منهم لبحوثهم ودراساتهم بزمن طويل. وليس ذلك بمدعاة للتعجب، فالأمر يكاد يكون كذلك بالنسبة لفروع المعرفة العلمية جميعا: أن تكون الممارسة العلمية سابقة على الصياغة النظرية.

ثانيا: **الإرهاصات الأولى**:

غالبا ما يحاول الباحث وهو بصدد التأريخ لنشأة مبحث علمي معين وتطوره، أن يختار تاريخا زمنيا يعتبره بمثابة البداية للبحث العلمي في هذا الموضوع. وبقدر صرامة ودقة مثل ذلك التحدد يكون مقدار تعسف الباحث لأن الحدود بين البداية العلمية والتاريخ قبل العلمي لمجال معين من مجالات المعرفة غالبا ما تكون متداخلة بحيث يصعب تبين الخطوط الفاصلة بينها، وهنا يكون في تحديد مثل هذا الخط الكثير من ذاتية الباحث.

١ - عبد الرحمن بن خلدون:

الواقع أننا نميل إلى القول بأنه من الصعب قبول ذلك الزعم الذي يذهب إليه

عدد من الباحثين الاجانب والذي مؤداه أن المرحلة العلمية في تاريخ البحث في الشخصية القومية قد بدأت فقط منذ الثلاثينيات من هذا القرن - فإذا كان هؤلاء يقصدون «بالعلمية» مجرد الاستعانة بأدوات البحث الاجتماعي الحديثة من استخبارات واختبارات، وغيرها، والتي لم تكن بطبيعة الحال - مستخدمة بواسطة باحثين قد سبقوا هذه الفترة - فليس معنى ذلك أن نقبل هذا الحكم ونرفض تحليلات عميقة، وزاخرة بالاستبصارات ذات الدلالة التي تجدها في كتابات (ابن خلدون) المؤرخ والفيلسوف، وعالم الاجتماع الشهير، فهذا العالم الاجتماعي، قد استعان بالملاحظة المباشرة التي زودته ببيانات غاية في الدقة والتعمق عن عديد من المجتمعات الإنسانية في زمانه. والملاحظة المباشرة منهج معتمد من بين مناهج البحث الاجتماعي. كما أنه كثيرا ما كان يحدد السمات البنائية المحددة لمجتمعات معينة، ثم ينتقل بعد ذلك للمقارنة بين نماذج من هذه المجتمعات وهذا المنهج الذي اصطنعه، يجعله من رواد علم الاجتماع المقارن البارزين بل وأيضا من أوائل الباحثين في علم الثقافة والشخصية. وهو يذكر في المقدمة، أن المفكرين قد رأوا أن أول اختلاف بين البشر سببه النسب أى **الوراثة**، ثم بعد ذلك صنفوا البشر من حيث **الوانهم**، وتأثير ذلك في خلقهم، وخلقهم وسيرهم، وقد رأى «ابن خلدون» أن البشر يختلفون ايضا نشأة تبعا للبيئة الجغرافية التي يولدون ويتربون فيها، وتبعا للعادات والتقاليد، والمذاهب الدينية . . . الخ، وهو بذلك يكون قد تناول موضوع الشخصية القومية من منظور تكاملي شمولي، فلم يعز الاختلافات بين الشعوب إلى عامل واحد فقط كما أنه لم يفسر ملامح الشخصية القومية مستنداً إلى مدرسة واحدة فقط، فهو يجمع في تفسيراته بين المدرسة **الفيزيقية** والمدرسة الجغرافية، **والمدرسة النفسية والمدرسة التاريخية والمدرسة الثقافية** ويتضح اتجاهه الثقافي من قوله: **الإنسان ابن عوائده لا ابن نسبه**، وهنا يتضح أثر الثقافة على الثقافة على الشخصية. ولعل اتجاه ابن خلدون الشمولي هذا هو أحدث اتجاه معاصر في دراسة الشخصية القومية، وهو دراستها من منظور تكاملي تتضافر فيه جهود العلماء الاجتماعيين من شتى التخصصات. وذلك حتى تتحقق الفوائد المرجوة من دراستها والانتفاع بذلك في فهم الشعوب والتنبؤ بضروب السلوك المختلفة التي يمكن أن يسلكوها ازاء مثيرات معينة.

«يقول ابن خلدون مصداقا لذلك في مقدمته:

ولما رأى النسابون اختلاف هذه الأمم بسماتها وشعارها حسبوا ذلك لأجل الأنساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام... وجعلوا اهل الجنوب كلهم أو اكثرهم من ولد يافث. وأكثر الأمم المعتدلة وأهل الوسط المنتحلين للعلوم والصنائع، والملل والشرائع، والسياسة والملك من ولد سام.... وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتيادهم أن التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبنى اسرائيل، والفرس، ويكون بالجهة والسمة، كما للزنج، والحبشة، والصقالبة، والسودان، ويكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب. ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم ومميزاتهم. فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان والجهات، وأن هذه كلها تتبدل في الأعقاب، ولا يجب استمرارها سنة الله في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلا». [1]

ويقول في موضع آخر، يصف الشخصية القومية المصرية في بعض سماتها مفسرا لما يقول، مقارنا بينها وبين الشخصية القومية المغربية «واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر، فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها، كيف غلب الفرح عليهم، والخفة، والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم، ولا شهرهم، وعامة مأكلهم من أسواقهم. ولما كانت نحاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره. [2]

٢ - «مونتسكيو» «ودي توكفيل» «ودي جوبينو»:

يمكن التأريخ لبداية تاريخ البحث في الشخصية القومية بطريقة علمية في الغرب

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ٨٥.
(٢) ابن خلدون، **المصدر نفسه**، ص ٨٦.

بكتابات مونتسكيو، التي اهتمت بالفروق بين القوميات، وقد ظهر ذلك بوجه خاص في كتابه المعروف «روح الشرائع». ويواكب ذلك صحوة الروح القومية في أوروبا. وقد استطاع مونتسكيو عن طريق البيانات المتعددة التي جمعها من القوميات والشعوب المختلفة أن يدحض الزعم الذي كان يروجه العقليون، والذي مؤداه أن الطبيعة الإنسانية واحدة في كل مكان. فقد أثبت أن تغاير الظروف المحلية من مكان إلى مكان من شأنه أن يحدث اختلافات قليلة او كبيرة تؤثر على ما كان يسمى بالطبيعة الانسانية العامة. وكان مونتسكيو من ابرز المهتمين بالمدرسة الجغرافية في تفسيره للاختلافات بين القوميات[1].

أما «فيرتانيه» (Virtaner) فيذهب الى ان بعض المؤرخين مثل المؤرخ الفرنسي الشهير «الكسيس دي توكفيل» صاحب المؤلفات المعروفة عن «النظام القديم والثورة» و«الديمقراطية في امريكا» يعد رائدا في تحليل الشخصية القومية[2].

وقد كرس «دي جوبينو» (١٨١٦ - ١٨٨٢) الكاتب والسياسي الفرنسي، وأول شارح فرنسي لنظرية سيادة النوردية اهم مؤلفاته للكلام عن التفاوت بين الاجناس البشرية (١٨٠٣ - ١٨٥٥)

والواقع أننا نميل إلى القول بأن البدايات الأولى للمرحلة العلمية في تاريخ البحث في الطابع القومي للشخصية قد بدأت من ابن خلدون، ثم مونتسكيو ودى توكفيل ودى جوبينو، لان تحليلاتهم الدقيقة كانت مليئة بالاستبصارات ذات الدلالة، كما أنها كانت تقوم على أساس من الملاحظة المباشرة، وهي منهج معتمد من بين مناهج البحث الاجتماعي، كما أن ابن خلدون ومونتسكيو قد استخدما **المنهج المقارن**، حين قارنوا بين عديد من الاقاليم والبلاد، والسمات القومية لاهلها.

---

(1) D. Martindale, *The Sociology of National Character, in:* Ann. Amer, Acad, Pol & Soc Sc., March, 1967, 30 – 35.

(2) R. Virtaner, *French National Character in the Twentieth Century* in the Annals, Ibid 82 – 92

ثالثا: **بدايات الاهتمام**:

(من منتصف القرن التاسع عشر إلى عشرينات القرن العشرين)

يمكن القول بأن بداية الاهتمام المتخصص بموضوع الشخصية القومية، يرجع إلى عام ألف وثمانمائة وستين حين أصدر لازاروس وستاينتال مجلة دورية بعنوان سيكلوجية وفلسفة الشعوب، باعتبار أن دراسة سيكلوجية الشعوب إنما تستهدف «اكتشاف القوانين التي تمارس فعاليتها حيثما تعيش الكثرة، وتتصرف كفرد».

ويشير «جينزبرج» إلى أن هدف دراسة سيكلوجية الشعوب وفقا لتصور لازاروس وستاينتال هو «الاهتمام بتقديم تفسير علمي شامل لحياة الشعوب كما تتضح في لغاتهم، وفنونهم، ودياناتهم، وتصرفاتهم مع ضرورة توجيه الانتباه في المقام الأول إلى تناول التغيرات التي تطرأ على عقول البشر في تطورها وذبولها. ولقد كان أسلوبهما في البحث إمبريقيا تماما، أي أنه كان يعتمد على فحص وقائع الملاحظة المباشرة إلى جانب تلك الوقائع التي تقدمها الأنثروبولوجيا وغيرها من علوم الحياة الإنسانية» [١].

وفي عام ١٩٠٠ أصدر «فونت» أول مجلد من كتابه المعنون: سيكلوجية الشعوب وتوالت المجلدات حتى صدور المجلد العاشر والأخير ١٩٢٠. وقد اهتم فونت بدراسة اللغة والأساطير والعادات والقوانين، والتنظيمات الاجتماعية التي كان يعتبرها نتاجا للمجتمع. ويطرح «فونت» تصوره للشخصية القومية تحت مصطلح «الإرادة العامة» معرفا أياها بأنها ذلك «التركيب الخلاق الذي يؤدي إلى تطوير العقل الاجتماعي والإرادة الاجتماعية بما يتجاوز عقل الأفراد وإرادتهم»[٢].

ومع صدور المجلد الأخير من مؤلف فونت سيكلوجية الشعوب، أصدر «ماكدوجل» عام ١٩٢٠ كتابه عقل الجماعة الذي يقول فيه «إن تفكير كل إنسان وسلوكه كعضو في مجتمع اختلف تماما عن تفكيره وسلوكه كفرد منعزل» [٣].

---

(1) M. Ginsberg, *The Psychology of Society*, p. 27.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤

(3) W. Mc Dougall, *The Group Mind*, p. 9 – 10.

وفي عام ١٩٢١ أصدر «جينز برج» الطبعة الأولى من كتابه «سيكلوجية المجتمع» الذي تعرض فيه لمكونات فكرة العقل المشترك مقسما إياها إلى عناصر ثلاثة:

١ - العناصر العقلية المشتركة بين أعضاء مجتمع معين كأنماط الاستجابة إلى البناء الوراثي.

٢ - التقاليد والخصائص الخلقية والفكرية المشتركة كما تتمثل من ناحية في العادات والقوانين والمؤسسات إلى آخره، وكما تتمثل من ناحية أخرى في صورتها الطليقة التي تجد تعبيرا عنها في اتجاهات الرأي العام واتجاهات الفن والأدب.

٣ - المشاعر الاجتماعية المرتبطة بالجماعة كمشاعر الولاء[١].

ولم تمض سوى بضعة أعوام حتى أصدر «باركر» عام الف وتسعمائة وسبعة وعشرين كتابه المعنون الطابع القومي والعوامل المسهمة في تكوينه والذي جمع فيه أسهامات المتخصصين في العلوم السياسية في مجال الطابع القومي[٢].

وقد تميزت كتابات هذه المرحلة بمستوى ملحوظ من الثراء النظري الذي نعنى به بالإضافة إلى ذلك الكم الهائل من الكتابات الذي لم تنشر إلا إلى طرف يسير منه، عمق تلك الأفكار وتميزها، وقدرة أصحابها على التوصل بتحليلاتهم وانطباعاتهم إلى كثير من الحقائق والتعريفات التي تقترب في لبها وجوهرها مما توصل إليه من تلاهم من المتخصصين.

هذا ونحن نميل إلى القول بأن دراسات هذه المرحلة لم تكن تفتقد الأحكام التجريبية كما يذهب البعض[٣]، وإنما يجب النظر إلى هذه الدراسات في ضوء المناخ الفكري الذي نشأت فيه وتقييمها على أساسه. ولهذا نرى أن تلك الدراسات لم تكن مجرد شطحات فكرية بلا ضابط ولا رابط، بل أنها كانت دراسات علمية. بقدر

---

(١) انظر جينز برج، **المصدر السابق**، ص ٥٨.

(2) E. Barker, *National Character and the Factors of its Formation*.

(3) A Enkeles, & D.J. Levioson, "*National Character:* The Study of Modal Personality and Sociocultural Systems", in Lindzy G.

علمية العلوم الإنسانية القائمة في ستينيات القرن التاسع عشر[1].

رابعا: **مرحلة الدراسات الميدانية**:

(من مطلع العشرينيات حتى مطلع الأربعينيات في القرن العشرين).

اختار «انكلز وليفنسون» روث بندكت دون غيرها من معاصريها من الأنثروبولوجيين لتكون علامة البداية على طريق تطور البحث في مجال الشخصية القومية. واخترنا من بين دراسات «روث بندكت» كتابها «أنماط الثقافة» ليكون دون غيره مؤشرا على بداية هذه المرحلة.

ولا شك أن جهود «بندكت» في هذا المجال قد سبقتها جهود لا بد من ذكرها مثل جهود فرويد في كتابه «الطوطم والتابو» عام ١٩١٢ الذي اعتمد فيه اعتمادا واضحا على نتائج الدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على بعض القبائل الاسترالية البدائية. وجهود «روهايم» التي بدأت عام ١٩١٥. والواقع أن أهمية روهايم تأتي من أنه أول أنثروبولوجي يقبل تماما منهج التحليل النفسي، واضعا إياه في التطبيق «مشيرا صراحة إلى تصوره للطابع القومي من منظور التحليل النفسي بقوله «ينبغي أن يكون للطابع القومي كينونة ثابتة عبر الأجيال، ترتكز على تكرار الموقف الطفلي نفسه» وعلى طريق «روهايم» تتابع عديد من الأنثروبولوجيين ينهلون بدرجات متفاوتة من أفكار التحليل النفسي.

وبتحليل هذه العلاقة المتبادلة بين الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي يمكن أن يتضح معنى ما يقوله «انكلز وليفنسون» من أن ممثلي هذه المرحلة كانوا «من المحللين النفسيين ذوي الاتجاه الاجتماعي ومن الأنثروبولوجيين المتأثرين بنظريات الشخصية»[2].

وقد تركزت لذلك بحوث تلك المرحلة على الاستكشاف المتعمق لمجتمعات

---

(١) انظر قدري حفني، **المصدر السابق**. ص ٢٠.

(٢) انكلز وليفنسون، **المصدر السابق**، ص ٤٤١.

منفردة بوسائل أثنوجرافية، واكلينيكية، لأن دراسة المجتمعات منفردة بوسائل أثنوجرافية هو أسلوب الانثروبولوجيا السائد.

خامسا: مرحلة البحوث ذات الأهداف السياسية المباشرة:

(من أواخر الثلاثينيات حتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين).

يقال إن الحاجة أم الاختراع ، وليس من حاجة ولا احتياج بأكثر وأقسى مما نفرضه الحرب من قضايا ، وما تثيره من متطلبات، وما تخلقه وتخلفه من مشكلات، وهي بذلك تترك بصمات عميقة ليس فقط على نفوس البشر ومشاعرهم، بل أيضا على مسار المعرفة الإنسانية بعامة.

وإذا صدقت المقولة السابقة على كافة فروع المعرفة الإنسانية، فإنها تصدق كأوضح ما تكون على تاريخ البحث في مجال الشخصية القومية، والمرحلة التي نحن بصددها الآن ما هي إلا نتاج مباشر للحرب العالمية الثانية. وتؤكد «مارجريت ميد» هذه الحقيقة بوضوح. فتقول وهي بصدد الحديث عن البحوث التي اتبعت طريقة الدراسة عن بعد in absentia [(١)]:

لقد أنجز العمل الرائد الذي استخدم هذه الطريقة خلال تلك الحقبة الأخيرة من الأحداث السياسية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، وأيضا خلال ما خلفته تلك الحرب من عالم منقسم. وقد تركزت تلك الدراسات على جماعات قومية في محاولة لاكتشاف ما في سلوك أعضاء تلك الدول القومية من انتظامات ثقافية تعزى إلى أنهم قد تربوا في أمة معينة، وأنهم قد نزحوا إلى موطن جديد وعاشوا فيه فترة تبلغ من الطول ما يكفي لكي يصطبغوا بأشكاله الثقافية. ومن هنا فقد أطلق على تلك

---

(١) ضرورة دراسة الشعب عن بعد. وذلك لأن الملاحظة المباشرة كانت مستحيلة في ظروف الحرب. وهو أسلوب استحدث منذ الحرب العالمية الثانية في دراسة الشخصية القومية لشعوب معينة. ومن أهمها الدراسات والبحوث التي أجراها الامريكيون لدراسة اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها. بغرض السيطرة على الحرب والوصول الى سلم دائم، وأيضا الدراسات التي تناولت موضوع الشخصية القومية عند الامريكيين والالمان والروس.

(الكاتبة)

الدراسات الطابع القومي . إن هذا التركيز على الثقافات القومية قد أملاه الاهتمام بالدور الذي يلعبه السلوك ذو المنشأ القومي في الحرب، وفي صنع وتحديد السياسات والمسائل التربوية الداخلية. لقد كان التأكيد القومي بمثابة السمة الغالبة في دراستنا لأنها - أي تلك الدراسات - خططت لمساعدة الحكومات القومية في التعامل مع أعضاء أمم أخرى يسلكون بدورهم على مستوى قومي سواء كأعضاء في الجيوش أو في وفود المفاوضات أو ما إلى ذلك[1].

ويؤكد «جورر» تلك الحقيقة بقوله «لقد أنجزت الدراسات التي اتخذت إسم دراسات في الطابع القومي تحت ضغط الحرب العالمية الثانية حيث كانت الأهداف العملية، أي وضع إطار عملي للحرب النفسية - أكثر الحاحا من الحاجة إلى الإحكام النظري[2].

ويكاد يجمع الباحثون على أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة إنطلاق ضخمة لبحوث الشخصية القومية. وفي ذلك يقول «انكلز وليفنسون» «لقد أعطت الحرب العالمية الثانية دفعة قوية لتلك البحوث، سواء خلالها أو بعدها مباشرة، حين قدم العديد من الأنثروبولوجيين والمحللين النفسيين وغيرهم إسهاماتهم في إستكشاف سيكلوجية أمم متعددة وخاصة الأعداء العسكريين للولايات المتحدة الأمريكية[3].

وجدير بالذكر أن ظروف الحرب العالمية الثانية قد فرضت من ناحية تجمع عدد كبير من الكفاءات البارزة في العلوم الإنسانية في الولايات المتحدة وفرضت من ناحية أخرى احتياجا ملحا لدى السلطات الأمريكية لفهم شعوب ذات ثقافات عريقة تمثلت أساسا في اليابان، والصين، وألمانيا، والاتحاد السوفياتي، هذا بالإضافة إلى توفر الإمكانيات المالية لاجراء مثل تلك البحوث مع تخلف الاهتمام بالعلوم الإنسانية في المعسكر المقابل للولايات المتحدة الأمريكية آنذاك.

---

(1) M. Mead, "Political Application of Studies of Culture at Distance", in M. Mead and R. Metraux (eds) *the study of Culture at a Distance*, p. 8,

(2) G. Gorer, "*National Character: Theory and Practice*", In Ibid p. 57.

(٣) انكلز وليفنسون، **المصدر السابق**، ص ٤١٩.

نستطيع إذن مما سبق ، أن نتبين أن نشأة ذلك النوع الجديد من الدراسات كان بحق إستجابة موضوعية لظروف الحرب العالمية الثانية ، وأن اختيار الولايات المتحدة بالذات موقعا لهذه النشأة وذلك الازدهار قد فرضته أساسا تلك الظروف ، ولم يكن مجرد تلبية لحاجات أمريكية خاصة ، ويتفق ذلك مع تركز الدراسات . التي أجريت في هذه المرحلة على شعوب بعينها كاليابانيين ، والألمان ، والصينيين ، والروس . وهذا ما يؤكده أيضا مظفر شريف[1].

وقد حاول «قدري حفني» أن يتبين صدق تلك المؤشرات ، فحصر عدد البحوث التي أجريت لدراسة الشخصية القومية لتجمعات بشرية معينة ، وقد بلغ عددها أربعمائة واثنين وخمسين بحثا تناولت ثلاثة وخمسين تجمعا بشريا . وبتفريغ نصيب كل تجمع بشري من تلك البحوث اتضح له أن التجمعات الخمس التي حظيت بالقدر الأكبر من تلك البحوث كانت على الوجه التالي :

١ - اليابان : أربعة وخمسون بحثا .
٢ - الولايات المتحدة : إثنان وخمسون بحثا .
٣ - ألمانيا : إثنان وأربعون بحثا .
٤ - الصين : سبعة وثلاثون بحثا .
٥ - روسيا : ثمانية وعشرون بحثا[2].

ويمكن أن نجمل أهم خصائص الدراسات التي تمت في هذه المرحلة كما يلي :

١ - تبلور الأهداف العملية لدراسات الشخصية القومية .
٢ - الالتزام السياسي المحدد للقائمين ببحوث الشخصية القومية .
٣ - تأكيد فكرة فريق البحث .
٤ - دراسات المجتمعات الكبرى .

أما فيما يتعلق بالأهداف العملية لدراسات الشخصية القومية فمن أهمها مدى

---

(1) M. Sherif & C.W. Sherif : "Research on Intergroup relations", in O. Klineberg and R Christie. (eds), *Perspectives in Social Psychology*.

(٢) قدري حفني ، المصدر السابق ، صفحة ٢٨ .

إمكان إستخدام تلك الدراسات في الحرب النفسية باعتبارها يمكن أن تسهم في فهم عدو فعلي أو محتمل، لأن كشف ضعف ذلك العدو وأوهامه وقيمه ومعاييره، ورموزه يمكن أن يسهم في هزيمته النهائية، وتقدم تلك الدراسات فهما للحلفاء والأصدقاء وليس فقط للأعداء وبذلك تمكن من المضي معهم بشكل أفضل. ولا شك أن لمثل هذه الأهداف العملية لدراسات الشخصية القومية الفضل في اختبار العديد من الفروض المثارة في مجال العلاقة بين الثقافة والشخصية. وكل ما نريد تأكيده أن بحوث هذه المرحلة قد تميزت بوضوح أهدافها السياسية العملية منذ البداية.

ويرى «هويبل» أن إرتباط دراسة الشخصية القومية بالمؤثرات السياسية لا يعني تهديداً لعملية أو أكاديمية تلك الدراسة(1). وقد أبرزت «مرجريت ميد» مراراً طبيعة الأهداف السياسية للدراسات التي شهدتها تلك المرحلة مؤكدة أن تلك الدراسات قد نبعت صيغة ومناهجاً من الضرورات الملحة التي فرضها الموقف السياسي العالمي بعد عام ألف وتسعمائة وثلاثين (2) وتذهب مرجريت ميد في موضع آخر من الكتاب إلى أن كافة البحوث تقريباً في هذا المجال قد تمت من خلال الارتباط بمشروعات قومية تتعلق إما بمشكلات الروح المعنوية في الداخل وإما بحالة الحرب والسلام. (3)

وقد بدأ تلك المشروعات القومية بمنحة مالية قدمها خلال الحرب مكتب البحوث التابع للبحرية الأمريكية لبحث الثقافات المعاصرة في بعض البلدان الأسيوية والأوربية وتولت «روث بندكت» الإشراف على فريق البحث الذي تشكل بناء على تلك المنحة في جامعة كولومبيا. وقد جمعت «روث بندكت» أهم نتائج ذلك البحث الذي قام أساسا لدراسة الشخصية القومية اليابانية في كتاب معروف هو: (4)

'The Chrysanthemum and the Sword'

---

(1) E. A. Hoebel, "Anthropological Perspectives on National Character" *The Annals of the American Academy of Political and Social Science*. 370, 1967.

(2) M. Mead, "National Character", in A. L. Kroeber (ed), *Anthropology To — day: An Encyclopedic Inventory*, p. 642

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٦٠، ٦٦١.

(4) Ruth Benedict, *The Chrysanthemum and the sword: Patterns of Japanese Culture*

وجدير بالذكر أن موضوع الشخصية القومية يفرض تضافراً مثمراً بين عديد من العلوم الإنسانية، فهي لا تقتصر على إهتمام عالم النفس، أو الانثروبولوجي فحسب، بل أنها أيضا موضوع إهتمام عالم الاجتماع، وعالم النفس الاجتماعي، وعالم الجغرافية، والعلوم السياسية، والتاريخ، والقانون.... الخ.

وترى «مرجريت ميد» أن الطابع القومي لأفراد مجتمع معاصر متعلم معقد ينبغي أن يقوم بها فريق يضم خبرات وتخصصات متنوعة.[1]

وتمثل بحوث هذه المرحلة إستمراراً لاتجاه التركيز على الدراسة المتعمقة لمجتمع واحد، ذلك لاحظناه في بحوث المرحلة السابقة، لكن الجديد بالنسبة لهذه المرحلة هو إتجاه بحوثها نحو مجتمعات كبرى معاصرة تمثلت أساسا في اليابان والصين والمانيا والاتحاد السوفياتية.

وقد فرضت طبيعة المجتمعات التي انصبت عليها غالبية دراسات هذه المرحلة أن يحال دون الباحث والذهاب بشخصه إلى حيث تقوم تلك المجتمعات.

وفيما يتعلق بطبيعة الحيلولة دون الباحث والمجتمع موضوع البحث تشير «مرجريت ميد» إلى أن الباحث «قد يحال بينه والمجتمع المستهدف مكانيا نظرا لنشوب حرب مثلا كما هو الحال بالنسبة لليابان والمانيا في أوائل الأربعينيات أو لفرضه قيود على السفر والبحث كما هو الحال حاليا بالنسبة للاتحاد السوفياتي والصين الشعبية. وقد تكون الحيلولة زمانية حيث يكون الهدف هو دراسة مجتمع لم يعد موجوداً. ويصبح الموقف آنذاك في حاجة إلى أسلوب جديد وطريقة جديدة»

وقد أدى ظهور ذلك النوع من (الدراسة من بعد) بما طرحه من مشكلات نظرية ومنهجية جديدة إلى تطوير أسلوب جديد للبحث وصفته «مارجريت ميد» بأنه يجمع «بين المناهج التي يتبعها عالم التاريخ وتلك التي يتبعها عالم الانثروبولوجيا».[2]

---

(1) M. Mead, *The Study of Culture at a Distance*, p. 4

(٢) المصدر نفسه. ص ٣.

سادسا: **مرحلة الدراسات المقارنة:**

(من أوائل الخمسينيات حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين)

يرى دويجكرو فريجيدا أن البحث في الشخصية القومية ينبغي أن يكون بحثا مقارنا. . . والبحث المقارن في الشخصية القومية ينبغي أن يقوم على التعاون المتبادل بين العلوم المشاركة، حين ينبغي أن يوضع في الاعتبار الإطار الاجتماعي، والثقافة، وأيضا تاريخ البشر المعنيين إذا ما كان الهدف المتبادل بين العلوم المشاركة سوف يفرض نفسه حالما تتضح الطبيعة الحقيقية للمشكلة. بل إنهما يمضيان إلى القول بأن علما بالانسان يبدو مستحيلا دون أساس صلب من البحوث الثقافية المقارنة.[1]

ورغم ما تميزت به بحوث المرحلة السابقة من الانتباه إلى أهمية فكرة فريق البحث إلا إنها تميزت كذلك بتركيز الباحث على مجتمع واحد يدرسه بعمق وشمول، وقدر المستطاع هادفاً الوصول إلى صورة عامة لتكوينه أو لشخصيته. أما هذه المرحلة فقد تميزت وفقا لما يراه «انكلز وليفنسون» بأن الباحثين بدلا من محاولة التوصل إلى صورة عامة، أصبحوا يركزون عادة على مركب واحد. . حلت الدراسات القائمة على إستبايانات الرأي العام محل الاختبارات الاسقاطية. . . لم يعد التركيز على أمة أو مجموعة منفردة بل على تناول مجموعة من الأمم في الوقت نفسه وفقا لخطة مقارنة. . حلت العينات الكبيرة الممثلة المستقاه من مجموع السكان القومي، محل العينات الصغيرة الخاصة غير الممثلة التي كانت تسود في الماضي، وبدلا من أن يربط الباحثون نتائجهم بالثقافة أو المجتمع ككل فإنهم أصبحوا يلتزمون حدود شريحة محدودة البناء الاجتماعي، أو مجموعة معينة من الأدوار، أو حتى مكانة اجتماعية مفردة[2].

سابعا: **الوضع الراهن لبحوث الشخصية القومية.**

إن أهم الملامح المميزة للمكانة الراهنة التي تحتلها بحوث شخصية الجماعة

(١) دوجكر وفريجيدا، المصدر السابق، ص ١٦١ - ١٦٣.
(٢) انظر انكلز وليفنسون، المصدر السابق، ص ٤٤٥

تتمثل فيما نرى في عدة قسمات مترابطة، تظهر في:

١ - انكماش حجم البحوث التي تحمل عنوانا دالا على إستهدافها دراسة الشخصية القومية.

٢ - إستمرار الاهتمام بالبحوث الثقافية المقارنة وتزايد ذلك الاهتمام.

٣ - إستخدام أساليب البحث العلمي الاكثر تطورا ورقيا.

ويشير «هويبل» إلى ذلك الانكماش الملحوظ لبحوث الشخصية القومية بقوله «إن الموجة التي تصاعدت مع الحرب العالمية الثانية، واستمرت بعد انتهائها سنوات، والتي أدت إلى ظهور بحوث ودراسات متعددة ومتنوعة عن الشخصية القومية، قد انحسرت في الوقت الحالي. ويستدل هويبل على صدق ملاحظته بالقياس الكمي للمقالات والكتب التي تصدر في هذا الموضوع في الوقت الراهن. [1]

ويؤكد «مصطفى سويف» شيئا من هذا القبيل عندما يشير إلى قلة الدراسات التي تتناول نمط الشخصية داخل الثقافات المختلفة معقبا بقوله ولا جدال في أن هذا النقص الواضح في هذا النوع من البحوث يمثل ثغره مؤذية في الميدان. [2]

ونحن نميل إلى تبني النظرة المتفائلة نحو مصير بحوث الشخصية القومية، والتي نرى أنها ستستعيد مكانتها مرة ثانية، مستفيدة من الانتقادات التي وجهت إليها، ويرتكز رأينا على أنه ما زالت هناك حاجة لبحوث الشخصية القومية، لأن ظهورها كان كتلبية لحاجات انسانية طارئة، لهذا فإن الظروف السياسية التي شاهدها عالم الحرب العالمية الثانية والتي أدت إلى ازدهار تلك البحوث ما زالت قائمة وبشكل أكثر حدة في عالمنا المعاصر وإذا كانت دراسات الشخصية القومية قد لعبت دورها بدرجة أو بأخرى كأحد الأسلحة في الصراعات الساخنة آنذاك، فإن أهمية هذا الدور تتزايد ولا شك في مناخ الصراعات الباردة. وبالاضافة إلى ذلك كله فإن عالمنا اليوم يشهد

---

(١) انظر هويبل، **المصدر السابق**، ص ١ - ٧.

(٢) مصطفى سويف، اطار أساسي للشخصية: دراسة حضارية مقارنة على نتائج التحليل العاملي»، **المجلة الجنائية القومية**، ٥ (١)، ١٩٦٢، ١.

ازديادا لمشاكل القومية سواء بظهور قوميات جديدة، أو بمحاولة استنبات قوميات مصطنعة، أو باستعمال الصراعات ذات الطابع القومى. كل ذلك يجعلنا أكثر ميلا لترجيح أن الاحتياجات العملية لعالم اليوم ما زالت تتطلب بإلحاح مزيدا من بحوث شخصية الجماعة.[1]

ويمكن أن نقول في النهاية أن دراسات الشخصية القومية ما زالت قائمة ونشطة، وأنها تلعب في الوقت الحاضر دورا بالغ الأهمية في توجيه الحكومات والسلطات العسكرية. مثال ذلك أن العديد من الدراسات تنشر حاليا بأقلام إسرائيلية، وغير إسرائيلية عن مقومات الشخصية العربية، وعن الصراع العربي الإسرائيلي، وتكشف هذه الدراسات بوضوح عن أن موضوع الشخصية القومية يحظى بقدر كبير من الاهتمام التطبيقي لدى الاسرائيليين في مواجهتهم الراهنة للعرب. بل إن فهما معينا للشخصية المصرية بالتحديد، قد أسهم في التخطيط العسكري الاسرائيلي لعمليات يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين[2].

---

(١) يتفق معنا في الرأي قدري حفني، **المصدر السابق**، ص ٣٩.

(٢) قدري حفني، **تجسيد الوهم: دراسة سيكلوجية للشخصية الإسرائيلية**.

الفصل الحادى عشر

نظرية الدور: تحليل نقدى وتصور مقترح

تمهيد :

سنحاول أن نقدم فى هذا الفصل عرضا تحليليا مركزا لنظرية الدور ، بوصفها مجالا جديدا من مجالات علوم الثقافة والشخصية ، تؤثر فيها الأنماط المعيارية للثقافة فى سلوك شاغلى الأدوار . وسوف نبين فى ثنايا هذا العرض الأصول التاريخية لنظرية الدور وطبيعتها ، واتجاهها العلمى الخاص ، وأهم معالمها الأساسية ، كذلك سنتناول فى هذا الفصل أيضا مفهوم الدور فى إطار نظريته ، وسنحاول إلقاء الضوء عليه ليزيد فهمنا له من زوايا مختلفة ، وفى أثناء ذلك كله سنتعرض لشرح كثير من المصطلحات الخاصة بالدور ، ونوضح مصير نظريته .

أما تصورنا المقترح فى نظرية الدور ، فيتركز فى تحليل مفهوم الدور فى إطار نظريته ، من خلال منظور جديدة يأخذ فى الاعتبار ذلك التكامل بين الثقافة ، والمجتمع ، والشخصية .

أصول نظرية الدور وطبيعتها :

نود بادئ ذى بدء أن نزيل بعض اللبس المتعلق بنظرية الدور ، إذ كثيرا ما استخدمت عبارة « نظرية الدور » استخداما خاطئا فهى لا تعنى ، كما يبدو من فهمنا لهذه العبارة ، نظرية واحدة ، وإنما تنسحب ، رغم معناها المفرد ، على مجال دراسة الأدوار برمته ، ذلك المجال الذى يشتمل على نظريات متعددة . وليست عبارة « نظرية الدور » مقصورة أيضا على نظرية بعينها ، إذ هناك مجال عريض للأدوار ، يعرض فكرا معينا ويزخر بالعديد من الفروض والنظريات التى تدور حول الأبعاد المختلفة للموضوع ، ونخلص من ذلك إلى أنه ليست هناك نظرية عامة واحدة وشاملة للدور ، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن هناك مجالا حديثا من بين مجالات العلوم الإنسانية الاجتماعية قد خصص لنظرية الدور وما يتصل بها من مفهومات وآراء .

ويدين مجال نظرية الدور بالكثير إلى فن المسرح . وليس أدل على ذلك من استعراضنا لقول « شكسبير » (Shakespeare) فى مسرحية « كما تحب » (الدنيا مسرح كبـير وكل الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون ، لهم مخـارجهم ومداخلهم، والفرد الواحد يلعب أكـثر من دور فى وقت واحد ، وفصول المسـرحية تتكون من سبع مراحل ، ففى البداية رضيع، ثم باك متململ بين ذراعى مربيته ، ثم . .)[1].

و « شكسبـير » هنا يصور السلوك الإنسـانى من منظور معين : فالحـياة فى المجتمع ، فى نظره ، تشبـه التمثيل على خشبـة المسرح بكل ما يحـويه من مناظر وأقنعة وأجواء ، والواقع أن مجال نظرية الدور لا يدين إلى المسـرح بكلمة «الدور» فـحسب ، بل إنه ليـديـن له بالكثيـر من لغـته ومنظوره التـشـخيـصى للسـلوك الإنسانى.

ويتألـف مجال نظريـة الدور من كم من المعلومات ، وعـديد من النظريات والبحـوث، وميـدان للدراسة ، بالإضـافة إلى منظور مـعين ولغة خـاصة ، ولا يختلف فى هذا الصـدد مجال نظرية الدور عن غـيره من مجالات التـخصص فى العلوم السلوكـية ، أى علوم الـعلاقـات الاجتـماعـية ومن أهمـها علم الثـقافـة والشخصية ، كما أن نظرية الدور تسعى ، كأية نظرية علمية أخرى ، إلى محاولة الفهم والتنبؤ ، والتحكم فى الظواهر التى تقع فى نطاق دراستها .

وتعد نظرية الدور مجالا جديدا من مجالات الاستقصاء فى العلوم الإنسانية المهتـمة بالعلاقات الاجـتماعيـة ، ولعل ذلك هو السبب فى اختلافـها عن بعض مجالات العلوم الاجتماعية الأخرى الأكثر نضجا .

ويهتم مـحلل الدور (role analyst)[2] بوصف وفـهم كثيـر من المظاهر المعـقـدة للسلوك الإنسـانى ، التى يهـتم بهـا أيضـا الروائيـون وكتـاب المسـرح

---

(١) ترجمة للكاتبة عن : W. Shakespeare , As you Like It , Act II, Scene 7.

(٢) ظهر أول محللين للأدوار ، لأول مرة كمتخصصين فى تخصص جديد هو مجال نظرية الدور ، فى سنة ١٩١٤ أثناء عمل قائمة فترية للقوى العاملة العلمية ، (Periodic inventory of Scientific manpower) وأشرفت عليه منظمـة العلوم الوطنية : (National Science Organization) نقلا عن: Bruce Biddle & Edwin Thomas (eds) Role Theory : Concepts and Research , P .3.

والصحفيون والمؤرخون ، فسلوك المرأة كزوجة وأم ، وسلوك الطفل كتلميذ وابن، وسلوك الرجل كمرءوس وزوج ، سلوك هولاء جميعا يقع فى نطاق اهتمام محلل الدور.

وأحيانا ما يركز محلل الدور اهتمـامه حول سلوك أحد الأفراد ، كما أنه قد يوجه اهتمامه أيضا إلى دراسة مجمـوعة معينة من الأفراد ، وهو فى أحيان أخرى قد يدرس جماعات معينة من الناس ، تقوم بأفـعال معينة أو تسلك سلوكا معينا، فهناك إذن أوجه متعـددة للسلوك والأفعال فى الحياة الحقيقـية ، يمكن دراستها فى نطاق نظرية الدور ، نذكـر منهـا على سبـيل المثـال : تقيـيم الشـخص نفســه أو الآخرين، وتأدية الناس لأعمالهم ، وتأثير أداء بعض المجـموعات لعملها فى أداء مجموعات أخرى لعـملها ، ويدرس محلل الدور أيضا أشكالا منمطة من السلوك المركب الواقعى الذى يتضمن بدوره مجموعات متمـايزة ومراكز اجتماعية متباينة، وتقسـيما مـتعددا للأعـمال ، كمـا يشمل أيضا الاتصـال ، والتنشئـة والتعلم ، والاعتماد المتبادل . إلخ .

ويقصـد بتحليل الدور ، بيان المضـمونات المختلفـة التى يحتوى عليـها هذا المفهوم ، من وجـهة نظر محللى الدور الذين تتباين تخـصصاتهم الدقيقـة ، كما تختلف زوايا اهتماماتهم ووجهات نظرهم .

الاتجاه العلمى لنظرية الدور :

لنظرية الدور ، كمجال، اتجاه علمى يتـعلق بتلك العوامل التى يفترض أنها ذات تأثير فى التـحكم فى السلوك الإنسانى ، ويحـسن أن نعرضـها مع التمـثيل بالمسرح لتتضح معالمها ، فعندما يصور الممثلون شـخصيات معينة فى مسرحية ما، فـإن أداءهم يكون مرهونا بالنـص ، وبتوجـيهـات المخرج ، وبأداء زمـلائهم من الممثلين الآخرين لأدوارهم ، وبردود أفعال المتـفرجين ، بالإضافة إلى مواهبهم هم أنفسهم كممثلين .

وبصرف النظر عن الاختـلافات بين الممثلين فى ترجـمة أدوارهم ، فإن أداء كل ممثل لدوره يعتمد على كل تلك العوامل الخارجية مجتمعة ، وعلى ذلك توجد هناك أوجه شبـه لها دلالتها ، بين أداء الممثلين الـذين يؤدون الدور نفسه ، بغض النظر عن هوياتهم .

وإذا ما نقلنا هذا التمثيل إلى الحياة الحقيقية مستخدمين اصطلاحات النظريات الخاصة بالدور ، نجد أن الأفـراد فى المجتمع يحتلون مراكز مـختلفة ، وأن أداءهم لأدوارهم فى تلك المراكز يتحـدد بالمعايير ، والتوقعـات ، والقواعد الاجتمـاعية، وأنه فـضـلا عن ذلك يتـحـدد أيضـا بأداء الآخـريـن لأدوارهم فى المراكـز التى يشـغلونها، وبـأولئك الذين يلاحظون ويسلكون كـرد فعل لأدائـهم هم أنفسـهم لأدوارهم ، كـما أن أداء الأفـراد لأدوارهم يتأثر أيضـا بشـخصـياتهم وقـدراتهم ومواهبهم الخاصة .

وإذا تناولنا ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح النص الاجتماعى (Social Script)، أى مجموعة قواعد السلوك الاجتماعى ، نجد أنه قد تكون له القيود نفسها التى للنص المسـرحى تماما على الرغم من أن الـنص الاجتـماعى قـد يسمح بعـدد أكبـر من الاختيارات ، إذا ما قورن بالنص المسرحى ، أما المخرج فى المسرحية ، فيقابله فى الحيـاة الحقيـقية ، القـائم بعمليـة التنشئـة الاجتمـاعية كـالأب أو المدرس ، وأما المتفـرجون فى المسرح فـيماثلهم فى الحـياة الواقعيـة ، كل أولئك الذين يلاحظون كيفية سلوك الفرد فى مركز معين .

وأداء الفرد أو العضو لدوره الذى يتطلبه مركزه يتوقف ، كما فى المسرحية، على مدى تعايشه مع الدور ، وعلى شـخصيته ، وتاريخه الشخصى بـعامة، كما أنه أيضا وثـيق الصلة « بالنص » أو « المنظور » الذى يحدده له الآخـرون ، وعلى ذلك فإن جـوهر مجال نظرية الدور ، يفـترض أن أداء الأفعال ، يتـحدد بواسطة المواصفات الاجتماعية وسلوك الآخرين ، وأن الاختلافات الفردية فى الأداء ترجع إلى اختلاف الإطار المرجعى لتلك العوامل ، أى المواصفات والسلوك.

ومفهوم الدور فى إطار نظريتـه مفهوم تواصلى (relational) وذلك لأن كل شخص يلعب دوره إزاء دور شـخص آخر ، فالطـبيب على سبـيل المثال ، يؤدى دوره كطبيب إزاء « دور المريض » والمظهر العلائقى لمفـهوم الدور يؤكد فكرة اتخاذ الدور ويبرزها ، ويطلق على التوقعات التى ينتظرها الآخرون من الأنا ، اصطلاح واجبـات دور الأنا (ego's role obligation) أما الـتوقعـات التى تتـوقعهـا الأنا من شـريك الدور ، فـتسـمى « حـقوق الأنـا» (ego's rights) والتـوقعـات التى بين مـركز بؤرى معين وبين مركز بؤرى آخر مضاد ، تكون ما يسمى « بقطـاع الدور »

(Sector) ، أما التـوقعـات التى بين مركـز بؤرى معين وعـدد من المراكز البـؤرية المختلفـة المضادة ، فتكون مـا يطلق عليه « مـيرثون » (Merton) « جهاز الدور » (role set) فالـطبيب فى المسـتشـفى المحلى مثـلا له علاقـات بمرضاه ، وكـذلك بالأطباء فى المستشفى ، وأيضا بزملائه من الأطباء الآخرين ، وذلك بوصفه عضوا فى جمعية الأطباء المتخصصين .

ومفـهوم الدور مفهـوم يقع على المستوى الفـردى ، أى مستوى التـفاعل ، فالأشخاص ، وليست المنظمات أو النظم أو الأنسـاق الفرعية ، هم الذين يلعبون أدوارا ويشغلون مـراكز ، لكن اصطلاح الدور أحيـانا يستخـدم بمعنى يختلف عن ذلك الذى ذكـرناه ، ليعنى ذلك الجـزء الذى يؤديه نسق فرعى أو منظمـة أو نظام معين فى داخل النسق الاجتـماعى العام ، أو كوظيفة أو إسـهام إيجابى فى النسق الأكبر[١] .

أساليب الاستقصاء فى مجال نظرية الدور :

ليس من شك فى أن دراسـات الدور تتطلب طرقـا وأساليـب فنية للبـحث تخـتلف اختـلافا جـوهريا عن تلك الأسـاليب المسـتخدمـة فى علوم العلاقـات الاجتماعية التى تهتم بالتفاعل بين الأفراد بوجه عام .

فمتغيرات الدور على سبيل المثـال يمكن أن تحدد إجرائيا بوسائل عدة ، وقد اختـار كل من محلـلى الدور المتغـيرات المتصـلة أوثق الاتصال بمجـال تخصـصه وتدريبه، لكن الباحـثين فى مجال الدور قد فضلوا بعـض الطرق والأساليب الفنية على غيرها من الطرق والأساليب الأخرى .

وهناك ملاحظة على جانب كـبير من الأهمية ، وهى كثـرة وشيوع دراسات الدور التى يمكن أن تسـمى بالتجـارب المعمليـة والدراسات المركـزة للدور ، وقلة الدراسات التى تعتمـد على المسوح المركزة على التجارب فى أجواء الحياة الحـقيقية والطبيعية ، لا على التجارب المصطنعة فى المعامل ، أما الدراسات المقارنة لظواهر الدور عبر الثقافات والدول والجماعـات والمنظمات والمجموعات ، فما زالت قليلة محـدودة ، هذا فضلا عن أن هناك اعتـمادا كبيـرا على التقرير اللفظى للبـحوث

---

(١) انظر : « إدون توماس » ، « وبروس بدل » المصدر نفسه ، ص ٣١ : ٣٢.

كمصدر للمعلومات. ذلك لأن الاستخبار (questionnaire) أنسب وسيلة مستخدمة لذلك . يضاف إلى ذلك أن لعب الأدوار (role - Playing) أو أداءها حقيقة - وهو ضمن الأساليب الفنية للاستقصاء - يستخدم فى تقييم السلوك، وكذلك فى تغييره ، وقد أصبح من الشائع استخدامه فى مجال نظرية الدور ، وذلك بعد اقتباسه من مجال السيكو دراما والسوسيودراما[1] .

مفهوم الدور فى إطار نظرية الدور :

يعد مفهوم الدور المحور الأساسى الذى تدور حوله دراسات وكتابات محللى الدور ، ومن الغريب أن هناك خلافا شديدا حول هذا المفهوم أكثر منه حول أى مفهوم آخر فى نظرية الدور .

وقد استخدمت فكرة الدور لتدل على التوصيف (Prescription) ، والوصف (description) ، والتقييم (evaluation) ، والفعل (action) ، وكلها تشير إلى العمليات الظاهرة والكامنة ، وإلى سلوك الأنا والآخرين ، وإلى السلوك الذى يبادئ به الفرد ، والسلوك الموجه نحوه على حد سواء .

وربما يكون أكثر التعريفات شيوعا ذلك التعريف الأكثر قبولا والقائل بأن الدور عبارة عن مجموعة المواصفات التى تحدد ما ينبغى أن يكون عليه سلوك شخص يحتل مركزا معينا ، لكن قبول هذا التعريف قائم على أساس أنه خير تعريف يمكن انتقاؤه من بين تعريفات كثيرة ، متباينة إلى درجة محيرة للباحث المدقق ، ويفصح الاستعراض الدقيق لتعريفات الدور عن أن هناك تعريفا له يكاد يكون عالميا وهو أن يختص بسلوك أناس معينين . ويرى « لينتون » (Linton) أنه من الممكن قصر تعريف الدور على أنماط السلوك المتصلة بالمركز ، وعلى مركز أولئك الأشخاص الذين يعرضون أدوارا .

ويستخلص من ذلك أن هذه المجموعة من التعريفات تفترض أن هناك علاقات متبادلة بين مجموعات الناس الذين يراد التمييز بينهم وبين أنماط السلوك التى يتميزون بها ، لكن هذه التعريفات جد محدودة فقد تتمايز المراكز تبعا لمحكات سلوكية أو غير سلوكية ، وكثيرا ما تتناول تحليلات الدور المراكز التى

---

(١) انظر « إدون توماس » و « بروس بدل » المصدر نفسه ص ١٦

تستند إلى خصـائص فيزيقيـة أو إلى الصدفة المتعلقة بالمولـد ، كأن يولد الشخص ملكا، أو شيخ قبيلة أو طريقـة مثلا ، وكذلك استخدم مـفهوم الدور أيضا لأنماط السلوك التى لا تتعلق بالمركـز، وبالإضافة إلى ذلك فإن التـعريفات التى يقتـرحها «لينتون » تجعلنا نتحرك فى دائرة ضيقة ، لأنها تضع فى الاعتبار فقط تلك الأدوار المتعارف عليـها جماعيـا ، ولاشك فى أن تحديد مفهومـات الدور على هذا النحو يجعل محيط نظرية الدور ضيقا جدا .

نظرية الدور - إلى أين ؟:

إذا تساءلنا عن مصـير نظرية الدور فى سوق التخصصـات العلمية ، لابد ، للإجابة على هذا التساؤل ، أن نبدأ أولا بتقـييم مدى تفرد مجال نظرية الدور بين نظريات العلوم السلوكية ، واستخلاصاتنا هنا مبنية على ما ذكرناه فيما سبق .

إن الجـانب الفريد والوحـيـد لنظرية الدور هو لغـتهـا ، أى مـصطلحاتهـا ومفـهوماتهـا ؛ لأن منظور الدور ومجـاله مشتـرك بين عديد من مـباحث العلوم السلوكـية ، وليست نـظريات وفروض الدور دائمـا مختلفـة عن القضـايا النظرية للمبـاحث المتصلة به ، كـما أن طرق الاستـقصاء فى دراسـات الدور إنما تعكس اتجاهات وممارسات مميزة للعلوم السلوكية بوجه عام ، هذا بالإضافة إلى المعلومات غير المنظمة عن الدور المدفونة فى مقالات وكتب عديدة فى مجالات شتى .

ولكن على الرغم من السمات المشتركة بين نظرية الدور واهتمامات مجالات أخرى ، فلابـد أن مجال نظرية الدور هو وحده الذى ينفـرد بتوليفة فـريدة لمجال الدراسة والمنظور واللغة والمعلومات والنـظرية والبحث ، ومن خلال ذلك كله تعد نظرية الدور مجالا فريدا للدراسة .

وإذا ما أخـذنا فى الاعتبار هذه الخـاصية الفريدة لـنظرية الدور ، فإنه ينبنى على ذلك استطاعتنا استـبعاد تكهنات عديدة متطرفة حول مـستقبل هذه النظرية ، فمن هذه التكهنات، ذلك الرأى القائل بأن نظرية الدور لا تعدو أن تكون بدعة أو نزوة عابرة مـصيرها إلى زوال ونسـيان . ويمكن إثبات خطـأ هذا التكهن ، إذا ما وضـعنا فى عين الاعـتبـار أن المشكلات التـى يهتم بهـا مـجـال نظرية الدور هى مشكلات أساسية ، كما أن التـناول العلمى لهذه النظرية قد أرسيت دعائمه ، هذا

بالإضافة إلى أن الإسهامات المتواضعة لهذه النظرية ليس مستقلا الاستقلال الكافى عن العلوم الإنسانية السلوكية المتصلة به ، مما لا يثبت صحة ذلك التكهن المغالى فيه .

وإن تقييم المرحلة الراهنة التى تمر بها نظرية الدور من وجهة نظر واقعية ، ليشير إلى أنه على محللى الدور أن يعملوا على إرساء دعائم نظرية الدور كتخصص متميز من تخصصات علم السلوك ، تخصص يحتفظ فى الوقت نفسه برباط وثيق بتلك المجالات التى أعطته الكثير فى الماضى وأسهمت فى وجوده .

ولكى تحقق نظرية الدور هذا الهدف ، فإن المجهودات المستقبلة يجب أن تتضمن تدعيم المكاسب الحالية بالإضافة إلى كثير من الابتكار ، وهناك على الأقل ثلاث مهام عامة أمام نظرية الدور ، تجعلها تستحق أن تحتل مكان الصدارة :

أولا : إن مجالها الواسع المعقد فى الآن نفسه ، يجب أن يتعرض لمزيد من التحليل والفحص ، بقصد الوصول إلى تحديد أكثر وضوحا ودقة لهذا المجال .

ثانيا : إن لغة الدور ، التى يعد الكثير من اصطلاحاتها غير مكتمل الوضوح، بحاجة إلى أن تكون أشد وأكمل وضوحا وأن تكون متضمنة لكل الظواهر المتصلة بها ، والتى تتطلب تعريفا خاصا ، كما أن هذه اللغة يجب أن تثبت دعائمها كلغة فنية (technical language) قائمة بذاتها ومعترف بها .

ثالثا : إن المعرفة العلمية والعملية الخاصة بنظرية الدور تحتاج إلى إعادة نظر ومراجعة وموازنة وتنظيم وتقييم حتى تصاغ فى شكل قضايا عامة [1] .

تعقيب :

نخلص من هذا العرض المركز لأهم معالم مجال نظرية الدور ، إلى أنه مجال جديد من مجالات الدراسة فى العلوم الإنسانية ، التى تهتم بالعلاقات الاجتماعية ، ومن أهمها علم الثقافة والشخصية .

وعلى الرغم من أن هذا المجال لم يشتهر بعد الشهرة الواسعة ، فإنه يشترك مع المجالات الأخرى الأكثر نضجا فى العلوم الإنسانية المهتمة بسلوك الأفراد

---

(١) انظر المصدر نفسه ، ص ١٧ .

وعلاقاتهم الاجتماعية ، فى حقيقة كونه يتميز بميدان محدد للدراسة، وبمنظور أو قطاع معين ، وبلغة للتواصل ، وبكمية من المعلومات وبعض البدايات للنظرية ، وبطرق وأساليب فنية للاستقصاء .

ويتضح مما تقدم أن مجال نظرية الدور قد تحدد نطاق دراسته ، بأنه دراسة سلوك الناس فى الحياة الحقيقية المركبة ، كما يبدو من المواقف الاجتماعية المستمرة لا أكثر من ذلك ولا أقل . ويهتم محللو الدور بدراسة موضوعات كثيرة . نذكر منها على سبيل المثال عملية التنشئة الاجتماعية ومراحلها ، والاعتماد المتبادل بين الأفراد ، وخصائص المراكز الاجتماعية ، وعمليات الانسجام والتوافق والتخصص فى أداء الأعمال وتقسيم العمل .

وهناك خاصية أخرى مميزة لمجال نظرية الدور ، وهى المنظور الذى يطل منه على الظواهر التى يتعامل معها ، ونعنى بذلك وجهة النظر الخاصة بمحددات السلوك الإنسانى الواقعى المعقد. إن هذا المنظور - فى كلمتين - إن هو إلا نوع من الحتمية الاجتماعية ، التى تعزو كثيرا من تنوع السلوك الواقعى فى الحياة ، إن لم يكن ذلك السلوك كله إلى تأثيرات خارجية ، حالية أو سابقة ، وتتضمن هذه التأثيرات الإطار المحدد للمطالب ، والقواعد ، وسلوك الآخرين الذى قد يسهل أو يمنع أو قد يكافئ الشخص أو يعاقبه ، كما تتضمن تلك التأثيرات المراكز التى يكون الشخص عضوا فيها ، وفهم الفرد الذاتى لهذه العوامل مجتمعة ورد فعله تجاهها .

ومن المهم أن نذكر أن الاصطلاحات الفنية الخاصة بمجال نظرية الدور والتى تستخدمها الآن ، لم تظهر فى أعمال المتخصصين حتى سنة ١٩٣٠ ، إذ إنه ابتداء من تلك السنة ، ظهرت مفهومات الدور الأول ، تلك المفهومات التى اندمجت بعد ذلك فى اصطلاحاته ، ونجم عنها شبه لغة خاصة للدور ، وقد أسهم كثير من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية المعنية بالعلاقات الاجتماعية فى إثراء هذه اللغة، ونخص بالذكر منهم كلا من « جورج هربرت ميد » (Mead) و «مورينو» (Moreno) و « لينتون » ، فقد كانت كتاباتهم وتعاليمهم أشد تأثيرا، لأن كلا منهم قد أوضح أفكارا ، وبلور مصطلحات ، وعرض مشكلات للدراسة، ولا تزال مؤلفاتهم تعد حتى الآن فى صميم مجال نظرية الدور .

ولم تنتشر مصطلحات أو لغة الدور فى كتـابات المتخصصين والباحثين حتى الأربعينيات . ومنذ ذلـك التاريخ انتشر استـخدامها بشكل متـزايد ، وبخاصة فى تخصصات العـلاقات الاجتماعية والـسلوك الإنسانى ، وفى النظريات التكاملية ، وفى المجالات المتخصصة التى تهتم بالفعل الاجتماعى والتغير الاجتماعى .

وخـلاصـة القـول أن نظرية الدور مـجـال جـديـد من مـجـالات العلوم الاجتماعية، التى تهتم بأفعال الفرد وعلاقاته الاجتماعية ، كما أنها عتبة الاعتراف بها كميدان متخصص ، لكن ذلك يجب أن يـدعم بتحديد أكثر لنطاق دراستها ، وبتوضيح أدق للغتها ، وبالعمل على تنظيم معلوماتها ومراجعة تنظيراتها .

غموض نظرية الدور :

تحليل نقدى :

أصبحت ظاهرة الدور موضـوعا رئيسيا فى تحليلات السـوسيولوجيين الذين يودون الربط بين أداء النظام الاجـتماعى لوظـيفتـه وبين خصائـص سلوك الأفراد الذين يكونونه .

كذلك نجد أن الكثير من علماء النفس الاجتماعى قد اهتموا أيما اهتمام بفهم العلاقة بين الشخصية والنسق الاجتمـاعى ، من خلال مفهوم الدور ، مستخدمين إياه كهـمزة الوصل أو نقطة الالتـقاء بين الفـرد كنسق سيكلوجى ، وبين المجـتمع كنسق اجتماعى يعد الفرد جزءا منه .

ويستخدم مفهوم الدور الآن على نطاق واسع فى دراسة التنظيمات الصناعية والبيروقراطية ، وكذلك فى دراسة الأسرة وتفاعل المجموعة الصغيرة ، وفى دراسة السلوك المرضى وعـلاجـه ، وقـد أمكن إجـراء بحوث هادفـة ملتـزمـة فى هذه المجالات، كما لها أثرها فى التنمية الاجتماعية .

وقد رأينا ، من خلال عرضـنا التحليلى لنظرية الدور ، أن لغة الدور ، أى مفـهوماتها واصطلاحـاتها ، هى الواجهة الـفريدة المميزة لهـذه النظرية ، لأنها ، وحدها ، دون الـواجهات الأخـرى للنظرية ، كـمجال الدراسـة أو المنظورات أو أساليب البحث ، تتميز باستقلالها عن مجالات ومباحث العلوم الإنسانية السلوكية الأخرى ومنظوراتها .

ومن هنا فإن الإسهامات فى إرساء دعائم نظرية الدور ، تكمن فى إيضاح لغتها وتثبيت دعائم مفهوماتها ومصطلحاتها الفنية ، وإلقاء مزيد من الضوء عليها، وبذلك تصبح نظرية محكمة مترابطة يسهل تطبيقها فى مجالات التنمية الاجتماعية المختلفة التى تسير فيها المجموعات الاجتماعية بخطى سريعة .

وقد لاحظنا من خلال العرض التحليلى لنظرية الدور أيضا ، أن مفهوم الدور فى إطارها مفهوماتها يشوبه كثير من اللبس وتغلفه البلبلة والخلط ، مع أنه مفهوم محورى من مفاهيم هذه النظرية إن لم يكن أهم مفهوماتها على الإطلاق، لذلك رأينا أن نقدم تصورا مقترحا نحاول فيه تحليل الدور فى إطار نظريته من وجهات نظر مختلفة ، لنعرف إلى أى مدى يمكن التحدث عن وجود إجماع (Consensus) على رؤية معينة لدى محللى الدور ، وفى النهاية سنقدم أيضا تحليلا متكاملا للدور ، فى تصورنا ، نركز فيه على مفهومات معينة مثل : الوظيفة ، والثقافة ، والمحتوى الثقافى ، كل ذلك فى محاولة لإزالة بعض اللبس والخلط اللذين يصاحبان تعريف هذا المفهوم المحورى الهام من مفهومات نظرية الدور .

تحليل مفهوم الدور فى إطار نظريته :

سنحاول أن نستعرض أهم التعريفات لاصطلاح الدور ، والتى قدمها العلماء من محللى الدور ، الذين تتباين تخصصاتهم الدقيقة كما تختلف اهتماماتهم ووجهات نظرهم .

وسنحاول أيضا تصنيف تلك التعريفات فى فئات ثلاث ، نرى أنها تلخص وجهات نظر العلماء من محللى الدور حول تعريفه ، محاولين معرفة المدى الذى يمكن التحدث فى حدوده ، عن وجود اتفاق وإجماع على رؤية معينة لدى هؤلاء العلماء .

ووفقا لهذا التصنيف سنتحدث عن الدور من ثلاثة أوجه للنظر :

١- الدور من وجهة النظر الثقافية .

٢- الدور من وجهة النظر الاجتماعية .

٣- الدور من وجهة النظر النفسية الاجتماعية .

أولا: الدور من وجهة النظر الثقافية :

تتبلور وجهة النظر الثقافية للدور فى تلك التعريفات التى تحدد الدور بأنه الأنماط المعيارية للثقافة ، ومن بين هذه التعريفات يبرز تعريف « رالف لينتون » (Ralph Linton) وقد أسهمت معالجة « لينتون » لمفهومات المركز والدور فى مؤلفيه: دراسة الإنسان ، والخلفية الثقافية للشخصية ، فى إثارة كثير من الاهتمام حول هذا الموضوع ، وكذلك يمكن القول بأن الكثيرين، ممن اهتموا بالعامل الثقافى فى معالجتهم لمفهوم الدور، يمكن اعتبارهم سائرين على دربه ومهتدين بهديه.

ويقول « لينتون » فى مقدمة حديثه عن مفهومات المركز والدور : « إن هناك ثلاثة عوامل أساسية ولازمة لوجود أى مجتمع وهى : جمع من الأفراد ، ونسق منظم من الأنماط التى تحدد وتضبط العلاقات ، وأوجه النشاط بين هؤلاء الأفراد، وروح المجموعة التى تمد هذه الأنماط بالقوة الدافعة كى تعبر عن نفسها »[1] .

وبالنسبة إلى « لينتون » يعد النسق الاجتماعى ظاهرة ثقافية ، أو مجموعة من الصور الأصلية التى يسير على نهجها ، إنه المجموع الكلى للأنماط المثالية التى تضبط السلوك المتبادل بين الأفراد فيما بينهم ، وبين الأفراد ككل ، والمجتمع[2] .

ويمثل كل من مفهومى المركز والدور تصورا محكما للأنماط المثالية التى تضبط السلوك. فالمراكز هى الأوضاع القطبية فى أنماط السلوك المتبادل ، وإن المركز - متميزا عن الفرد الذى قد يشغله - ما هو ببساطة إلا مجموعة من الواجبات والحقوق[3] . ويمثل الدور المظهر الدينامى للمركز ، فعندما يضع الفرد الحقوق والواجبات التى تكون المركز - موضع التنفيذ فإنه حينئذ يكون مؤديا دورا »[4] .

ومن خلال شغل الأفراد للمراكز ، ومن خلال أدائهم للأدوار ، يستطيع المجتمع أن ينجز عمله الذي ينفذ بطريقة نمطية ومنظمة بواسطة أفراده الذين

---

(1) Ralph Linton The Study of Man . p . 107.

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

يشغلون هـذه المراكز أو يؤدون تلك الأدوار ، ومن وجهـة نظر الفرد « فـإن المركز والدور معا يضـعان ، بوصفهمـا مرشدين لسلوكه مـحددين له ، الحد الأدنى من الاتجاهات والسلوك الذى عليه أن يتـبعه ، إذا ما أراد الاشتراك فى التـعبير الظاهر عن النمط »[1] .

وإن استـخدام « ليـنتـون » مصـطلحى المركـز والدور مضـمومـين مـعـا (The Combined Status and role) ، ليشيـر إلى أنه ، فيما عدا الوظيـفة المكانية المنوطة بالمركز والتى لا تُخَوِل للدور ، لا فرق تقريبـا بين المفهومين ، فالأول يرمز إلى نمط مـثالى ، بينمـا يشيـر الثانى إلى الـسلوك الذى يعبـر عن النمط ، ويرى «لينتون » أن الفرق بين المفهومين إنما هو فقط من قبيل الاهتمام الأكاديمى [2] .

وقد دعم « لينتون » إيضاحه لهذه المفهـومات فيما بعد ، الأمر الذى يجعلنا نعد ذلك الـتدعيم نَقْلَـة فى مفهـوم الدور وذلك فيـما بين كـتابته لمـؤلفه **دراسة الإنسان**، وكتابته لمؤلفه الآخر **الخلفية الثقافية للشخصية** ، ففى هذا الكتاب الأخير يعرف لينتون الدور بأنه المجموع الكلى للأنماط الثقافية المتصلة بمركز معين [3] .

وبهذه المعالجة فـإن الدور يعد أيضا مظهرا ديناميا للمركز وفـى عبارة موجزة يتضح أن للدور علاقة واضحة بالمعـايير السلوكية ، وليس بالسلوك الفعلى لشاغل الدور، ويعنى ذلك أن الدور من وجـهـة نظر «لينتـون»، «يتكون من الاتجـاهات والقـيم والسلوك الذى يعنيـه المجتـمع لأى فرد من أفـراده الذين يحـتلون مركـزا معينا»[4] .

ولا تخرج تعريفـات كثير من الباحـثين عن تصور تلك الفئة نفـسها ، التى ترى أن الأدوار إنما هى « الأنماط المعيارية الثقافية » ، ومن هؤلاء الباحثين «نيوكم» نفسه الذى يقول: « إن طرق السلوك المتوقعة من أى فرد يحتل مركزا معينا، تكون الدور المتصل بذلك المركز »[5] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١٤ .

(3) Ralph Lintion The Cultural Background of Personality p . 77.

(٤) المكان نفسه .

(5) Theodore M . Newcomb , Social Psychology P . 280.

ويقول « زنانيستشكى » (Znaniecki) : « من الواضح أن هناك نمطا ثقافيا أساسيا وعالميا تسير وفقا له وتنظم معياريا كل أنواع العلاقات الدائمة بين الأفراد ومحيطاتهم الاجتماعية ، وهذا ما نعرفه باصطلاح الدور الاجتماعى » [١] .

ويعرف كل من « بنت » (Bennett) و « تيومين » (Tumin) الدور بأنه «ما يتوقعه المجتمع من أى فرد يحتل مركزا معينا ، وهذا يتضمن أن أى مركز يمكن تعريفه وظيفيا بواسطة الدور المرتبط به »[٢] .

وقد عالج « بارسونز » (Parsons) الدور فى إحدى مقالاته بالأسلوب نفسه تقريبا[٣] ، كما فعل ذلك أيضا كل من « روز » (Rose)[٤] و « كوماروفسكى » (Komarovsky)[٥] .

ثانيا : الدور من وجهة النظر الاجتماعية :

تندرج تحت وجهة النظر الاجتماعية فى تعريف الدور ، تعريفات أخرى تركز على إبراز الناحية السوسيولوجية وتعالج الدور على أنه مفهوم الفرد لموقفه فى ضوء مركزه الاجتماعى بالإضافة إلى مراكز الآخرين الاجتماعية .

ومن هذه التعريفات تعريف « سارجنت » (Sargent) الذى يقول : « إن دور الفرد ما هو إلا نمط أو طراز من السلوك الاجتماعى ، الذى يبدو مناسبا له موقفيا من خلال مطالب وتوقعات مجموعته »[٦] ، ويستطرد « سارجنت » فيبين

(1) Florian Znaniecki , The Social Role of The Man Of Knowledge P . 19.

(2) John W . Bennet and Melvin M. Tumin, Social Life, Sturcture and Function , P . 96.

(3) Talcott Parsons " age Sex In The Structure of The United States " A . S . R . VII (142) P . 604-616.

(4) Arnold M . Rose " The Adequacy Of Women's Expectation for Adult Roles " Social Forces , 30 (1951) PP. 69-77.

(5) Mirra Komarovsky " Cultural Contradictions and Sex Roles " A . J . S . III (1946) PP. 184-189.

(6) Stansfeld Sargent " Concepts of Role and Ego In Contemporary Psychology " In John H . Rohere and Muzaffer Cherif (eds). cocial Psychology at The Crossroads P.360.

«أن الأدوار بهذا المعنى ، إنما تتضمن عناصر متعددة ثقافية وشخصية وموقفية ، ويقول : إن الدور لا يكون أبدا ثقافيا فى مجموعه ، أو شخصيا برمته ، أو موقفيا فى كليته »[١] .

ويعد تعريف الدور عند « بارسونز » مثالا واضحا لمفهوم الدور من وجهة النظر الاجتماعية ، وإن خير فهم لتعريف الدور عند « بارسونز » هو الذى يأخذ فى الاعتبار مفهوم الفعل (Action) كإطار مرجعى له ، فبالنسبة « لبارسونز » و«شيلز» (Shils) ، يعد الفعل سلوكا موجها نحو تحقيق غاياته وأهدافه أو أية توقعات أخرى مرجوة ، وهو يحدث فى المواقف المنظمة معياريا . ويتضمن إنفاق الجهد ، والطاقة[٢] . ولعل النص التالى من كتابهما يوضح ذلك إلى درجة كبيرة : «كل فعل هو فعل فاعل ، وهو يحدث فى المواقف التى تتكون من موضوعات ، وقد تكون هذه الموضوعات فاعلين آخرين ، أو موضوعات فيزيقية أو ثقافية ، ولكل فاعل نسق من العلاقات نحو الأشياء وهذا يسمى نسق التوجيهات (System Of Orientation) ، وهذه الموضوعات قد تكون موضوعات هادفية (Gole Objects) أو موارد أو وسائل أو حالات ، أو عوائق أو رموز ، وقد تصبح هذ الموضوعات ذات شحنات انفعالية (Cathected) مرغوبة أو غير مرغوبة ، وقد تكون لها معان مختلفة متصلة بها (أى أنها قد تعنى أشياء مختلفة بالنسبة إلى أشخاص مختلفين) ، وبواسطة المعانى والدلالات المتصلة بها تصبح الموضوعات منظمة فى نسق توجيهات الفاعل »[٣] . وفى هذا النص يعد الدور نوعا من التنظيم لموجهات الفاعل للمواقف .

ويقول « بارسونز » فى مؤلف آخر : « إن الدور هو قطاع من النسق التوجيهى الكلى للفرد الفاعل ، وهو ينتظم حول التوقعات فى علاقتها بمحتوى تفاعل معين ، تلك التوقعات التى تتكامل مع مجموعة بعينها من المعايير القيمية

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦.

(2) Talcott parsons and Edward A. Shils With The assistance of James Olds , " Valucs Motives and Systems Of Action " In Talcott Parsons and E . Shils (eds) Towards General Theory Of Action P . 53.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

التى تتحكم فى التفاعل مع واحد أو أكثر من المتغيرات فى الأدوار التكميلية المناسبة »[١] .

ثالثا : الدور من وجهة النظر النفسية الاجتماعية :

تتضح وجهة النظر النفسية الاجتماعية للدور فى تلك التعريفات التى تتناول الدور بوصفه سلوك الفاعلين الذين يحتلون مراكز اجتماعية ، وتعريف الدور بهذا الشكل لا يشير إلى الأنماط المعيارية التى تعين للفاعلين ما ينبغى أن يفعلوه ، كما أنه لا يشير إلى توجيه الفاعل نحو موقفه ، وإنما هو يبين ما يفعله الفاعلون فعلا كمحتلين لمراكز .

ومن التعاريف التى تقع ضمن هذه الفئة ، تعريف « كنجزلى ديفز » (Kingsley Davis) الذى يقرر « أن ما نسميه بالدور هو كيفية تصرف الشخص فى مركز معين ، بصرف النظر عما ينبغى عليه أن يفعله ، إن الدور إذن هو الطريقة التى ينجز بها الشخص فعلا مطالب مركزه . إنه « المظهر الدينامى للمركز أو الوظيفة »[٢] والمعنى الذى يوعز به « ديفز » يختلف تماما عن استخدام «لينتون» لعبارته « ما ينبغى أن يفعله الفرد لكى يحقق مشروعية احتلاله للمركز »[٣] من عبارة « المظهر الدينامى للمركز أو الوظيفة ». والحقيقة أن مفهوم الدور عند «ديفز» يشابه إلى حد كبير مفهوم « نيوكم » عن سلوك الدور ، إذ إنه يرى « أن سلوك الدور يشير إلى السلوك الفعلى أو الواقعى لأفراد بعينهم حينما يؤدون أدوارا»[٤] .

كذلك نجد أن مفهوم الدور عند «ديفز» مشابه أيضا لمفهوم «ساربن» (Sarbin) عن إنجاز الدور أو القيام بالدور (Role enactment) الذى يقول بصدده: « إن القيام بالدور ما هو إلا مجموعة الإنجازات الظاهرة للأشخاص، وهذه الإنجازات قد تحقق أو لا تحقق توقعات شخص أو أشخاص آخرين فى الموقف الاجتماعى»[٥].

(1) Talcott Parsons , The Social System PP. 38, 39.

(2) Kingsley Davis ,Human Society P . 90.

(٣) انظر ما قبل .

(٤) انظر « نيوكم » المصدر السابق ، ص٣٣.

(5) Theodore R . Sarbin , " Role Theory " in Gardner Lindzy (ed) Handbook Of Social Psychology , PP. 223-258.

ويقدم لنا « سليتر » (Salter) مفهوما للدور قريب المعنى من التعريفات السابقة ، إذ يقول: « من الممكن تعريف الدور بأنه نسق متماسك وموحد من فقرات من السلوك المتبادل بين الأفراد » [١] .

وهناك من تعريفات « بارسونز » الأخرى ما يمكن أن ينطوى تحت هذا المنظور النفسى الاجتماعى، فهو يرى « أن الدور هو ما يستطيع الفاعل القيام به فى علاقته مع الآخرين » [٢] ، ومعنى ذلك أنه يراه من خلال دلالته الوظيفية للنسق الاجتماعى .

وفى هذا المجال ، لا ننسى أن نذكر أيضا بعض التعريفات التى تربط بين الدور والسلوك ، والتى تؤكد بشكل كبير علاقة الأنا بالآخرين ، ويقول «كوترل» (Cottrell) فى هذا الصدد فى إحدى مقالاته : « سأستعمل اصطلاح الدور للإشارة إلى سلسلة ثابتة وداخلية من الاستجابات المشروطة لعضو من أعضاء الموقف الاجتماعى ، والتى تمثل المثير بالنسبة إلى سلسلة مماثلة ثابتة وداخلية من الاستجابات المشروطة للآخر أو للآخرين »[٣] . وهكذا نرى أن « لينتون » كأنثروبولوجى ، يؤكد الأنماط الثقافية ، بينما يبرز « سارجنت » كسيكولوجى ، التصورات الفردية ، أما « بارسونز » السوسيولوجى ، فيطور مفهومه للدور يبلوره لكى يتلاءم مع أنظومته النظرية فى النسق الاجتماعى ، كجزء من نظريته العامة فى الفعل الاجتماعى ، هذا بينما تؤكد مجوعة أخرى من السوسيولوجيين العمليات المجموعية (Group Processecs) .

وكأنثروبولوجى أيضا ، فإن « لينتون » يؤكد بادئ ذى بدء ، الأنماط المعيارية التى تؤثر فى سلوك شاغلى المراكز فى البناء الاجتماعى ، وهو يشير إلى ذلك

---

(1) Philip E . Slater " Role Differentition in small Groups" in Paul Hare , Edger F . Borgatta and Robert . F. Bales (eds) Small Groups . P . 498.

(٢) « ابرسونز » النسق الاجتماعى ، ص ٢٥.

(3) Leonard Cotterll , " The Adjustment of The Individual to His Age Sex Roles " A. S. R . 7 (1942) . P . 617.

قائلا: « لقد اصطلح الأنثروبولوچيون على أن الثقافات ينبغى أن توصف فى ضوء معـايير السلوك بدون الإشـارة لا إلى الانحرافـات ولا إلى الأفراد »[1] . وتبـعا لذلك فإنه يتـجاهل فى مفهـومه السلوك الملموس (الواقعى) للفـاعلين فى المراكز الاجتماعية المختلفة ، وعلى الرغم من أنه كان مدركا أن السلوك ليس موحدا، ولا يتفق دائما مع معايير السلوك بدليل أنه قدم أسبابا لـتفسير عدم التوحد هذا - فهو لم يفد من ذلك فى مفهومه عن السلوك الفعلى لشاغلى المراكز الاجتماعية .

أما نقطة البداية عند كل من « بارسونز » و «ديفز » كعلماء سوسيولوچيين، فهى موقف التفـاعل ، ويتضمن التفاعل سلوكا ، كما أنه يتطلب مـفهوما يصف كيفية سلوك الأفراد سلوكا يعد فعلا ، بالإضافة إلى الكيفية التى ينبغى بها لهم أن يسلكوا أى سلوك كمنتسبين إلى مراكز معينة أو شاغلين لها ، وهذا ما أوضحه كل من « بارسونز » و «ديفز» فقد عرف «ديفز» الدور بأنه السلوك الفعلى لشاغل المركز أو المنتسب له، بينما استـخدم « بارسونز » اصطلاح الإنجازات (Performances) ، أمـا « نيوكم»، فـلأنه عالم نفـسى اجـتمـاعى يهتم بوطأة الـثقـافة وتأثيـر البناء الاجتـماعى على سلـوك الأفراد، نجده يقـدم لنا مفـهومـه الذى يصف الســلوك الفـعلى لشـاغلى المراكز أو المنتسـبين لها، وهو يفرق فى هذا بين سـلوك الـدور (role behavior) أى السلوك الفعلى لشاغلى المراكز ، وبين الدور (role) كطريقة السلوك المتوقعة من شاغلى المراكز أو المنتسبين لها .

ومن الأسباب الأخرى المؤدية لاختلاف التعريفات الخاصة بالدور ، اختلاف الموضوعات التى يـركز عليها كل متـخصص ، ويتضمن ذلك اخـتلافا فى الإطار المرجعى الذى يضع من خلال مـفهوماته عن الدور ، فنجد « لينتـون » على سبيل المثال ، يهتم بالمراكز فى المجـتمع بأسره ، أما مفهومات « كوتـرل » فتصف نسقا اجتماعيا فرعيا (Subsocial System) مكونا من الأنا والآخر فى تفاعل فعلى . أما إطار المراجع عند « سارجنت » فمحدد بتصور الفرد لموقف تفاعل مفرد .

---

(1) Ralph Linton " Forward " in Abram Kardiner , The Psychological Frontiers of Society , P . X.

ولما كان عـماد الإطار المرجـعى فى بحث ظواهر الدور عند « لينتـون » هو المجتـمع ككل ، فإن توقعـات الفاعلين فى المراكز المتـبادلة بالنسبـة للآخر ، تمثل موضوعا ذا أهمـية قليلة إذا ما قورن بأهميتـه عند « كوترل » أو « بارسونز » على سبيل المثال ، كما أن « لينتـون » لا يلقى بالا إلى تصورات الأفراد للتوقعات التى تمثل بؤرة اهتمام عالم آخر مثل « سارجنت » .

وهناك سبب آخر لبـعض هذه الاختلافات فى تعـريف الدور ، وهو متعلق بفهم معـانى المصطلحات وما تقصد إليه عند كـل عالم من العلماء الذين عنوا به، فالظواهر الواحدة كثيرا ما تعطى أسماء مختلفة ، فنجد مثلا أن ما يعرفه « لينتون» و«نيوكم» بالدور ، يعرفـه « ديفز » بالمركز ، وما يعـرفه « ديفز » بالدور ، يطلق عليه « نيوكم » سلوك الدور ، ويسميه « ساربين » القيام بالدور .

ويبقى هناك سبب آخر للاختلافات فى تعريف الدور ، يكمن فى أن معظم الباحثين الذين ناقشنا تعريفاتهم ، قد أخذوا عن « لينتون » وهم لا يفتأون يعبرون عن امتنانهم له فى كتبهم ، فقد انطلق بعض هؤلاء الباحثين من مفهومه للدور فى كتابه الأول . **دراسة الإنسان** بينما كانت نقطة انطلاق البعض الآخر تصوره للدور فى كتـابه الثانى : **الخلفيـة الثقـافية للشـخصـية** ، وقد أدى بعض الاخـتلاف فى تصورى « لينتـون » المعروضين فى هذين الكتـابين إلى اختلاف آخـر مستـمر بين الباحثين الذين أخذوا عنه .

وعلى الرغم من أن نظريـات الباحـثين فى الدور وأنظومـاتهم عنه تخـتلف بعضها عن بعض اختلافات أساسية ، فإن معظم هؤلاء الذين استعرضنا تعريفاتهم يهتمون جميعا بظواهر واحدة . فهناك اتفاق عام تقريبا بين المهتمين بدراسة الدور، رغم اختلاف مفهوماتهم له ، يتركز فى أن الدور هو مجموعة أفعال الفرد المنتظمة والمنسقة مع مركز أو وضع معين .

ونخلص من ذلك إلى أن هناك ثلاث أفكار رئيسية تبدو فى معظم تصورات الباحثين ، كما أنها تبدو أيضـا فى تعريفاتهم للدور نفسه ، وتتبلور فى أن الأفراد فى مراكزهم أو مواقعهم الاجتماعية يسلكون فى إطار من التوقعات ، وعلى ذلك تتركز تلك الأفكار الثلاث التى لا يخلـو منها تعريف للدور فى نقاط ثلاث هى : المراكز أو المواقع الاجتماعية ، والسلوك ، والتوقعات .

تحليل متكامل للدور
تصور مقترح

الآن وقد استعرضنا وجهات نظر محللى الدور من زواياهم المختلفة : الثقافية، والاجتماعية ، والنفسية الاجتماعية ، فإنه يتضح لنا أن الاتجاه التكاملى فى تحليل مفهوم الدور فى إطار نظريته هو أفضل اتجاه وأوضحه ، إذ يجب أن يضم ذلك التحليل إذا ما أردنا له الوضوح والدقة ، كلا من علم الثقافة ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى ؛ لأن ذلك الاتجاه التكاملى يتفق مع طبيعة الدور التى تتصل بكل من هذه العلوم الاجتماعية اتصالا وثيقا، فالدور يقع فى نطاق مرجعى يشمل الثقافة ، والمجتمع ، والشخصية فى كل متكامل .

من هذا المنطلق سنحاول ، من خلال منظورنا ، تصور مفهوم متكامل للدور عن طريق تحليل أهم مضموناته ، والجدير بالذكر أن هذا التصور المقترح للمفهوم المتكامل يحاول أن يسهم، كما ذكرنا من قبل ، فى إلقاء المزيد من الضوء على مفهوم الدور ، الذى تدور حوله نظرية الدور من أساسها من خلال ثلاثة مصطلحات أساسية صغناها فى محاولة مزدوجة الهدف فهى تهدف أولا إلى تحديد هذا المفهوم عن طريق ثلاثة اصطلاحات مميزة له ، وهى تهدف ثانيا إلى تجميع المضمونات المختلفة التى يحتوى عليها هذا المفهوم فى هذه المصطلحات الثلاثة فى محاولة لتلافى قصور التعريفات والمصطلحات التى تتناول الدور - فى إطار نظريته- من زاوية واحدة أو تركز على مضمون واحد فقط .

والدور فى نظرنا هو مجموعة مواصفات تحدد ما ينبغى أن يفعله الشخص كشاغل لمركز معين على مستوى المجموعة الصغيرة أو المجتمع الكبير ، وهذه المواصفات قد تضعها للشخص المجموعة الصغيرة ، أو قد يحددها له المجتمع الكبير فى شكل معايير وقيم ، أو قد يرسمها الشخص نفسه لنفسه ، متخذا فى هذه الحالة صورة توقعاته هو نفسه من متطلبات هذا الدور المتصل بمركز معين، والدور حين يترجم إلى فعل وسلوك ، لا يكون دورا فقط ، وإنما يصبح دورا وظيفيا ، يربط الناس بعضهم ببعض ، بسبب الاعتماد الوظيفى المتبادل بين الأدوار وكل فرد يطبع دوره الوظيفى بطابع منفرد متميز .

ويتبين من تحليلنا السالف لمفهوم الدور أنه يحتوى على ثلاثة مصطلحات أساسية هى :

(١) الدور المعيارى :

وهو مجموعة المواصفات أو المتطلبات النابعة من المجتمع أو من الثقافة الكلية، التى ترسم للأشخاص أدوارهم فى حدود مراكزهم المتباينة ، والقيم هنا جزء لا يتجزأ من تلك المواصفات. ففى كل ثقافة وكل مجتمع ، دور معيارى للزوج ، ودور معيارى للزوجة ، ودور معيارى للابنة ، وهكذا ، ويتضح ذلك من وجود تعبيرات مثل الزوج الصالح (Good Husband) ، والزوجة الصالحة (Good Wife) فى معظم اللغات ، وكثيرا ما يقال فى لغتنا العادية : الزوج الطيب هو الذى يفعل كذا وكذا، وما ذلك كله إلا تعبيرا عن الدور المعيارى الذى تحدده الثقافة الكلية .

(٢) الدور المتوقع :

هو مجموعة من المواصفات أو المتطلبات التى يتطلبها الأنا من الآخر (والعكس صحيح أيضا) فى موقف تفاعل يتأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الفرعية لكل منها، ومن المفهوم أن الثقافة الكلية ، ترمى بثقلها على الدور المتوقع أيضا ، فالدور الذى تتوقعه زوجة حضرية من زوجها الريفى النشأة ، يختلف عن الدور الذى يتوقعه هو منها بحكم ريفية نشأته ، وهنا تلعب التنشئة الاجتماعية دورا لا يبارى فى توقعات كل منهما من الآخر ، المتأثرة بدورها بالثقافة الفرعية فى المحل الأول ، وبالثقافة الكلية فى المحل الثانى .

(٣) الدور الوظيفى[1] :

الدور الوظيفى فى رأينا هو الدور الفعلى أو الدور المؤدى بالفعل ، ذلك

---

(١) اصطلاح الدور الوظيفى هو اصطلاح وضعناه للدلالة على مفهوم معين للدور من وجهة نظر خاصة، ولم يرد مثل هذا الاستخدام فيما نعلم إلا فى مؤلف لبارسونز عن البناء الاجتماعى للأسرة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكنه كان يقصد بالدور الوظيفى هنا استخداما ساذجا لمعنى الوظيفية باعتبارها مهنة أو عمل، وهذا يختلف عما قصدناه كلية.

انظر : Talcott Parsons , " The Social Structure Of The Family , In Anshen , Ruth Nanda (ed) Family : Its Function and Destiny

لأنه يؤدى وظيفة التوافق مع الثقافة الكلية أو الفرعية المجموعية أو الجماعية (Group or Communal) ، فهو إذن سلوك الدور فعلا أو أداؤه ، وقد يتمشى الدور الوظيفى مع الدور المعيارى والدور المتوقع ، وقد لا يتمشى مع أحدهما أو كليهما ، كما أنه قد يسايرهما بدرجات متفاوتة ، ويمكن القول بأن الدور الوظيفى هو المظهر الدينامى للوظيفة ، أى أنه الطريقة التى ينفذ بها الشخص فعلا المطالب الوظيفية لمركزه .

وتتخذ الأدوار الوظيفية أشكالا معينة من السلوك تتعلق بأعمال معينة ، وهى تنشأ أصلا من متطلبات الأعمال والأدوار المطلوبة من كل الأشخاص ، سواء فى شكلها النقى أو شكلها التنظيمى داخل الإدارات والمصالح ، وما هى إلا أنماط مقننة من السلوك المطلوب من كل الأشخاص الذين يؤدون دورا فى علاقة وظيفية معينة ، بصرف النظر عن الرغبات الشخصية أو الواجبات بين الأشخاص بعضهم وبعض ، تلك الرغبات أو الواجبات التى لا صلة لها بالعلاقة الوظيفية ، فالدور الوظيفى ببساطة ما هو إلا الوظيفة التى يؤديها الشخص فى المجموعة متأثرا بتعريف المجموعة أو الثقافة بعامة لها .

ويرتبط الناس معا بسبب الاعتماد الوظيفى المتبادل بين الأدوار التى يؤدونها، فدور الزوج معتمد على دور الزوجة ، ودور الزوجة معتمد على دور الزوج، ودور عامل المصنع الذى يجمع آلة ما يعتمد على دور زميله الذى يمده بأجزاء تلك الآلة ، ودور زميله معتمد كذلك على دوره .

ومن المعروف أن أشخاصا حقيقيين هم الذين يشغلون الأدوار ، وأنه ليس هناك شخصان متماثلان تماما فى كل الخصائص والصفات والقيم ، فكل فرد يطبع دوره الوظيفى بطابع منفرد متميز ، ينبع من خصائص نمط سلوكه الفعلى .

والتصور المقترح الذى عرضناه يمكن أن يكون أساسا لتفسير كثير من المشكلات التى تقع خلال التعامل اليومى بين شخصين يتبادلان العلاقات فى حياة طويلة كالزوجين مثلا . فإذا ما نظرنا إلى الأسرة كبناء ، أو نسق من الأدوار ، لوجدنا أن الدور الوظيفى للزوجين هو دورهما الفعلى فى الأسرة ، أو الدور الذى يؤديه كل منهما فعلا ، وهو يتأثر بكل من الدور المعيارى ، والدور المتوقع لكل من الزوجين ، ولكن ذلك لا يعنى أن الدور الوظيفى للزوجين لابد أن يتطابق مع

أى من الدور المعيارى والدور المتوقع ، على الرغم من أن بعض الباحثين يخلطون بين هذه الأدوار الثلاثة خلال تحليلاتهم للدور ، فلا يفرقون بين الدور الفعلى ، والدور المتوقع ، والدور المعياري[1] .

وليس من شك أن التباينات بين الأدوار الثلاثة من الأهمية بمكان بالنسبة لمحللى الأدوار ، فقد تنشأ تلك التباينات والاختلافات بين الأدوار نفسها ، بسبب عديد من العوامل ، من بينها مثلا عدم مواصفات الدور وتحديدها ، وكيفية ترجمة الفرد لتلك المواصفات ومدى قدرته على تنفيذها والقيام به .

ونود أن نؤكد خلال تحليلنا للأدوار بعامة اهتمامنا البالغ بمفهومى الثقافة ، والمحتوى الثقافى ، وتأثيرهما الكبير الذى لا يمكن إغفاله على الدور الوظيفى بعامة .

ولتوضيح ذلك يمكننا أن نتصور الزواج على أنه التقاء وارتباط بين ذكر وأنثى وذلك من ناحية الشكل ، أما إذا تعمقنا المضمون، وهو التقاء ثقافتين مختلفتين ، إذ إن لكل إنسان ثقافته التى تشحنه بشحنة من القيم التى توجه بدورها سلوكه الاجتماعى ، وبخاصة سلوكه مع الشخص الآخر .

وإذا ما تساءلنا عن ماهية محتوى هذه الثقافة بالنسبة لكل منهما ، لوجدنا أن الإجابة السوسيولوجية الواقعية ، تنحصر فى جعل الذكورة أو الأنوثة المحور الذى يدور عليه المحتوى الثقافى لدى هذا الشخص أو ذاك ، ذلك أن كل فرد إنما تدور تنشئته الاجتماعية حول هذه الحقيقة الأساسية ، وهى الذكورة أو الأنوثة.

وعلى هذا الأساس فإننا نعتبر أن التنشئة الاجتماعية للذكر كذكر ، وللأنثى كأنثى ، أساس لدورهما الوظيفى فى المستقبل كزوج أو كزوجة ، وأن الزوجين يرتبطان برباط الزوجية وكل منهما مشحون بقيمه الثقافية ، متأثر بتنشئته الاجتماعية ، وما تشتمل عليه من مفهومات وتصورات بالنسبة لدور كل منهما فى الزواج ، مما يمكن أن نسميه « مفهومات الدور القبلية » .

---

(١) انظر على سبيل المثال تعريف « نيوكم » للدور ، فيما قيل .

المراجع

أولا: مراجع باللغة العربية:

(أ) مراجع عامة:

١ - الميداني **«مجمع الأمثال»** القاهرة، المطبعة البهية، ١٣٤٢ هـ، جزء ٢.

٢ - منير بعلبكي **«المورد»** بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩.

(ب) كتب ودوريات:

١ - ابن خلدون **«المقدمة»** القاهرة، المكتبة التجارية (لم يذكر تاريخ النشر).

٢ - أحمد أبو زيد **«البناء الاجتماعي»** الجزء الاول، المفهومات، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، الطبعة الثالثة.

٣ - أحمد عزت راجح **«أصول علم النفس»** الاسكندرية، المكتب المصري الحديث، ١٩٧٣، الطبعة الثالثة.

٤ - أحمد الخشاب **«دراسات في النظم الاجتماعية»** القاهرة، مكتبة القاهرة.

٥ - أحمد الخشاب **«دراسات انثروبولوجية»** القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

٦ - السيد ياسين **«الطابع القومي للشخصية»** القاهرة، مجلة الفكر المعاصر، عدد ٥٠، ١٩٦٩.

٧ - السيد ياسين **«الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي»** القاهرة، مؤسسة الاهرام، ١٩٧٣.

٨ - اميل دوركايم **«قواعد المنهج في علم الاجتماع»** ترجمة عن الفرنسية محمود قاسم، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١.

٩ - ج. أوسيبوف «**قضايا علم الاجتماع**» ترجمة سمير نعيم أحمد وفرج احمد فرج، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

١٠ - حامد عمار «**بعض مفاهيم علم الاجتماع**» القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٢.

١١ - حسن سعفان «**تاريخ الفكر الاجتماعي**» القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢.

١٢ - حسن سعفان «**أسس علم الاجتماع**» القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨ - ١٩٥٩.

١٣ - حسن الساعاتي «**علم الاجتماع القانوني**» القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٠، ط ٢.

١٤ - حسن الساعاتي «**التحليل الاجتماعي للشخصية**» **المجلة الجنائية القومية**، القاهرة، عدد ١، مارس ١٩٥٨.

١٥ - حسن الفقي «**الثقافة والتربية**» الاسكندرية، ١٩٧٠.

١٦ - حلمي المليجي «**علم النفس المعاصر**» بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٠، ط ١.

١٧ - ر. م. مكيفر، وتشارلز بيج «**المجتمع**» ترجمة علي احمد عيسى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، لم يذكر تاريخ النشر.

١٨ - روزنتال ويودين «**الموسوعة الفلسفية**» ترجمة سمير كرم، دار الطليعة ١٩٧٤.

١٩ - سامية حسن الساعاتي «**الدور الوظيفي للزوجين في الأسرة المصرية**» دراسة ميدانية في الريف والحضر، **رسالة دكتوراة غير منشورة**، جامعة القاهرة، ١٩٧٢.

٢٠ - سيد محمد غنيم «**سيكولوجية الشخصية**» القاهرة ١٩٥٣ الطبعة الأولى.

٢١ - عاطف وصفي «**الثقافة والشخصية**» الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥.

٢٢ - عبد العزيز القوصي «**أسس الصحة النفسية**» القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢.

٢٣ - عثمان فراج «**أضواء على الشخصية والصحة العقلية**» القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠.

٢٤ - عثمان فراج «الشخصية والصحة النفسية» بيروت، مكتبة العرفان ١٩٦٦.
٢٥ - عماد الدين سلطان واخرون «صراع القيم بين الاباء والأبناء» المجلة الاجتماعية القومية، يناير ١٩٧٢.
٢٦ - فوزية دياب «القيم والعادات الاجتماعية» القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨١.
٢٧ - فؤ اد البهي السيد «علم النفس الاجتماعي» القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨.
٢٨ - فؤ اد زكريا «الانسان والحضارة» القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨.
٢٩ - قدرى حفنى «تجسيد الوهم» دراسة سيكولوجية للشخصية الاسرائيلية، القاهرة، مؤسسة الاهرام، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، ١٩٧١.
٣٠ - قدري حفنى «دراسة في الشخصية الاسرائيلية» الاشكينازيم، القاهرة، مركز بحوث الشرق الاوسط، ١٩٧٥.
٣١ - محمد خليفة بركات «تحليل الشخصية» القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٨.
٣٢ - محمد لبيب النجيحى «الاسس الاجتماعية للتربية» القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١، الطبعة الرابعة.
٣٣ - محمد عزيز الحبابى «من الكائن الى الشخص» القاهرة، دار المعارف ١٩٦٢.
٣٤ - مصطفى سويف، «الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي»، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠، ط ٢.
٣٥ - مصطفى سويف «اطار اساسي للشخصية: دراسة حضارية مقارنة على نتائج التحليل العاملي» المجلة الجنائية القومية، ٥ - ١ - ١٩٦٢.
٣٦ - مصطفى سويف «مقدمة لعلم النفس الاجتماعي» القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٦، الطبعة الثانية.
٣٧ - مصطفى الخشاب، وآخرون «اصول علم الاجتماع» القاهرة، مطبعة البيان العربي، ١٩٥٧.
٣٨ - مصطفى الخشاب «علم الاجتماع ومدارسه» القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٧.
٣٩ - هول ولندزي «نظريات الشخصية» ترجمة فرج أحمد فرج وآخرون، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧١.

ثانيا : المراجع الأجنبية

1. Allport, G., Personality, A **Psychological Interpretation,** N.Y. **Holt.** 1937.
2. —., **Pattern and Growth of Personality,** N.Y. Holt, 1961.
3. Adler, A., **Understanding Human Nature,** N.Y. Fawcett. publications Inc., Greenwich, 1965.
4. Bagehot, Walter, **Physics and Politics,** or "Thoughts on the Application of the Principle of Natural Selection, and Inheritance, to Political Society". With an Introduction by Jaques Barzun, N.Y., Alfred A. Knopf. 1948.
5. Bain, R., A "Definition of Culture". **Sociology and Soc. Res. Vol.** 27, 1942.
6. Barker. E., **National Character and the Factors of Its Formation,** Methuen, 1927.
7. Benedict, R., "The Science of Custom", in V.F. Calverton (ed). **The Making of Man,** N.Y. The Modern Library, 1931.
8. —., **The Chrysanthemum and the Sword: Patterns of Japanese Culture,** Houghton Mifflin, 1946.
9. —., **Race, Science and Politics,** (rev edn) 1947.
10. **Patterns of Culture,** Mentor Book, New York, 1953.
11. Berman, L., **The Glands Regulating Personality,** N.Y. Mac Millan, 1928
12. Bidney, D., "On the Philosophy of Culture in The Social Sciences"., **Journal of Philosophy,** Vol. 39, 1942.
13. Biesanz, J. & Biesanzs, M., Modern Society: **An Introduction to Social Sciences.** Prentice - Hall, Englewood Cliffs. N.J. 1963.
14. Boas, F., "Anthropology", **Encylopoedia of the Social Sciences.** Vol. 2. N.Y. 1930.
15. Bogardus, E S., "Tools in Sociology.", **Sociology and Soc. Research.,** Vol. 14, 1930.

16. Bridges, K., **Emotional Development in Early Infacy, Child Development**, 1932.

17. Brown, Radcliffe & White, A.R., "View of a Science of Culture, **Amer. Anthrop. Vol. 51. 1959.**

18. Burt, E.B. **Applied Psychology**, N.J., Prentice - Hall Inc., 1957.

19. Burks, B.S. & Roc. A., "Studies of Identical Twins Reared **Apart**", **Psychol. Monoger. 1949.** 63 No. 5.

20. Cattell, R.B., **An Introduction to Personality Study**, London, Hutchinson's, University Library, 1950.

21. Chase, S., **The Proper Study of Mankind**, New York, 1948.

22. Cohen, Yehudi, A., **Social Structure and Personality:** A Casebook, Holt, Rinehart and Winston, 1964.

23. Cretshmer, E., **Physique and Character**, translated from Second Edition by W.J. Sprott, N.Y. Harcourt Brace and Co., 1925.

24. Dewy, J., **Human Nature and Conduct**, N.Y. Modern Library, 1950.

25. Dollard, J., **"Culture, Society, Impluse and Socialization"**, A.J.S. Vol. 45, 1939.

26. Duijker, H.C.J. & N.H. Frijda., **National Character and National Sterlotypes**, North Holland, 1960.

27. Fillo, J.C., **La Personalité: Que sais - Je?** No. 758. Presses Universitaires de France., 1959.

28. Fleming, V.V., "Persistance and Change in Personality Patterns," **National Research Council**, Vol. 8, No. 3, 1943.

29. Ford, C.S., "Society, Culture and the Human Organism", **Journal of General Psychology**, Vol. 20, 1939.

30. Freud, S., **The Ego and The Id.**, London, Hogarth Press, 1927.

31. .——., **An Outline of Psycho - Analysis**, N.Y., Modern Library, 1938.

32 .——., **The Basic Writings of Sigmund Freud**, N.Y. Modern Library, 1938.

33. Gorer, G., "National Character, Theory and Practice", in M. Mead and R. Metraux, (eds). **The Study of Culture at a Distance**, University of Chigaco Press, 1953.

34. Hallowell, A.I., "Culture, Personality and Society" in Kroeber A., **Anthropology Today**, London, Curtis Brown Ltd.

35. Heider, F., **The Psychology of Interpersonal Relationships**, N.Y. Wiley, 1958.

36. Herskovits, Melville., **Man and His Works.**, N.Y., Knopf., 1948.

37. Hertzler, J.O., **Social Institutions**, Lincoln, University of Nebraska Press, 1946.

38. Hoebel, E.A., "Anthropological Perspectives on National Character", **The Annals of the American Academy of Political and Social Sciences**, 370. 1967. 1.

39. Honigman, John, **Culture and Personality**, N.Y., Harper, 1954.

40. Ginsberg, Morris, **The Psychology of Society**, London, Methuen, 1937.

41. Inkeles, A., and D.J., Levinson., "National Character: The study of Modal Personality, and Sociocultural System," In G. Lindzey & E. Aronson, (eds) **A Handbook of Social Psychology**, Adison. Wesley, 1969, second edn. Vol. 4.

42. Kardiner, A. **The Individual and His Society**, Colombia University Press. N.Y. 1939.

43. Kardiner, A., with the collaboration of Ralph Linton, Cora Du Bois, and James West, **The Psychological Frontiers of Society**, N.Y., Colombia University Press, 1945.

44. Kempf, E.J. (ed) **Comparative Conditioned Neuroses**, Acad. Sci., 1953.

45. Kluckhohn, C., "The Concept of Culture", in Daniel Lerner & Harold Laswell (eds). **The Policy Sciences**, Stanford, California, 1951.

46. Klukhohn. C., Murray, A., and Schneider, D.M., **Personality in Nature, Society and Culture**, N.Y., Knopf, 1953.

47. Klukhohn, "Value and Value - - Orientations in the Theory of Action", in T. Parsons and E. Shills, (eds). **Toward A General Theory of Action**, Harvard, Harvard Univ. Press, 1954.

48. Krech D., & Crutchfield, R.S., **Theory and Problems of Social Psychology.**, N.Y., Mc-Graw-Hill, 1948.

49. Kroeber A.L., & Kluckhohn Clyde, **Culture: A Critical Review of Concepts and Definitions**, N.Y., Vintage Books, 1952.

50. Linton, R., **The Study of Man**, N.Y., Appleton - Century Crofts., 1936.

51. Linton, R., **The Cultural Background of Personality**, N.Y., Appelton - Century - Crofts, 1945.

52. Linton, **The Tree of Culture**, N.Y., Alfred A. Knopf. Inc., 1955.
53. Le Vine, Robert, A., **Culture, Behaviour and Personality**, London Hutchinson & Co. 1973.
54. Lowie, R.H. **The History of Ethnological Theory**, New York, 1937.
55. Lundberg, Schrag & Larsen, **Sociology**, N.Y. Harper & Brothers, 1947.
56. Malinowski, B., **A Scientific Theory of Culture**, North Carolina, Chapel Hill, 1944.
57. —., Culture, **Encychopoedia of the Social Sciences**, Vol. 4.
58. —., **Review of Six Essays on Culture** by Albert Blumental, A.S.R. Vol. 4.
59. Martindale, D., The **Sociology of National Character**, in. Ann. Amer. Acad., Pol & Dov. Sci. March., 1967.
60. May, M.A., **Studies in the Organization of Character**, N.Y., Mac-Millan, 1930.
61. McDougall, W., **The Group Mind**, London, Unwin, 1920.
62. —., W., **The Energies of Men**: A study of the Fundamentals of Dynamic Psychology, London, Methuen, 1932.
63. Mead, G.H., Mind, Self and Society, Chicago. University, of Chicago Press, 1934.
64. Mead, Margaret, **Sex and Temperament**, in three Primitive societies, London, Routledge and Sons, 1935.
65. —., (ed), **Cooperation and Competition**, Among, Primitive Peoples, N.Y. McGraw Hill, 1937.
66. —., **Our Education Emphasis in Primitive Perspective**, A.J.S. Vol. 48 1937.
67. —., "National Character, in A.L. Kroeber (ed), **Anthropology: To-day An Encycloepedic Inventory.**, University of Chicago Press, 1953
68. —., "Political Application of studies of Culture at Distance", in M Mead and R., Metraux, (eds) **The Study of Culture at a Distance**, University of Chicago Press, 1953.
69. Meggers, Betty, "Environmental Limitation on the Development of Culture," **Amer. Anthr.**, 56, 1954
70. Merrill, F.E., **Society and Culture**., N.J., Prentice Hall Inc 1961

71. Mitchell, G. Duncan, A **Dictionary of Sociology**.

72. Moore, Harvey C., Cumulation and Cultural Processes., **Amer. Anthropologist**, Vol. 56. 1954.

73. Nasr, Mohammed Abdul-Muizzh,**Walter Bagehot**, Alexandria, Alexandria University Press 1959.

74. Newman, H.N., Freeman, F.N., and Holzinger K., L., Twins, **A study of Heredity and Environment**, Chicago, University of Chicago Press, 1937.

75. Panunzio, C., **Major Social Institutions: An Introduction**, N.Y. 1939.

76. Parsons, T., **Essays in Sociological Theory**, Glencoe, Illinois, 1949.

77. Piddington, R. **An Introduction to Social Anthropology**, Edinburgh. 1950.

78. Ogburn, & Nimkoff, **Sociology**, New York, Houghton Mifflin, 1946.

79. Ogburn, W.F., **Social Change** (rev. ed.) N.Y. The Viking Press, 1950.

80. Ogburn, W. & Nimkoff, A **Handbook of Sociology**, London, 1960.

81. Opler M., "Themes as Dynamic Forces in Culture," **Amer. Journal of Sociology**, Vol. 51, 1945.

82. Redfield, R., The Primitive World View, **Proceedings of the American Philosophical Society**, N.Y. 1952, 96.

83. Reuben Hill, Donald A. Hansen, "The Identification of Conceptual Frame Works Employed in Family Study", **M.F.L.** 22 Nov. 1960.

84. Poback, A.A., **Psychology of Character**, N.Y., Harcourt Brace and Co., 1927.

85. Roheim, G., "The Psycho-Analytic Interpretation of Culture," **The International Journal of Psycho**-Analysis,Vol. 22, 1941.

86. Schaar, J.H., **Escape From Authority**: The Perspective of ErichFromm, N.Y., Harper Torchbooks, 1961.

87. Shakespeare, W., **As You Like It**. Part II.

88. Sheldon,W.H., **Morphologic Types and Mental Ability**, J. Person Res., 1927.

89. Sherif, M., & Sherif C.W., "Research on Intergroup Relations", in O Klinberg and R. Christie, (eds), **Perspectives in Social Psychology**, Holt, 1965.

90. Sorokin, P.A., **Society, Culture and Personality: Their Structure and Dynamics**, N.Y. Harper & Brothers, 1947.

91. ——., "The essential Characteristics of the Russian nation in the twentieth Century" **The Annals of the American Academy of Political and Social Sciences**, 370, 1967.

92. Spiro, Memford E., "Culture and Personality", **Psychiatry**, 14, 1951.

93. Sumner, William G., Folkways: **A Study of the Sociological Importance of Usages, Manners, Customs, Mores, and Morals**, N.Y. Ginn; 1940.

94. Taylor, W., "A study of Archaeology", **American Anthropoligical Assoc.**, 1948. Memoir 69.

95. Thrope, L.P. and Schmuller A.M. **Personality: An Interdisciplinary Approach**. N.Y., D. Von Nostrand. 1965.

96. Thousless, R., **Genetal, & Social Psychology**, London, University Tutorial Press, 1941.

97. Tylor, E., **Primitive Culture**, John, Murray, London 1913.

98. Ulman, Albert D., **Sociocultural Foundations of Personality**, Boston, Houghton Mifflin company, 1955.

99. Wallace, A., **Culture and Personality**, N.Y. Random House, 1963.

100. White, Leslie A., "Ethnological Theory", in Sellars McGill, and M. Farber. (eds) **Philosophy for the Future**, N.Y. Macmillen, 1949.

101. ——., "The symbol, The Origin, and Basis of Human Behavior", **Philosophy of Science**, Vol. 1, 1949.

102. Wissler, C., "Psychological and Historical Interpretations for Culture", **Science**, Vol. 34, 1916.

103. ——., **Man and Culture**, N.Y. Thomas Crowell Company, 1923.

104. ——., **An Introduction to Social Anthropology**, N.Y. 1929.

105. ——., "Opportunities for Coordination Anthropological and Psychological Research,", **American Anthropologist**, Vol. 22.

106. Woodworth, R.S., **Experimental Psychology**, N.Y. Henry Holt and Co., 1938.

107. Young, K., **Sociology: A study of Society and Culture**, New York, American Book, 1949.

رقم الإيداع	١٣٦٨٤ / ٩٦
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1083 - 2